
موسى سليمان
الأدب القصصي عند العر
دار الكتاب اللبنا

موسى سليمان

الأدب القصصي عند العرب

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

طبعة رابعة

١٩٦٩

مقدمة الطبعة الرابعة

أسقطنا في هذه الطبعة الرّابعة مقدمة الطبعة الثالثة السابقة لنذكر باختصار كليّ كلمة عن كتابنا (**الأدب القصصي عند العرب**) وقد صدر في أربع طبعات : الأولى سنة ١٩٥٠ فسنة ١٩٥٦ فسنة ١٩٦٠ ، وأخيراً في طبعته الجديدة هذه ١٩٦٩ .

والكتاب دراسة نقدية للقصص العربي الصميم في أقسامه الخمسة التي اصطلحنا على تسميتها : بالقصص الإخباري ، القصص البطولي ، القصص الديني ، القصص اللغوي ، والقصص الفلسفي .

أما القصص الدّخيل على الأدب العربي أو المنقول عن أصولٍ غير عربيةٍ فقد خصصناه بدراسةٍ قصيرة جاءت كمقدمة للبحث .

ولا شك في أنّ الرّواج الذي لقيه هذا الكتاب يعود إلى أنه قد سدّ فراغاً في دراسة القصة العربية القديمة مما حمل طلاب الأدب على الإقبال عليه ، كما حمل النقاد العرب ، من لبنانيين ومصريين ومغربيين ، على دراسته ونقده نقداً موضوعياً فيه الكثير من الثناء والتشجيع ، الأمر الذي حملنا وحمل دار الكتاب اللبناني على إصداره في طبعته الجديدة هذه خدمة للأدب وتعميماً للفائدة .

موسى سليمان

أول كانون الثاني ١٩٦٩

مدخل

« كان ما كان » صوتٌ عميق ، قديم من اصوات المعابدِ العتيقة ، يحملُ بين طياته الف لونٍ ولون من الوان الحياة النابضة ، الزاخرة بالالغاز والأسرار !!

« كان ما كان » صوتٌ رهيب حبيب الى النفوس المتعطشة لجمال الحياة ، بل هو صوت الأغوار العميقة والازمنة السحيقة ، بما فيها من آفاق فسيحة تعجّ بالخير والبركة ، والدين والمعرفة ، والعلم والفلسفة !!

هو صوتُ الآلهه ، يوم كانت الآلهة ، أبناء السماء ترشّ على الدنيا حكاياتها أساطير أساطير !! يوم « كانت الآلهة تفتش عن كتاب السحر العجيب في قاع بركةٍ في مدينة قَفْط (Captos) داخل صندوقٍ من الحديد ، وآخر من النحاس الاحمر ، ضمن آخر من شجر الجمّيز ، في صندوق من العاج والابنوس ، في صندوقٍ من الفضة ، ضمن آخر من الذهب » !! تحيط بهذه الصناديق العجيبة الغريبة « حيةٌ ملتفةّ لا بداية ولا نهاية لها ... وتسكن المياه حول الصندوق كثير من الثعابين والحيات ، والافاعي والعقارب وكثير من الزَواحف [1] »

هو صوتُ الانسان ، يوم كان الانسان إلهاً بثلثيه وانساناً بثلثه الثالث ، وكان يصارعُ الناس كثورٍ وحشي فتعشقه عشتروت إلهة الحب وتعرض عليه حبها قائلة :

« كنْ حبيبي يا جلكامكْ [2] ، كن زوجي ، او لأكن زوجتك ! أدْخلْ

(١) محمد صابر — ادب الفراعنة ص : ١٤٢

(٢) وتكتب بالشين بدل الكاف اي جلكامش .

مسكني بين جذوع الارز ، فحين تدخل مسكني ، الذين يجلسون على العروش يلثمون رجليك ! .. » فيرفض جلكامك طلبها بعزةٍ واباء ويعيّرها قائلاً :

« روحي فلأفضحنـّكِ أمام تموز ، حبيب صبوتك !!

« إنك أحببتِ العصفور الصغير في الجنينة ثم ضربتهِ وحطمتِ جناحيه !!

« أحببتِ الاسد ، وهو من قوّته في العنفوان ثم حفرتِ له سبعاً فسبعاً من الحفر !!

« أحببتِ الحصان المتعجرف في الوغى ، ثم خصصتِ به المهاز والسوط !!

« أحببتِ الراعي ، وكان كلّ يومٍ يذبح لك جداءهُ ، ثم ضربتِهِ وحولته الى هرٍّ وحشيٍّ ..

« وانا ستحبينني ... وكما تغيرت على هؤلاء تتغيرين علي [١] ... »

هو صوتُ الملوك ، يوم كان الملوك يملكون الف سنة ويفتحون الف مدينة، وينكحون الف عاتق ، ثم يصيرون الى الارض ، فراشهم التراب ووسادهم الحجر ، وجيرانهم الدود [٢]

يوم كان يأمر شمّر يرعشُ بن مالك ناشر النعم فيقول :

« إئتوني ببقايا سحرة سليمان بن داود بلقيس فيأمرهم ببناء قبة ابيه ، مالك ناشر النعم بالكلس الازرق ، فيجيدون الصنعة فيه بالدهن والصقل حتى يصير جبلاً منيعاً كالمرآة السجنجل ، ثم يطوف به فيرى نفسه وفرسه وجميع من معه من خارجه ، في جميع جهاته ، فيعجبه ؛ ويرى الطير اذا همّت ان تنزل عليه،

---

(١) عبدالله غانم — كتاب الاجيال ص : ١٦ و Leonard, W. E. Gilgamesh. Epic of old Babylonia. P: 26 - 27
كذلك: Pritchard. J. B- Ancient Near Eastern Texts p. 84.

(٢) الهمداني — كتاب الاكليل ج ٨ : ١٩٥ و ٢٠١

رأت تمثالها فيه فتهرب ولا تقرب فلا ينزلُ عليه طائر . ويأمر الجنّ ان تقعد حوله لا يدنو منه احد من الناس[1] »

« كان ما كان » صدًى حلو **لصوتٍ** حلو هو صوت عبلة ، يوم كانت تنادي عنترة ابن عمها قائلة :

« أنعشوا روحي وداووا كمدي   وخذوا نحو ابن عمي بيدي
قلّ صبري وتشفّى حاسدي   ولقيتُ الذلّ بعد ٱلأَسودِ
جسدي يُضعفه ريحُ ٱلصَّبا   كيف يقوى للعذابِ المجهدِ !
قرّبوني من حمى عنترةٍ   ليس يحمي ٱلظبيَ غيرُ الأسدِ
واخبروهُ أنني من بعده   لم أَزلْ في حيرةٍ لا أهتدي
وردُ خدّيَّ الذي تعهدُهُ   غيّرتهُ أدمعٌ كالبَرَدِ
وجفوني زال عنها حسنُها   وشكتْ طول البُكا والرَّمدِ
غربةٌ دائمةٌ عند ٱلعدى   وعذابٌ فاق طور الجَلَدِ
لو لقي بعضَ الذي لاقيتُه   جلمدٌ ، ذاب فؤاد الجلمدِ[2] »

هو صوتُ الجنّ يوم كان الجن يبنون المنازل ويشيدون الدور والقصور ، ويبرئون المرضى ويخاطبون الناس ويهتفون بهم باصواتٍ مفهومة تتكلم الحميريّة والعربية ، ويخدمون الملوك اذ « كانوا يأتونهم بفواكه بلاد الهند طريّة[3] » .

---

(١) الهمداني – كتاب الاكليل ج ٨ : ٢٥٢

(٢) سيرة عنترة ج ١ : ١٧٥ .

(٣) الهمداني – الاكليل ج ٨ : ٢٩ و ٧٩ و ٨٠ و ٨٩ .

هو صوتُ الجن يوم كانت نساء الجن تعشق الناس وتعرف من تعشق فتختار الواحدة منهن أبرهة الملك، وهو أجمل الناس وجهاً وتهجم عليه وتقول له: «أيّها الملك: اني عشقتك وليس لي منك بد وانا حنيفيّة على دين ابراهيم، وانا لا ارضى بالزناء ولا ادين به فاختر من اربع خلالٍ واحدة :

« ان شئتَ قتلتك ، وان شئت اعميتك ، وان شئت ابرصتك ، والا فتزوجني » . ولا شك في ان أبرهة كان ذكياً فاختار الخصلة الاخيرة وقال لها :

« اذا خيراً اختار ... انا اختار منك العافية يا عيوف [1] » .

واخيراً، **« كان ما كان »** هو صوت مرعب مخيف، هو صوت الكفار القتلة، خارجاً من نار جهنم، صوتُ آدمي أسود ، يخرج من الارض المنشقة وهو يشتعل ناراً من قرنه الى قدمه ، وفي عنقه سلسلة يجرها خلفه وهو يصيح :

« يا عبد الله اسقني !! يا عبد الله اسقني » ولكن سرعان ما يخرج في أثره رجل آخر يده في طرف السلسلة فيجره ويقول :

« يا عبد الله لا تسقه هذا عدوّ الله ابو جهل لعنه الله !!» ويأخذ بضربه حتى يدخله القبر وتنطبق الارض عليه [2] .

هل عرف العرب الملاحم؟

« كان ما كان » كان للعرب ماضٍ أدبي زاهر حافل بجلائل الاعمال فجاء العلماء من مستشرقين وغير مستشرقين ، يدرسونه ، كل على ضوئه الخاص وبطريقته الخاصّة ونظرياته النقدية الخاصه فمنهم من رفعه الى اعلى الدرجات ومنهم من انكر على العرب إلمامهم بفنونٍ ادبية كثيرة ، واخصّها ، القصة .

« كان العرب يعرفون ملوك اليونان حتى كليوباتره ، ويعرفون أباطرة

(١) الهمداني - الاكليل ج ٨ : ٢٣٨

(٢) الهمداني - الاكليل ج ٨ : ١٧٧

الرومان، أما امثال توسيديد من المؤرخين فلم يعرفوا عنهم شيئاً حتى ولا اسماءهم ولم يأخذوا عن هوميروس اكثر من عبارته المشهورة : (يجب ان يكون الحاكم فرداً) . ولم يكن لهم معرفة بالقصصيين الإغريق ولا بشعراء الاغاني ولم تؤثر الثقافة اليونانية في العرب الا من طريق الرياضيات والطبيعيات والفلسفة [1] » .

ويقول مستشرق آخر : « ان ثمار الترجمات العربية عن اليونانية كانت الفلسفة والرياضيات والعلوم الطبية [2] »

وتنتقل هذه الفكرة من المستشرقين الى البحّاثين العرب فيقول احدهم :

« إن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم وحكمتهم كما نقلوا عنهم الى العربية علوماً شتى كالطب والنجوم وغيرها، ولكنهم لم يأخذوا عنهم فن القصص وخاصة القصص التمثيلي . » ثم يضيف في مكانٍ آخر :

« اما القصة بمعنى اختراع الاشخاص وتمهيد المكان وابتكار الحوادث وخلق الوقائع ونفض الصفات على ممثليها على ان يتجه كل ذلك الى غايةٍ واحدة ويدرج الى غرض معين ، فذلك ما لم يعنَ به العرب ولم يتوجهوا اليه [3] »

ويقول اديب ثانٍ :

« ان العرب بفطرتهم لم يكونوا يميلون الى القَصَص المعقد الذي وجد كثير منه فيما أُثر عن اليونان القدماء والذي ذاع عند الانجليز والروس والفرنسيس والالمان [4] » .

ويقول اديب ثالث من الادباء المعاصرين المرموقين :

« ... كل تفكير العرب وكل فن العرب في لذة الحس والمادة ، لذة سريعة ،

---

(١) ده بور – تاريخ الفلسفة في الاسلام ص : ٢٦ ترجمة ابو ريده .

(٢) J. Hell - The Arab Civilization p: 87.

(٣) عبد العزيز البشري – المختار ج ١ : ٢٤

(٤) زكي مبارك – النثر الفني ج ١ : ٢٠٤

مفهومة ، مختطفة اختطافاً ، لان كل شيء عند العرب سرعة ونهب واختطاف . عند الاغريق الحركة اي الحياة وعند العرب السرعة أي اللذة . لم تفتح امة العالم باسرع مما فعلت العرب . ومرّ العرب بحضارات مختلفة فاختطفوا من اطايبها اختطافاً ، ركضاً على ظهور الجياد . كل شيء قد يحسونه الا عاطفة الاستقرار . وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض ولا ماضٍ ولا عمران! دولة انشأتها الظروف ولم تنشئها الأرض ، وحيث لا ارض فلا استقرار وحيث لا استقرار فلا تأمّل وحيث لا تأمل فلا ميتولوجيا ولا خيال واسع ولا تفكير عميق ولا احساس بالبناء . كل شيء عند العرب زخرف . الادب نثر وشعر لا يقوم على البناء فلا ملاحم ولا قَصَص ولا تمثيل [1] »

ويقول اديب رابع متحدثاً عن فن القصص :

« وله عند الفرنجة مكانة مرفوعة وقواعد موضوعة . اما عند العرب فلا خطر ولا عناية به ، لانصرافهم عما لا رجع للدين منه ولا غناء للملك فيه . فمروا لذلك ، على ما كتب اليونان والرومان دون ان يترجموه او يقلدوه [2]. »

ولقد سبق جرجي زيدان جميعَ المؤرخين العرب المحدثين الى اعتناق هذه الفكرة التي أشار اليها المستشرقون فقال :

« ان العرب مع كثرة ما نقلوه عن اليونان ، لم يتعرضوا لشيء من كتبهم التاريخية او الأدبية او الشعر مع انهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود . فقد نقلوا جملة صالحة من تواريخ الفرس وأخبار ملوكهم ، وترجموا الشاهنامه ، ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيروديتس ولا جغرافية استرابون ولا الياذة هوميروس ولا اوذيسته [3] » .

---

(١) توفيق الحكيم – تحت شمس الفكر ص : ٧٤ و ٧٥

(٢) احمد حسن الزيات – الأدب العربي ص : ٢٤٧

(٣) جرجي زيدان – تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ : ٣٥ ويعزو زيدان ذلك الى ان المترجين عن الهندية والفارسية كانوا فرساً وهنوداً يعرفون العربية فنقلوا اليها تاريخ أمتهم وقصصها اعتزازاً بها . اما المترجون عن الأغريق فلم يكونوا اغريقاً يهمهم ان يفخروا بأمتهم بل كانت جموعهم من السريان .

ويضيف في مكان آخر :

« والروايات فن له شأن عظيم في آداب اللغات الافرنجية يكاد يكون اهمها . واما في العربية فانه من اضعف فروع الادب » ثم يقول : « يظهر ان العرب قلما اهتموا لهذا الفن في صدر دولتهم ولا التفتوا الى ما كان منه عند اليونان لما نقلوا علومهم [1] »

وكان من المتوجب تقديم رأي النقادة ابن الاثير في خاتمة كتابه « المثل السائر » على جميع هذه الآراء . فقد أشار في سياق حديثه عن الفروق بين الكتابة والشعر الى ان الشاعر في لغة العرب اذا احتاج الى الاطالة فانه لا يجيدُ في جميع ابيات قصيدته بل في القليل منها ، اما الكاتب فيمكنه الاجادة في ذلك كله . قال :

« وعلى هذا فاني وجدتُ العجم يفضلون العرب في هذه النكتة المشار اليها . فان شاعرهم يذكرُ كتاباً مصنّفاً من اوله الى آخره شعراً وهو شرح قصص واحوال . ويكون ، مع ذلك ، في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم ، كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاه نامه . وهو ستون الف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس . وهو قرآن القوم . وقد اجمع فصحاؤهم على انه ليس في لغتهم افصح منه . وهذا لا يوجد في اللغة العربية ، على اتساعها وتشعب فنونها واغراضها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة اليها كقطرة من بحر [2] . »

ومثلُ هذه الآراء كثير غيرها ، وكلها تنطق بان العرب لم يعرفوا فن القصة ولم يحسبوه فناً ادبياً قائماً بذاته ولم يلتفتوا الى التراث القَصَصي اليوناني ليترجموا بعضه كما فعلوا في الفلسفة والعلوم اليونانية .

لو جئت تسأل هؤلاء النقاد عن الاسباب التي حدت بالعرب الى عدم التفاهم إلى الفن القصصي والى عدم اهتمامهم بترجمة الكتب الادبية اليونانية الى اللغة

---

(١) جرجي زيدان – تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ : ٢٩١

(٢) ابن الاثير – المثل السائر ص : ٥٠٢

العربية لاجابوك باجوبة كثيرة وادلوا اليك باسباب عديدة قد يكون بعضها وجيها نلخصها فيما يلي :

اولاً : **قلة الاساطير** : « ... فالعربي غير عميق في تخيله وهو الذي استوطن الصحراء الجدبة وعاش عيشة بدوية لا يعرف له مسكناً الا بيوتاً من الشعر ، ثروته ناقته او عنزته ، دائم الارتحال يسعى وراء المرعى ، قنوع بالقليل ، لا تكتنفه غير الرمال الشاسعة فلذلك نشأ قليل الاساطير ومن ثمّ قليل القصص لاتصال الاولى بالثانية [1] . »

ثانياً : **ليس فوق الادب العربي ادب** : هذا كان اعتقاد العربي في ادبه وربما لا يزال بعضنا يعتنق هذا الرأي الى اليوم . لقد اهتم العرب بترجمة الكتب العلمية والفلسفية من اللغتين اليونانية والفارسية ولم يترجموا الكتب الادبية وخاصة عن اليونانية لأنهم كانوا يعتقدون ان لهم في آدابهم غنىً عن آداب غيرهم من الشعوب .

ثالثاً : **العرب اهل بديهة وارتجال** : « ان مزاولة القصص تقتضي الرويّة والفكرة. والعرب اهل بديهة وارتجال، وتطلب الالمام بطبائع الناس وقد شغلوا بانفسهم عن النظر فيمن عداهم ، وتفتقر الى التحليل والتطويل وهم اشد الناس اختصاراً للقول واقلهم تعمقاً في البحث [2] . »

رابعاً : **ذكر الآلهة والاصنام** : ان كثرة الآلهة وذكر الاصنام في الالياذة منعهم من نقلها الى اللغة العربية خوفاً منها على عقائدهم الدينية [3] . وهنا يخطر ببال الباحثة جرجي زيدان اعتراض على هذا السبب فيقول :

---

(١) محمود تيمور – نشوء القصة وتطورها ص : ١٨

(٢) احمد حسن الزيات – تاريخ الآدب العربي ص : ٢٤٧

(٣) زيدان – تاريخ اداب اللغة ج ٢ : ٣٥ ومحمود تيمور ص : ٢٤ واحمد امين – ضحى الاسلام ١ : ٢٨١ اما المحاولة التي قام بها تاوفيل ابن توما الرّهاوي المتوفى ٧٨٥ م في نقل بعض الالياذة الى العربية فلم تحدث ادنى أثر في حيـــاة العرب الفكرية . راجع حتي في كتابه : تاريخ العرب ج ٢ : ٣٨٦

« ولكنّ في الشاهنامة ايضاً كثيراً من ذلك (اي من الآلهة والاصنام) فلم يمنعهم من نقلها . لكن الترجمة ضاعت [1] . »

والآن نتساءل : لماذا يترجم العرب الشاهنامة ولا يترجمون الالياذة ؟ وهل تذوّق العرب شاهنامة الفرس التي ترجموها ؟ بل هل اثرت هذه الشاهنامة في ادبهم والى اي حدّ ؟

لا شك في ان تأثر العرب بالفرس وبآدابهم كان اشد من تأثرهم باليونان وآدابهم . فالشاهنامة التي يقول عنها زيدان انها تُرجمت وضاعت قد وجدت منهـا نسخ عديدة ونشرت بعناية الاستاذ عبد الوهاب عزّام [2] وليس من المستبعد ان يترجم العرب شاهنامة الفرس وغيرها من كتبهم الادبية والتاريخية كجداي نامه او سير الملوك ، وكتاب التاج في سيرة انوشروان كا سنرى ، لا سيا وان العربي ، ذلك المحافظ على ادبه ومجتمعه وعاداته المقدسة قد جاءه الدين الجديد بنظم جديدة وتعاليم جديدة هيأت لهـذا الدين سبيل الانتشار فانتشر ومهدت له الفتوحات طريق السيطرة فسيطر على الدولة الفارسية سيطرة فعالة فذابت في جسم الدولة العربية حتى كادت تصبح الحياتان حياة واحدة ، ممـا سهل امـام العرب الامتزاج بالفرس امتزاجاً كلياً ، كانت ثماره تذوّق العرب حياة الفرس الاجتماعية واخذهم عنهم الشيء الكثير [3] !..

اما اليونان فلم يعرفهم العرب هذه المعرفة الحميمة ، ولم يحتكوا بهم هـذا الاحتكاك المولد ، فلم يفتحوا لهم صدورهم، خاصة وان القوم لم يصل اليهم قبس الدين الجديد فيقربهم من العرب . زد على ذلك ان الترجمات عن اليونانية كانت تترجم الى السريانية اولاً ومنها الى العربية[4] .

---

(١) زيدان ج ٢ : ٣٥

(٢) راجع مقدمة الشاهنامة ج ١ : ٩٦ نشر عبد الوهاب عزام تجد الترجمة وهي لقوام الدين الفتح بن علي بن محمد البنداري الاصفهاني . ترجمت في اوائل القرن السابع الهجري .

(٣) احمد امين – فجر الاسلام ص : ١٣٦ و ١٣٧ تجد تفصيلاً لهذا القول .

(٤) J. Hell - The Arab Civilization p : 87 .

ويجد احمد امين لضعف هذا التأثير اليوناني في الادب العربي ، فوق هذه الاسباب التي ذكرناها ، أسباباً أخرى أهمها :

« ان الفلسفة والعلوم **عالمية** والأدب **قومي** ، ذلك ان الفلسفة والعلم نتاج العقل والادب لغة العواطف ، وليس للعواطف منطق يضبطها [1] » . ويقوده هذا الزعم الى الاستنتاج « ان العرب تذوّقوا منطق ارسطو وطب جالينوس ولم يتذوّقوا الياذة هوميروس » . ولكن هذا الكلام لا يجيب عن سؤالنا وهو: لماذا تذوّق العرب أدب الفرس فترجموه؟» أيكون لهذا الامتزاج الفارسي العربي الذي أشرنا اليه أثره في ذلك ؟ قد يكون ...

ويلاحظ الباحث في الادب العربي طغيان الشعر طغياناً جارفاً مما حمل ادباءهم الاقدمين ونقاديهم على القول : « ليس احد من العرب ، الا وهو يقدر على قول الشعر طبعاً ركب فيهم ، قلّ او كثر [2]. » فلعل انصراف العرب الى قرض الشعر «والشعر لا يحتاج الى خبرة في الحياة بل ربما احتاج الى جهل بها [3]» ، اقول لعل انصرافهم الى الشعر صرفهم عن الاشتغال بغيره من ضروب الادب ، فوقفوا كل نبوغهم ووجهوا جل قواهم «الى قول الشعر وبلاغة المنطق» وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام [4] » على حد تعبير الجاحظ .

ان العرب عرفوا القصة

والغريب ان هناك قوماً من المستشرقين والبحاثين العرب لا يُقرّون هذه الآراء في تفاصيلها ولا يقولون بها كلها بل يقفون الى جانب التراث القصصي العربي ، مدافعين يصدون عنه تهجمات النقاد مندفعين الى القول : « كان اوروبا مدينة بديانتها لليهود ، فكذلك هي مدينة بقصَصها للعرب [5] »

---

(١) احمد امين – ضحى الاسلام ج ١ : ٢٨٠ و٢٨١ .
(٢) ابو الفرج الاصفهاني – الاغاني ٢٠ : ٥١
(٣) ديهامال – دفاع عن الادب ص : ٧٨ ترجمة محمد مندور
(٤) الجاحظ – رسائل الجاحظ ص : ٤١
(٥) مكائيل – تراث الاسلام ص : ١٧٤

وقد حاول المستشرق جب ، وقد شغل ادارة معهد الدراسات الشرقية بجامعة اكسفورد ، ان يؤكد على اثر الادب العربي في الآداب الغربية وخاصة ادب القصة في القرون الوسطى فوفق توفيقاً كبيراً الى ذلك ، في بحثه القيم في كتاب تراث الاسلام . وللبارون كارادوفو بحوث مطوّلة في الحكايات العربية الكثيرة وهو القائل :

« Dans le genre des Contes la littérature arabe n'est dépassée par aucune autre. »

اي « انه لم يسبق الادب العربي ايّ ادب آخر في نوع الاقاصيص[1] » وهذا صحيح الى حد بعيد وقد درسنا ذلك في بحثنا عن القصص الاخباري كما سيأتي. والقصص الاخباري يقع جميعه تحت نوع الاقاصيص .

وشجعت هذه الاقوال بعض ادبائنا المحدثين فقالوا: « ان امة تبدع حكايات الف ليلة وليلة ، هي امة القصة في دمها[2] » . ولكن هل ابدعت الامة العربية حكايات الف ليلة وليلة ؟ سؤال يحتاج جوابه الى درس مستقل قائم بذاته .

هذا عرض سريع لمختلف الاراء في نتاج العرب القصصي : الموضوع والمترجم. ولهذه الاراء من ناحيتيها ، السلبية والايجابية ، قيمة لا يستطيع الباحث المدقق ان يتجاهلها او يقلل من اهميتها . فالعرب عرفوا القصة وان حسبوها ، على هامش الادب ووضعوا الكتب القصصية الكثيرة ، ولو غير بالغة حد الكمال . والعرب اقبلوا على تراث الامم التي احتكوا بها وامتزجت حياتهم بحياتها فترجموا ادب الفرس وان كانوا لم يهضموه في مجموعه ، واعتمدوا في ترجماتهم القصصية على اقاصيص الهند دون ان يتشربوا روحها . فمن الاجحاف ان نرمي العرب ، في كل سانحة تسنح ، بالتقصير العلمي والتفكير السطحي دون ان نتعمق في دراسة اثارهم الفكرية ، ونتخصص في مختلف حقول هذه الاثار ، مسلحين

---

(١) Carra de Vaux - Penseurs de l'Islam, N: I p: 259.

(٢) منير بعلبكي – العروة الوثقى – عدد كانون الثاني ١٩٣٩

باسلحة العلم الحديث ، نتخصص تخصصاً علمياً نزيهاً يؤهلنا ان نصدر احكاماً نهائية تساعدنا على اصلاح حاضرنا وبالتالي مستقبلنا . لقد أخذ العرب عن غيرهم من الامم ما اخذوا ، وتأثروا بهذه الامم تأثراً يتفاوت في العمق والمقدار ، ثم اعطوا من نتاجهم امماً كثيرة اخرى ، واثروا فيها اثاراً عظيمة ، وخاصة في القرون الوسطى . وكان لهاتين الحركتين ، الاثر والتأثر ، فوائدهما وتفاعلهما في الجسم العربي والنفس العربية . واليوم ، ونحن نريد ان نعرف ما لنا وما علينا، يجب ان ننصبّ على هذا التراث في مختلف نواحيه وندرسه بعين مجردة عن الغرض وقلب خال من الهوى ، متعمقين ، مقارنين ، محاولين ان نستفيد من اخطاء الماضي لاصلاح الحاضر ، لا ان نعمل على نبش القبور وطرح العظام النخرة على جادة الطرق في وجوه الناس ! . . على هذا المنهاج أسير في دراستي القصَص العربي في الاعصر العباسية ، وهي مدة من الزمن طويلة، إن اختلفت في حكامها السياسيين واحزابها الكثيرة فهي لم تختلف اختلافاً بيّناً في آدابها ، وروحها ، ومزاياها الفكرية العامة .

انواع القصص العربي

ان التراث القصصي العربي يقسم الى قسمين رئيسيين :

١ – القَصَص الموضوع : او العربي الصميم . وهو من وضع العرب .

٢ – القَصَص الدخيل او المنقول وهو الذى اقتبسه العرب عن غيرهم اقتباساً .

والمنقول يقسم بدوره الى اقسام وهو ليس موضوع بحثنا في هذا الكتاب. لذلك فنحن نخصه ، في هذه المقدمة ، بدرس موجز لنطلع على الاسس التي يقوم عليها ولنتعرف، الى مصادره المختلفة .

اما المصادر التي استمِدّ منها هذا القَصَص الدخيل فأهمها : الفارسية والهندية .

واليك جدولاً باسماء الكتب القصصية التي نقلت عن الفارسية وآخر باسماء الكتب التي نقلت عن الهندية ، نثبتها كما وردت الينا في كتب الاصول دون أن نتأكد من وصولها كلّها إلينا .

القَصص الفارسي :

١ – كتاب كليلة ودمنة – وسيأتي الكلام عنه بشيء من التفصيل .
٢ – هزار إفسانه – ومعناه الف خرافة وهو اصل من اصول الف ليلة وليلة .
٣ – كتاب يوسْفاس .
٤ – كتاب خرافة ونزهة .
٥ – كتاب الدب والثعلب .
٦ – كتاب روزبه اليتيم .
٧ – كتاب نمرود .
٨ – كتاب مزَدك .

القصص الهندي :

١ – كتاب سندباد الكبير والصغير .
٢ – كتاب بوداسِف .
٣ – كتاب كليلة ودمنة – وسنرى ان اصله هندي ثم ترجم الى الفهلوية ومنها الى العربية .
٤ – كتاب الهند في قصة هبوط آدم .
٥ – كتاب ملك الهند القتال والسبّاح .
٦ – الف ليلة وليلة – وبعض حكاياتها هندية الاصل كما سنرى .

القصص اليوناني :

اما القصص اليوناني فلم يترجم منه شيء يستحق الذكر كما تقدم معنا .
هذه هي اهم الكتب القصصية المنقولة عن اللغات الاجنبية الى اللغة العربية ،

ولكن لم يصلنا منهـــا إلا القليل واشهر ما وصلنا : **الف ليلة وليلة وكتاب كليلة ودمنة** . وهما الاثران البــارزان في القصص الدخيل وخير مثال عنه . وسنخصّهما بدراسة موضوعيّةٍ في هذه المقدمة ، قبل البحث في القصص العربيّ الصّميم ، محاولين أن نتلمّس أثرهما في قصص العرب وفي غيره من القصص ، وفضل العرب في ترجمتهما واقتباسهما ونقلهما الى عالم الغرب، في القرون الوسطى، وقد أفاد منهما افادة كبرى في نهضته الادبيّة .

الف ليلة وليلة*

تسميتها : ان اول من ذكر اسم الف ليـــلة وليلة من المؤرخين العرب هو المسعودي في كتابه « مروج الذهب » وهو من مؤرخي القرن الرابع للهجرة + سنة ٣٤٦هـ قال :

« ... ويقـــال له (اي لكتاب الف ليلة وليلة) إفسانة وتفسيرها خرافة بالفارسية ، والناس يسمون هذا الكتاب الف ليلة وليلة وهو خبر الملك والوزير وابنته ، وجاريتها شهرزاد ودينار زاد[1] .

اما الذي بحث في اصل هزار افسانة وفنّد اصله فابن النديم صاحب كتاب الفهرست قال :

« ان ملكاً من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد . فتزوج بجارية من اولاد الملوك لها عقل ودراية ، يقال لها شهرزاد ، فلما حصلت معه ، ابتدأت تخرّفه وتصلُ الحديث عند انقضاء الليل بمـــا يحمل الملك على استبقائها ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى ان اتى عليها الف ليلة ، الى

---

* راجع عن الف ليلة وليلة : مقال اويستراب في دائرة المعارف الاسلامية ، ومقال مكدونلد في ملحق الدائرة ، وكتاب الف ليلة وليلة لسهير القلماوي، وكتاب قصصنا الشعبي لفؤاد حسنين علي ص : ١٥٢ وما بعدها ، وكتاب: فاروق سعد : من وحي ألف ليلة وليلة في مجلدين .

(١) المسعودي – مروج الذهب ج ٤ : ٩٠

أن رزقت منه ولداً اظهرته واوقفت الملك على حيلتها عليه فاستعقلها ومال اليها واستبقاها[1] » .

هذا هو المشهور عن تسميتها عند العرب . اما بعض المستشرقين فيزيدون على هذا بعض الآراء المضحكة في سبب تسميتها باسم الف ليلة وليلة فيقول احدهم مثلاً . « ان الف ليلة وليلة سميت بهذا الاسم لان العادة حرمت على المسلمين ان يقصوا حكاياتهم الخرافية في النهار . وقد سرى اعتقاد بين اوساط الشعب ، وخاصة بين اولاد القُصّاص ان من يخالف هذه القاعدة يُصاب بشر كبير[2] .

وراج اعتقاد آخر عند بعض الكتاب فحواه ان العرب في القرنين الرابع والخامس عشر كانت لهم آراء خرافية كثيرة في كتاب الف ليلة وليلة منها ان كل من يقرأه يموت او يصاب بضرر شخصي كبير .

اصول الف ليلة وليلة : اختلف العلماء المستشرقون في اصول الف ليلة وليلة اختلافاً كبيراً . وليس في استطاعة الباحث ان يصل الى نتيجة حاسمة في هذا الموضوع يطمئن اليها فكر الاديب ويرتاح اليها ظن العالم . انما باستطاعتي ان اقرر مطمئناً ان كاتب الف ليلة وليلة هو اكثر من شخص واحد بل ان كتابها كثيرون يختلفون في بلدانهم وتفكيرهم وجنسياتهم . فالذين فرضوا ان الف ليلة وليلة هي عربية الاصل او من ابداع العرب فقط ، قد اخطأوا ولو ان اللون العربي فيها هو من ابرز الوانها . ان حكاياتها التي تحمل الطابع العربي ليست عربية في اساسها رغم انها معروضة باسلوب عربي .

لقد استطاع الذين تخصصوا في دراسة هذا الاثر الفني الادبي ان يُرجعوا كل حكاية الى اصلها . « فاطار الف ليلة وليلة يرجع الى الهند لا الى فارس[3] » كما

---

(١) ابن النديم – الفهرست ص : ٣٠٤

(٢) Chauvin V. - Bibliographie des Ouvrages Arabes T. IV P 10.

(٣) منير بعلبكي – اصول الف ليلة وليلة – رسالة مخطوطة في مكتبة الجامعة الاميركية .

ان بعض حكاياتها من اصل يوناني ومن هذه الحكايات حكاية السندباد البحري المشهورة التي يعتقد ده فو في امكانية تأثرها بالادب اليوناني ، فيقول عنها :

« De tels sentiments honorent le monde islamique qui ne passe cependant pas, pour avoir eu dans l'ensemble, un goût bien vif de la vie maritime. »

« ان مثل هذا الشعور يشرّف العالم الاسلامي ، الذي أُثر عنه ، على العموم ، ان ليس له تذوّق صحيح للحياة البحرية[١] . »

ويؤكد هؤلاء العلماء ان بعض حكايات الف ليلة وليلة كتب في بغداد وان البعض الآخر كتب في القاهرة . فحكاية علي بابا والاربعين سارقاً مقتبسة عن حكاية مصرية قديمة قد تكون هي بدورها مقتبسة عن حكاية اخرى يونانية . وقد حلل بعض المستشرقين كثيراً من هذه الحكايات فوجدوها في روحها ومزايا بعض شخصياتها البــارزة تتوافق وتتجانس مع اخلاق الشخصيات القصصية اليونانية ، وعبقرية اليونان الادبية[٢] .

ويذهب فريق آخر الى القول ان بعض الحكايات من اصل يهودي[٣] .

نستنتج من كل ذلك ان الف ليلة وليلة هي مزيج من آداب مختلفة وثقافات مختلفة هضمها العرب هضماً كلياً وصبغوها بلون عربي بارز . فهي وان كانت في بعض حكاياتها فارسية الاصل ، او هندية الاصل ، او يونانية الاصل فاصلها العربي يبقى مسيطراً سيطرة بارزة وهو ركن قوي من اركانها الاساسية . كذلك قلْ في الجو العربي الذي تجري فيه اكثر حوادثها فان هذا الجو يكسبها لوناً عربياً يجعلها مفخرة من مفاخر الادب القصصي العالمي .

واخيراً هناك من يدّعي ان لبعض حكاياتها اصلاً تاريخياً حقيقياً[٤] . »

---

(١) Carra de Vaux - penseurs de L'Islam T. II p: 50

(٢) Carra de Vaux - penseurs de L'Islam T.I P: 366

(٣) احمد امين – ضحى الاسلام ١ : ٣٣٨ .

(٤) المقتطف مج ٢٩ : ٨٢٥ .

شهرتها وترجمتها

لقد حظيت حكايات الف ليلة وليلة بشهرة عالمية قلما توفرت لكتب عربية مثلها . ولست مغالياً اذا قلت انهـــا ترجمت الى جميع لغات العالم . فالايطالية واليونانية ، والفرنسية ، والرومانية ، والاسبانية ، والبورتغالية ، والالمانية ، والهولندية، والفلمنكية، والسويدية، والدانمار كية، والاسلندية، والانكليزية ، والروسية ، والبولونية ، والهنغارية ، جميع هذه اللغات عرفت الف ليلة وليلة في ترجمات عديدة مختلفة؛ فتمكن ادباء العالم من ان يغرفوا من هذا التراث الادبي القصصي الشيء الكثير . ليس باستطاعة الباحث مهما كان دقيقاً ، ان يُلم باسماء جميع الادباء العالميين الذين تأثروا بالف ليلة وليلة . وهاك بعضهم على سبيل المثال:

من الالمـان : فيلاند (Wieland) (١٧٣٣ - ١٨١٣)

بورجر (Burger) (١٧٤٧ – ١٧٩٤)

هافمان (Hoffmann) (١٧٧٦ – ١٨٢٢)

ميلر (Müller) (١٧٩٧ – ١٨٤٠)

خميسو (Chamisso) (١٧٨١ – ١٨٣٨)

بلاتن (Platen) (١٧٩٦ – ١٨٣٥)

من الانكليز : ستو (Stowe)

تنيسون (Tennyson) (١٨٠٩ – ١٨٩٢) وقـــد نظم قصيدة في الف ليلة وليلة .

ديكنز (Dickens) (١٨١٢ – ١٨٧٠) وهو ، كما يظهر لنا من كتابه دافيد كوبرفيلد ، قد قرأ الف ليلة وليلة في حداثته وتأثر بها .

وهناك ادباء كثيرون من فرنسيين وايطاليين ودانماركيين تأثروا بالف ليلة وليلة حتى قال جب في بحثه الذي اشرت اليه سابقاً : « ان قصة شوسر (+ سنة ١٤٠٠) المسماة حكاية الفارس الغلام (Squire Tale) ليست غير واحدة من قصص

الف ليلة وليلة[1] » وشوسر هو ابو الشعر الانكليزي ، وهو في الادب الانكليزي مثل دانتي في الادب الايطالي . ولم يقف اعجاب الاوربيين بالف ليلة وليلة عند هذا الحد بل قام رجـــال التربية فيهم يعملون على جمع الحكايات الطريفة في حوادثها ، الشيقة في مفاجآتها ، المليئة بالوان الشرق ؛ تلك الحكايات الخصبة الخيال التي توافقُ روح الاحداث ، فطبعوها على حـــدة ، طبعات جميلة ، ووضعوها بين ايدي احداثهم وطلاب مدارسهم فكان لهم كتاب عـــلاء الدين والقنديل المسحور ، وحكاية انيس الجليس ، وحكاية ابي القاسم احمد البغدادي. وحـــكاية السندباد البحري وعشرات الحكايات غيرها . وكلها مهذب لفظه ، متقن طبعه ، محلّـى باجمل الرسوم مما يشوق الصغير والكبير الى القراءة والمطالعة.

وكان اسرع الامم الى اقتباس هذه الحكايات وعرضهـــا للشبيبة ، الالمان والفرنسيون والانكليز .

وكان لالف ليلة وليلة اثر كبير في عالم الفن والتمثيل فاستغلّ موضوعاتها الشيقة شركات السينما في العالم المتمدن فاستطعنا ان نشاهد افلاماً سينمائية رائعة هي طرفة فريدة في عـــالم الفن نذكر منها « لص بغداد » الذي ، لا يستطيع العقل البشري ، مهما سما وحاول ان يبتعد عن الاساطير الخيالية والحكايات الخرافية ، الا ان يعجب بخياله الساحر وموضوعه الطريف[2] .

ولا بد من التساؤل : ما هو الدافع الذي حدا بالادباء الغربيين والمستشرقين الى ترجمة الف ليلة وليلة ؟ وما الذي حمل رجـــال العلم والفن على ان يستغلوا موضوعاتها ويستوحوها روائع من الفن خالدة؟ قد يطول البحث لو جئت افنـّدُ الجواب . ولكنني اكتفي بالقول : ان في الف ليلة وليلة عناصر عديدة دفعت الادباء العالمين للاهتمام بها وفي مقدمة هذه العناصر :

لونها الشرقي الجذّاب ، وخيالها الظريف الساحر !!

---

(١) جب - تراث الاسلام ص : ١٨١

(٢) في كتاب فاروق سعد تفصيل دقيق لهذا التأثير .

كتاب كليلة ودمنة

لن استطيع في هذه المقالة ان ابحث بحثاً مسهباً في اقوال المستشرقين حول اصل هذا الكتاب ولن استطيع ان اتعرّض لجميع مـا قالوه فيه . ذلك يحتاج الى كتاب قائم بذاته. ولكنني ساعرض لمحة سريعة لتاريخ الكتاب واثره الثقافي القصصي وشهرته العريضة التي خلدته على ممرّ الايام .

اصل الكتاب : يُرجعُ العلماء اصل كتاب كليلة ودمنة الى الهند . وهم لا يختلفون في هذا اختلافهم في الف ليلة وليلة .

وهناك رأي في ان ابن المقفع ليس هو مترجم كليلة ودمنة عن الفارسية بل هو الذي وضعه . ولكن هذا الرأي ضعّفة علمـاء كثيرون ولم يأخذ به حق المؤرخون الاقدمون . ولقد دوّن ابن خلّكان (+ سنة ٦٨١هـ) هذا القول على سبيل الرواية اما البيرونيّ وهو من علماء القرن الخامس الهجري توفي ١٠٤٨م فاكد اصل كليلة ودمنة الهندي وقال: «ان ابن المقفع زاد عليه باب برزويه[١]» . امـا الاصل الهندي القديم الذي نشير اليه والذي عنه نقلت الترجمة الفهلوية والترجمة السريانية ؛ فقد فُقد . ولكنّ طائفة من هذه الحكايات . جُمعتْ في كتابين : الواحد هو :

« بنجَ تنترا » اي خمسة ابواب . والثـاني هو : هيتو بادشا اي نصيحة الصدّيق . ويضيف بعضهم اصلاً ثالثاً يسمونه : مهابهاراتا [٢] .

نقلُ كليلة ودمنة الى اللغة العربية : المعروف ان ابن المقفع هو الذي نقله من اللغة الفهلوية لأسبابٍ قد يكون منها تحلّي ابن المقفع بمزايا الاديب الناضج الذي يُحسنُ لغتين جميلتين همـا الفارسية والعربية فينقل من الأولى الى الثانية أهم آثارها الادبية الفكرية وفي مقدمتها كتاب كليلة ودمنة .

---

(١) مقدمة كليلة ودمنة . طبع المعارف المصرية ص : ٣٦ .

(٢) O'Leary - Arabic Thought p: 108.

ويرى بعضُ الذين يقرأون بين السطور ان ابن المقفع أراد ان يعظ المنصور وبعض حكام عصره الذين لم يعملوا على إطلاق الحرية السياسية، بل كانوا يبطشون بقوة وبسرعة بكل من يسيئون به الظن ، فلم يجد احسن من هـذه الوسيلة ، ترجمة كتاب كليلة ودمنة الى العربية . فلعلّ هذه الاحاديث الحكمية ، وهذه المواعظ الرشيدة وهذه الحكايات الطريفة التي يسردُها بيدبا الفيلسوف على دبشليم الملك الظالم ، تفعل فعلها في نفس ابي جعفر وبطانته فيخفف بطشهم ويتروّوا في احكامهم ! مسكين ابن المقفع لقد ذهب ضحية ما كان يخشاه [1] !!

وقيل ان هناك من نقله الى اللغة العربية غير ابن المقفع، وسيأتي ذكر ذلك .

تسميته بكليلة ودمنة : لم يذكر المؤرخون ولا المستشرقون الذين بحثوا في كليلة ودمنة ، وعددهم غير قليل ، ان هناك كتاباً معروفاً بهذا الاسم (اسم كليلة ودمنة) ، كتاباً قائماً بذاته ، سواء في الفهلوية القديمة او السنسكريتية . وكل ما وجد من اصول هذا الكتاب الى الوقت الحاضر هو ما تقدّم ذكره . وقد سُمّي الكتاب كله « كليلة ودمنة » باسم ابني آوى اللذين هما محورُ القَصص في الباب الاول : باب الاسد والثور [2] .

شهرته وترجماته

اشتهر كليلة ودمنة اشتهاراً لا يقلّ عن اشتهار الف ليلة وليلة فترجم الى لغات عديدة اذكر منها ما يلي :

١ – الترجمة التبتّية – لم يعثر الا على قسم منها .

٢ – الترجمة الفهلوية – اي الفارسية القديمة وقد ترجمت على زمن كسرى انوشروان وذلك في القرن السادس الميلادي . وضاعت كما ذكرنا سابقاً .

٣ – الترجمة السريانية الاولى – وقد نقلت عن الفهلوية . ترجمها رجلٌ اسمه بود BUDH نحو ٥٧٠ م باسم قَلَيلَجْ ودِمنَجْ .

---

(١) احمد امين – ضحى الاسلام ١ : ٢١٨

(٢) بيدبا – كليلة ودمنة . مطبعة المعارف – مصر سنة ١٩٤١ ص : ٤٧

٤ – الترجمة العربية – وهي اهم الترجمات لانها حفظت الكتاب ونقل منها الى سائر اللغات الحية .

٥ – الترجمة العربية الثانية – من الفهلوية الى العربية لعبد الله بن هلال الاهوازي، نقلها ليحي بن خالد البرمكي في خلافة المهدي سنة ١٦٥ هـ.

٦ – الترجمات المنقولة من النسخة العربية – لم يبق غير الترجمة العربية بين ايدي الناس وهي ترجمة ابن المقفع وعنها اخذ العالم المتمدن الترجمات الكثيرة الآتي ذكرها :

١ – السريانية الثانية – نحو القرن العاشر الميلادي .

٢ – اليونانية – سنة ١٠٨٠ م

٣ – الفارسية – سنة ١١٢٠ م

٤ – العبرانية الاولى – ؟

٥ – العبرانية الثانية – القرن الثالث عشر .

٦ – اللاتينية – القرن الثالث عشر.

٧ – الاسبانية – ١٢٥١ م

٨ – الانكليزية – سنة ١٨١٩ م

٩ – الروسية – سنة ١٨٨٩ م

وتفرّع عن هذه الترجمات ترجماتٌ أخرى الى الفرنسية والايطالية والسلافونية والتركية والالمانية والانكليزية والدانمركية والهولندية وغيرها حتى بلغ عدد الترجمات جميعاً بضعاً وعشرين ترجمةً ترجع كلها الى العربية، اما مباشرة او بواسطة لغة اخرى [١] .

ومن اراد الاطلاع على هذه الترجمات بالتفصيل فليرجع اليها فهي مصدّرة بمقدمات قيمة ودراسات علمية لهذا الاثر الادبي الجليل .

---

(١) راجع الهلال مج ١٤ : ٤٠٧ تجد مقالاً مفصلاً في ذلك وعنه اقتبسنا هذه الملومات .

ومن جميل ما يُروى عن ترجمة كليلةودمنة الفهلوية من اللغة السنسكريتية الحكاية التالية التي ترويها الشاهنامة وهذا ملخصها :

« جاء برزويه الحكيم الى انوشروان وقال :

ايها الملك اني قرأت في كتابٍ هندي أنّ في جبال الهند عشباً اذا رُكّب منه دواءٌ فنُثر على ميتٍ ارتدّ حياً .. فجهزه انوشروانوسيّره الى الهند وبعث معه كتاباً الى الملك . فلما اخذ ملك الهند الهدايا وقرأ الكتاب جمع علماءه وسيرهم مع برزويه لطلب هذا العشب في الجبال، فجمعوا كلّ ضربٍ من العشب وجرّبوه ، فما احيا ميتاً . فندم برزويه على ما جشم نفسه من مشاقّ السفر والطلب ، وتحيّر ماذا يقول للملك انوشروان ، ثم سأل من كان معه من العلماء: أتعرفون في الهند أعلم منكم ؟ قالوا نعم شيخٌ يفضلنا علماً وسناً. فلما جاءه وقصّ عليه القصص قال :

اما الجبال فهي العلوم ، واما الموتى فهم الجهال ، واما العشب فكتابٌ في خزائن ملك الهند يسمى « كليلة ودمنة » يُحيي موتى الجهل . فاسرع برزويه الى ملك الهند يرجو ان يطلع على الكتاب . فاغتمّ الملك وقال: ما طلب احدٌ هذا الطلب من قبل ولكنا لا نضنّ على الملك انوشروان بشيء . وامر ان يُؤتى بالكتاب وان يطلع برزويه عليه امامه حتى لا يظن احدٌ انه نسخه [1] ... »

فاذا صح هذا الزعم ، ونحنُ لا نميلُ الى صحته ، بطل الرأي السائد في ترجمة الكتاب الى الفهلوية وفحواه ان الطبيب برزويه سمع بالكتاب ، وهو في بلاده، فأستأذن الملك انوشروان للذهاب في سبيل استنساخه . وقد اذن له الملك وزوّده بعشرين الف كيس في كل منها عشرة آلاف دينار ... ولقي برزويه صعوباتٍ جمة وعانى ضروباً من العذاب والنصب في سبيل الحصول على الكتاب ونسخه !! والمرّجح ان كل هذه الحكايات ان هي الا مبالغات خيالية لتعظيم الكتاب واكبار عمل الحكيم برزويه ..

---

(١) عبد الوهاب عزام – كتاب كليلة ودمنة – طبعة المعارف المصرية – المقدمة ص : ٣٧

ولكي يتضح لنا اثر هذا الكتاب يتحتم علينا ان نبحث في هذا الاثر من وجوه عديدة :

اولاً لقد أثر كليلة وذمنة في شعر كثيرين فنظموه شعراً وهذه هي بعض الترجمات الشعرية وأسماء أصحابها :

١ – ترجمه ابن سهل بن نوبخت – وهي أول ترجمة شعرية ترجمها الشاعر يحي بن خالد وزير المهدي والرشيد . ونال عليها ألف دينار . وقد ضاعت .

٢ – ترجمة أبّان بن الحميد اللاحقي صنّفهـا للبرامكة . (توفي أبان + سنة ٢٠٠ ه – ٨١٦ م) . أعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار ولم يعطه جعفر شيئاً وقال : ألا يكفيك أن احفظه فأكون راويتك؟». وقد أطنب الاقدمون في محاسن هذه الترجمة ولكنها فقدت أيضاً .

٣ – ترجمة علي بن داود – كاتب زبيدة بنت جعفر وقد فقدت أيضاً .

٤ – ترجمة بشر بن المعتمر – وقد نبغ بشر هذا في أيام الرشيد والمأمون .

٥ – ترجمة ابن الهبّارية وهي أول ترجمة شعرية وصلتنا سنة ٥٠٢ ه .

٦ – ترجمة ابن المماتي وهو من اقبـاط مصر اشتهر في القرن الثاني عشر الميلادي (+ سنة ٦٠٦ ه - ١٢١٠ م) ولا أثر لهـذه الترجمة في المكاتب العالمية اليوم .

٧ – ترجمة عبـد المؤمن بن الحسن – اشتهر في القرن السابع الهجري او الثالث عشر الميلادي . وتقع هذه الترجمة في تسعة آلاف بيت رجز أولها :

الحمدُ لله العزيز ٱلحـاكمِ ٱلقادر ٱلحي المريدِ العالمِ

٨ – ترجمة جلال الدين النقاش – وهو أحد شعراء القرن التاسع للهجرة .

هذه بعض ترجمات كليلة ودمنة الى اللغة العربية شعراً . وقد كان للكتاب أثر آخر في الكتّاب العرب فألّفوا على منواله كتباً كثيرة منها :

١ - كتاب الصادح والباغم - لابن الهبارّيّة وقد مر ذكره .

٢ - كتاب سلوان المطاع في عدوان الطبّاع - لابن عبدالله القرشي المعروف بابن ظفر (+ سنة ٥٩٨ هـ) وقد طبع في تونس وبيروت .

٣ - فاكهة الخلفاء ومناظرة الظرفاء - لابن عربشاه .

٤ - كتاب القائف لأبي العلاء المعرّي وقد ذكره الحاّجي خليفة في كتابه كشف الظنون [١] وقال : ان له ايضاً كتاب « منار القائف » يتضمن تفسيره في عشر كراريس .

ولم يقف تأثير كليلة ودمنة عند العرب في ناحيتي النظم والنثر بل تعدّى العرب الى غيرهم من الامم .

١ - فأبو جعفر الرّودكي (+ سنة ٣٢٩ هـ) وهو اول شاعر فارسي عظيم ، نظم « كليلة ودمنة » شعراً فارسياً . وكان شعراء عصره يشهدون له بتقدمه عليهم فيقولون فيه : « انه لا نظير له بين العرب والعجم [٢] » .

٢ - والشاعر الظريف لافونتين الفرنسي قد تأثر الى حد بعيد في طائفة كبيرة من حكاياته الشعرية بكتاب « كليلة ودمنة » . وقد أشار الى هذا التأثر الأدبي كثيرون من ادباء الغرب الذين درسوا لا فونتين دراسة نقدية ميقة [٣] .

ويثني الاستاذ جب على كليلة ودمنة ثناء طيباً مبيناً اثره في الأدب الغربي حتى في زمن الاحياء . فهناك آثار لاتينية كثيرة وتراجم انكليزية متعددة استمدت من هذا الكتاب ، فاستفاد منها كتّابهم وشعراؤهم وقصصيوهم وفي مقدمتهم : ماسنجر الانكليزي ولافونتين الفرنسي .

والحقيقة ان كتاب كليلة ودمنة بما يحتوي من حكايات قصيرة على السنة الحيوانات قد ادخل نوعاً جديداً على الأدب العربي لم يكن لهذا الادب عهد به اذ ذاك .

---

(١) الحاجي خليفة - كشف الظنون ج ٢ : ١٦٠ .

(٢) الدكاترة حسن وغيره - كتاب نواح من الثقافة الاسلامية ص : ١٥٧ .

(٣) V. Chauvin - T : I p : 138 وايضاً : جب - تراث الاسلام ص : ١٨٧ .

ولقد استطاع هذا السفر القيم، بما توافر فيه من مزايا أدبية كثيرة في مقدمتها هذه العظات الرشيدة، والحكم السديدة، وبما فيه من لغة عربية مشرقة البيان، استطاع ان يحتفظ بمقام مرموق بين الكتب العربية، وان يصل الينا، جوهرة ثمينة من سلسلة تراثنا القصصي الدخيل، اقول تراثنا القصصي، وانا عالم ان حكايات كليلة ودمنة لا تعتبر من صميم القصص. ولكن ذلك لا يمنعنا من اعتبارها كما هي: حكايات قصيرة ادبية، حكمية، لها لونها الخاص وجوّها الخاص. زد على ذلك ان في كليلة ودمنة «حكمة الهند وجهد الفرس ولغة العرب [1]».

نرى مما تقدم، وقد كان البحث سريعاً خاطفاً، رغم طوله، ان هذين الأثرين القَصصيّين: الف ليلة وليلة وكليلة ودمنة، وكلاهما من القصص الدخيل على العرب، قد لونهما العرب بالوانٍ عربية صارخة حتى بات من الصعوبة بمكان، ان لم نقل من المتعذر ان نفرق بين اللون العربي فيهما وغير العربي. وهذا يعني لنا شيئاً كبيراً، يعني ان العرب استطاعوا الى حدٍ، ان يمتزجوا بالامم المتمدنة، العريقة في مدنيتها، وان يقتبسوا عن هذه الامم بعض تراثها القصصي، رغم ما كان يسيطر على تفكيرهم: من أن أدبهم هو محصور في الشعر وفي الشعر وحده!.

هذا من ناحية: ونرى من ناحية أُخرى ان الغرب في القرون الوسطى، وفي مطلع نهضته الفكرية الادبية لم يستنكف عن الاحتكاك بالعرب احتكاكاً علمياً ثقافياً، فأقبل العلماء الغربيون يدرسون وينقبون حتى تمكنوا من الاطّلاع على معظم النتاج العربي الفكري فترجموه الى لغاتهم وهضموه واقتبسوا منه ما لاءم اذواقهم اقتباساً يصعب على غير العالم المدقق تمييزه عن الأصل المقتبس عنه.

هذا بعض ما جرى للقصص الدخيل على الأدب العربي، اما القصص العربي الأصيل فهو موضوع الكتاب في فصوله الخمسة. وقبل الدّخول في البحث أثبت جدولاً مفصلاً بالانواع القصصية العربيّة الصميمة والمؤلفات القصصية التي تمثل كلاً منها:

---

(١) بيدبا – كليلة ودمنة – المقدمة. طه حسين ص:

القصص الموضوع وأقسامه

جدول بالحكايات التي وضعها العرب فكانت نتاجاً عربياً صرفاً . وهي كثيرة ومتنوعة لذلك فلقد قسّمتها الى خمسة أقسام رئيسية تقسّم بدورها كما يلي :

١ – القَصص الاخباري .

٢ – القَصص البطولي .

٣ – القَصص الديني .

٤ – القَصص اللغوي او المقامات .

٥ – القَصص الفلسفي .

وإليك الآن الحكايات التي تدخل تحت كل قسم من هذه الأقسام :

١ – القصص الاخباري ويدخل فيه:
- ١ – الحكايات الغنائية .
- ٢ – الحكايات الحبية .
- ٣ – الحكايات الفخرية .
- ٤ – الحكايات الهجائية الخ. الخ.

وسيأتي الحديث عنه مفصلاً

٢ – القصص البطولي ويدخل فيه:
- ١ – قصة عنترة .
- ٢ – قصة بكر وتغلب .
- ٣ – قصة البرّاق – عمر بن شبة + سنة ٦٣٢ هـ
- ٤ – قصة كسرى انوشروان – بشر الاسدي .

٣ ــ القصص الديني ويدخل فيه	١ ــ كتاب قصص الانبياء للكسائي ــ القرن الخامس. ٢ ــ كتـــاب العرائس للثعلبي + سنة ٤٢٧ هـ ٣ ــ بعض الحكايات الدينية القصيرة المطبوعة على حدة .
٤ ــ القصص اللغوي ويدخل فيه	١ ــ مقامات الهمذاني + سنة ٣٫٢٨هـ ٢ ــ مقامات الحريري +سنة ٥١٦هـ
٥ ــ القصص الفلسفي ويدخل فيه	١ ــ التوابع والزوابع ــ ابن شهيد + سنة ٤٢٦ هـ ٢ ــ رسالة الغفران ــ المعري + سنة ٤٤٩ هـ ٣ ــ حي بن يقظان ــ ابن الطفيل + سنة ٥٨١ هـ ٤ ــ الصادح والباغم ــ ابن الهبّاريّة + سنة ٥٠٤ هـ .

الفصل الأول

القصص الإخباري

اولاً : تعريفه

ثانياً : انواعه

ثالثاً : الحكايات الغنائية كمثال عنه

تأثير الغناء في القصص العربي

الخلفاء والمغنون

إحتقار الغناء والمغنين

اسماء بعض المغنين والمغنيات

شهرة المغنين والمغنيات

آلات الطرب

انواع الغناء

التآليف الغنائية الموسيقية

قيمة الحكايات الغنائية

مادة هذه الحكايات

فوائدها

القصص الاخباري

قسّمنا القصص العربي الصميم في مقدمة هذا البحث الى خمسة اقسام رئيسية، في مقدمتها القصص الاخباري . فما هو هذا اللون من القصص ؟ وما هي انواعه المختلفة ؟ عنينا بالقصص الاخباري تلك الحكايات القصيرة والاسمار الكثيرة ،

والنوادر الظريفة ، والاخبار المشتتة هنا وهناك لا يجمعها كتاب واحد من كتب الاصول ، لانها لم تدوّن في مكان واحد معين ولم يكتبها كاتب واحد معروف لغرض من الاغراض الادبية، وانما هي روايات مختلطة الالوان، متشعبة الاهداف ، متعددة الاغراض ، جمالها في ظرفها وخفة روح راويتها ، وأدُبها في رشاقة أسلوبها ونصاعة لغتها .

انواع القصص الاخباري

وتقسم هذه الحكايات الى انواع تتعدد بتعدد الاغراض والاهداف التي ترمي اليها ، فهناك الحكايات الفكاهية التي لم تُروَ ولم تدون الا لنكتة مستملحة وفكاهة مستظرفة .

وهناك الحكايات الاجتماعية وهي تصور المجتمعات العربية الى حد كبير بما فيه من صور صحيحة ، وعبارات ساذجة ، تمثل نفسية القوم اصدق تمثيل .

وهناك الحكايات الاسطورية او الخرافية، وهي تدورُ على الاخبار الخرافية التي كان يتداولها العرب فيما بينهم، وقد وصلتهم عن اسلافهم شفاهاً فدونوها على علاتها فجاءت ببساطتها وسذاجتها ومعانيها الخارقة ، مثالاً عن اساطير العرب وآلهتهم ومعتقداتهم في العصور القديمة .

وهناك الحكايات الفخرية وموضوعها المشاحنات القبلية في العصر الجاهلي والاحزاب السياسية في العصر الاموي والاعصر العباسية ، كل تلك الاخبار التي رويت عن القحطانيين والعدنانيين ، عن ربيعة وتميم ، عن قيس وكناية ، دوّنها الادباء العباسيون والمؤرخون . فالاصفهاني، والطبري، وابن عبد ربه ، والمبرّد، وابن الأثير ، والسيوطي وياقوت ، وغيرهم جمعوا الشيء الكثير من مثل هذه الحكايات التي تفصح الى حد كبير ، عن نفسية العرب ، وميلهم الى التفاخر . وكثيراً ما كانت تقودهم هذ المشاحنات الكلامية ، والاختلافات السياسية الى النيل من خصومهم بطرق شتى وأساليب متنوعة : فالعباسيون يسبّون الامويين ويطعنون فيهم ، والشعوبيون يضعون الحكايات ويروون الروايات في اظهار

مثالب العرب لتحقيرهم واذلالهم . وكان المربد مركزاً للمهاجاة بين جرير والاخطل والفرزدق[1] مما شجّع على تداول الروايات في الطعن والشتائم فكثرت هذه الاخبار الهجائية وكانت نواة للحكايات الهجائية .

وهناك نوع آخر من الحكايات القصيرة او الاخبار المرويّة هو الحكايات التعليمية وان لم يكن هدفها الاساسي الوعظ والارشاد . فحكاية تنصُّر النعمان ابن المنذر وضعت لتعطي درساً لهذا الملك فيترك عبادة الاوثان الى عبادة الله الواحد[2] وحكاية المنصور وقد استفاق من نومه مرعوباً ، اكثر من مرة ، ليخبر خادمه الربيع ان آتياً اتاه يقول :

« كأني بهذا القصرِ قد بادَ أهلُهُ   وعُرّيَ منه أهلهُ ومنازلُهْ
وصار رئيسُ القومِ من بعد بهجةٍ   الى جدَثٍ تُبنى عليه جنادلُهْ.»

لم توضَعْ في ، عرفي ، الا لاستخراج العبرة منها . وقد حملوا الخليفة نفسَهُ على استخراج تلك العظة فكتبها بفحمة على الحائط وهي :

« المرء يهوى ان يعيشَ   وطولُ عيشٍ قد يضرُّهْ
تفَنى بشاشتُهُ ويبقى   بعدَ حلوِ العيشِ مُرُّهْ
وتخونُه الايامُ حتى   ما يرى شيئاً يَسُرُّهْ
كم شامتٍ بي إن هلكتُ   وقائلٍ : لله دَرُّهْ !! »[3]

وترى الشيء الكثير من مثل هذه الحكايات وقد وضعت لردع الجائر عن جوره وزجر المنافق عن نفاقه ، واسداء النصيحة لمن زاغ بصره عن الحق

(١) الاصفهاني – الاغاني ج ٧ : ٤٩ .

(٢) الاصفهاني – الاغاني ج ٢ : ص ١٧ و ١٨ .

(٣) جاد المولى – قصص العرب ج ١ : ١٠٤ و ١٠٥ .

والصواب لعله يهتدي بعد ضلال . ومما لا شك فيه ان الوعظ والارشاد والتعليم الديني والخلقي هي من أهم البواعث على تدوين مثل هذه الاخبار .

على ان اهم ما يلفت النظر من هذه الالوان القصصية المذكورة لونان آخران تطفح بهما كتب الاصول وهما : الحكايات الغنائية والحكايات الحبية ، وفيهما تظهر مزايا القصص الاخباري ظهوراً بارزاً اكثر من اي نوع آخر وذلك لسببين على ما نعتقد :

اولاً : كثرة هذا النوع من الحكايات وطغيانه طغياناً كبيراً علـــى بقية الانواع التي مرّ ذكرها .

ثانياً : ميلُ الرواة ميلاً ظاهراً الى الاكثار من هذه الحكايات حملهم عـلى الاعتناء بهـــا اعتناء كبيراً فجاءت ، جامعةً لمزايا القصصِ الاخباري جمعاً صحيحاً. لذلك فقد اخترنا من هذين النوعين الحكايات الغنائية لدراستها وتحليلها وتقدير قيمتها القصصية الادبية فنكون بذلك قد قدّرنا القصص الإخباري كله.

الحكايات الغنائية

في العربي ميلٌ فطري الى الغناء والاستماع الى الصوت الجميل. وقد قيل : ان الشاعر الجاهلي اهتدى الي الشعر بواسطة الُحداء وراء الابل . والذي يهمنا هنا ان نثبت اثر هذا الغناء في العرب وانتشاره انتشاراً كبيراً مماحمل الخلفاء والعظماء على تشجيع المغنين وتقريبهم من بلاطاتهم وغمرهم بالعطايا الكثيرة . كما يهمنـــا ايضاً دراسة هؤلاء المغنين وسبب شهرتهم وتحليل صفاتهم مع كلمة عن فنهم الغنائي وآلات الطرب التي كانوا يستعملونها لتساعدهم في تـــأدية أصواتهم . كذلك سنحاول ان نلم بالضرّاب الذين كانوا يضربون على بعض هذه الآلات فيخرجون منها الاصوات الجميلة والموسيقى العذبة بالحانهـــا الكثيرة ، ومدارسها المتعددة وتعابيرها العلمية ! ندرس كل ذلك كما جاء في سياق هـــذه الحكايات الغنائية المختلفة وكما تعكسه لنا، هذه الحكايات الغنائية التي تطفح بها كتب الادب العربي القديمة !

تأثير الغناء في العربي

من يطالع هذه الحكايات الكثيرة عن تأثير الغناء في نفوس العرب، عظمائهم وصعاليكهم، يقف مشدوهاً، محتاراً !! هل يصدق جميع ما يقال ؟ ام يقف من ذلك او من بعضه على الاقل، موقف الشاك المتردّد ؟

كان معاوية يعيبُ على عبد الله بن جعفر سماع الغناء ويستغفر الله عندما يسمع غناء حتى سمع ابن صياد يحرك اوتاره ويغني بشعر ابن عدي فقال : « لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الالحان [1] ! »

اما عطاء بن ابي رباح [2] فكان يتعصب ضد الغناء والمغنين . « لقي مرة ابن سُريج المغني وعليه ثياب مصبّغة، وفي يده جرادة مشدودة الرجل بخيط يطيرها ويجذبها به كلما تخلفت، فقال له عطاء : يا فتان، ألا تكف عما انت عليه ؟ كفى الله الناس مؤونتك. فقال ابن سريج : وما على الناس من تلويني ثيابي ولعبي بجرادتي ؟ فقال له : تفتنهم باغانيك الخبيثة . » حتى اذا استطاع ابن سريج ان يُقنع ابن ابي رباح بالسماح له اندفع يغني بشعر جرير فطرب ابن ابي رباح « واضطرب اضطراباً شديداً ودخلته اريحية وحلف الا يكلم احداً بقية يومه الا بهذا الشعر [3] » اي الشعر الذي غناه به ابن سريج .

وكثيراً ما كان يغمى على بعض ذوي العاطفة الرقيقة عندما يسمعون صوتاً جميلاً، او كانوا يكادون يموتون فرحاً وسروراً لحسن الغناء من مثل ما روي عن سُبيعة ابنة عبد الرحمن بن ابي بكرة وكانت من اجمل النساء . قيل انها حجّت، فلما انحدرت الى العراق استطاعت ان تستمع الى غناء جميلة بشعر عمر ابن ابي ربيعة، وكان هذا الشعر تغزلاً فيها فأغمي عليها عدة مرات حتى رُش على وجهها الماء وثاب اليها عقلها [4] .

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٣ : ٢٣٦ و ٢٣٧ .

(٢) عطاء ابن ابي رباح تابعي من الفقهاء، يمني، نشأ في مكة وهو مفتيها توفي سنة ١١٥ هـ.

(٣) الاصفهاني – الاغاني ج ١ : ١٠٠

(٤) الاصفهاني – الاغاني ج ١ : ١٠١

وهذه الحكايات التي تروى عن تأثير الغناء تطلعنا على ما كان لهؤلاء المغنين من سلطان على قلوب سامعيهم يتصرفون بهذه القلوب وفقاً لمشيئتهم وطبقاً لارادتهم .

فابن سُريج يحبس الناس عن مناسكهم عندما ينقر على الدُف متغنياً بشعر عمر ابن أبي ربيعة ، وكأن القوم عندما كانوا يستمعون الى صوته قد نزل عليهم السبات ، وادركهم الغشي، فكانوا كالاموات، يصغون اليه بآذانهم ويشخصون اليه اعينهم متطاولة اعناقهم [1] . وابن عائشة (+ سنة ١٠٠ هـ) يسيرُ في الناس ، وقد سال العقيق فجاء بالعجب ، فلم يبقَ بالمدينة مخبأة ولا شابة ولا شاب ولا كهل الا خرج يبصره . » حتى اذا طلب منه ان يغني قال : أمثلي يقال هذا ؟ علي عتق رقبة ان غنيت يومي هذا ! ولكنه كان يحمل على الغناء حملاً فيغني مائة صوت فيكبرُ الناس بلسان واحد تكبيرة واحدة ترتج لها اقطار المدينة [2] . »

والحكايات كثيرة عن عظماء العرب وخلفائهم وعلمائهم وعن تأثير الغناء فيهم تأثيراً عميقاً كثيراً ما حملهم على الخروج عن عاداتهم المألوفة واعمالهم الطبيعية .

فاذا ما غنت احدى الجواري سيدها ، وكان قاضياً ، غشيه من الطرب امر عظيم، ولم يدر ما يصنع ، واخذ نعله فعلقها في اذنه، وجثا على ركبتيه، وجعل يأخذ بطرف اذنه ، والنعل معلّقة فيها ويقول : اهدوني الى البيت الحرام ، فاني بَدَنة !! حتى يدمي اذنه[3] ! ويبلغ ذلك الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز فيلومه ويقول : قاتله الله ! لقد استرقه الطرب ، ويأمر بصرفه عن عمله. فيستاء القاضي من عمل الخليفة فيتحداه قائلاً: لو سمعها عمر لقال: اركبوني فاني مطية ! حتى اذا عرف عمر بهذا القول امر فاحضر القاضي والجارية وغنت بين يديه :

---

(١) الاصفهاني – الاغاني ج ١ : ١٠٩

(٢) ابن عبد ربه – العقد الفريد ٣ : ٢٤٥

(٣) الاصفهاني – الاغاني ج ٨ : ١٣

كأن لم يكن بين الُحجونِ الى الصَّفا   انيسٌ ، ولم يسمَرْ بمكَّةَ سامرُ
بلى ! نحن كنَّا اهلَها فأبادَنا   صُروفُ الليالي،والجدودُ العواثرُ

فما فرغت من هذا الشعر حتى طرب عمر طرباً بيّناً واقبل يستعيدها ثلاثاً، وقد بلـَّت دموعـُه لحيته ، ثم اقبل على القاضي فقال :

« إرجع الى عملك راشداً [١] . »

اما يزيد بن عبد الملك، وكان صاحب لهوٍ ولذات، فكانت تدمع عيناه عند سماعه غناء الغريض [٢] .

كذلك حسان بن ثابت الانصاري . فانه كان يطرب عند سماعه عزة الميلاء حتى تنضح عيناه على خديه [٣] .

وأروعُ من هذا وذاك ما حكي عن ابان ابن الخليفة عثمان بن عفان لما ولي المدينة على زمن معاوية قيل « إنه قعد في بهو له عظيم ، واصطف له الناس، فجاء ُطويس المغني ، وقد خضب يديه غمساً ، واشتمل على دُفٍ له ، وعليه ملاءة مصقولة . فسلم ثم قال : « بأبي وأمي يا أبان ، الحمد لله الذي ارانيك اميراً على المدينة . اني نذرت لله فيك نذراً ، ان رأيتك أن أخضب يدي غمساً واشتمل على دُفي وآتي مجلس امارتك وأغنيك صوتاً . فقال يا طويس ! ليس هذا موضع ذاك . قال بابي انت وأمي يا ابن الطيب أبحني . قال : هات يا طويس فحسر عن ذراعيه والقى رداءه ومشى بين السماطين وغنى :

ما بالُ أهلكِ يا ربَابْ   خُزْراً كأنهم غِضابْ !!

فصفق أبانُ بيديه ثم قام عن مجلسه فاحتضنه وقبّله بين عينيه وقال : « يلومونني على طويس [٤] » !

---

(١) النويري – نهاية الارب ج ٤ : ٢١٢
(٢) الاصفهاني – الاغاني ٨ : ١٢ .
(٣) النويري – نهاية الارب ج ٤ : ٢١٢ .
(٤) ابن عبد ربه – العقد الفريد ج ٣ : ٢٤١.

اما الوليد بن يزيد فكثيراً ما كان يشتاق الى معبد ، ومعبد (فحل المغنين) فيحضر بين يديه ، فيأمر الخليفة ببركة تملأ ماء ورد ، قد خلط بالمسك والزعفران ويجلس هو وراء الستائر ومعبد مقابله على حافة البركة ، وليس معهما ثالث ، حتى اذا ما اطلق معبد العنان لصوته الجميل ، رفعت الجواري السجف وخرج الوليد فألقى نفسه في البركة فغاص فيها حتى خرج منها فاستقبله الجواري بثياب غير الثياب الاولى ، ثم شرب وسقى معبداً [1] .

كذلك كان الرشيد يجتمع الى امراء المغنين مثل ابن جامع وابراهيم الموصلي وابنه اسحق وفليح والهربذي فيغنونه اطيب الشعر باعذب الالحان حتى يكاد يرقص من النشوة ويستخفه الطرب حتى يضرب بيديه ورجليه [2] .

فاذا كان هذا هو فعل الغناء وتأثيره في الخلفاء والعظماء فلا عجب اذاً ان يهيم القس وكان أعبدَ أهل مكة في زمانه ، بحب سلّامة بعد ان يسمع غناءها ، حتى أصبحت تنسب اليه فسميت سلّامة القس[3] ولا غرابة في ان يفضل رجل من أهل القرى سماع ابن عائشة على مائتي دينار وعشرة أثوب ، رغم عُدمِه الشديد وفقره المدقع ، وشدة حاجته الى المال والطعام [4] .

ولا ان يبيع الشيخ الزبيري شملته التي يستتر بها من العري وتقيه حر القيظ وبرد الشتاء ، ليشتري بثمنها قِربة جديدة لجارية مرت به وكانت تحمل قربة ، فطلب منها ان تغنيه فغنته صوتاً فطرب وضرب بالقربة الى الارض فشقها [5] .

او ان يبكي شاعر كأبي العتاهية وينشج لسماع غناء مخارق ويلبس ثياب الصوف علامة التزهد والتقشف[6] .

---

(١) الاصفهاني – الاغاني ج ١ : ٢٧ .
(٢) الاصفهاني – الاغاني ٦ : ١٥٠ .
(٣) الاصفهاني – الاغاني ٨ : ٦
(٤) الاصفهاني – الاغاني ٣ : ٧٣
(٥) الحصري – زهر الآداب ١ : ١٥٦ .
(٦) الأصفهاني ٣ : ١٨٠ و ١٨١ .

او ان يؤثر الغناء في اخلاق عبد اسود فظ فيحمله على الملاينة والملاطفة[1].

او ان يحلف رجل بطلاق امرأته الا ان يسمع غناء مخارق [2].

والأغرب من كل مـــا ذكر ان عبداً أسود ، وكان ذا صوت طيب ، كان يحمّل الجمـــال احمالاً ثقالاً ويحدو بهـا فتقطع مسيرة ثلاث ليال في ليلة ، من طيب نغمته [3].

وحدثوا كثيراً في أثر الغناء مما حمل بعض الرواة على القول :

« كان بعض السامعين يقتات بالسماع ليقوى به عـلى زيادة طيه . كان يطوي اليوم واليومين والثلاثة ، فاذا تاقت نفسه الى القوت ، عدل بها الى السماع فأثار تواجدَه فاستغنى بذلك عن الطعام[4] » .

وليس غريباً ان يطرب شيخ بعد ان يسمع غناء احدى الجواري فيرمي بنفسه وبثيابه في الفرات حتى اذ مـــا استخرجوه من الماء ، بعد لأي ، سألوه : « يا شيخ ، مـ حملك على ما فعلت ؟ أجاب : دبّ من قدمي شيءٌ الى رأسي كدبيت النمل ، ونزل من رأسي مثله ، فلما اجتمعا عـلى قلبي عملت ما عملت [5] ... »

أقول لا غرابة في أن تبدو مثل هذه الأعمال الغريبة على بعض العامة من الناس ، عند سماعهم الغناء الجميل ، وهم انما يرون الطبقة الراقية من المجتمع تتأثر بهذا الغناء الى حد بعيد ، ويرون ان بعض الخلفاء واولادهم ، وان بعض المحدثين والفقهـاء والأشراف لا يستنكفون عن أن يغنوا هم انفسهم على مسمع من النـــاس . فمن الخلفاء الذين نسبت اليهم أصوات : عمر بن عبـد العزيز والواثق بن المعتصم ، والمنتصر والمعتز والمعتمد ابناء المتوكل ، والمعتضد وكان يصنع الحاناً يعارض بها ألحان الفحول من قدماء المغنين ومحدثيهم ... ويظهر لنا في هذا القصص الغنائي ان كثيرين من ابناء الخلفاء كان لهم باع طويل في الغناء .

---

(١) المسعودي – مروج الذهب ٢ : ٢٧٠ .
(٢) الاصفهاني – الاغاني ٢١ : ١٥١ التقدم .
(٣) النويري – نهاية الارب ٤ : ١٨٧ .
(٤) النويري - نهاية الارب ٤ : ٢١٧ .
(٥) النويري - نهاية الارب ج ٤ : ٢١٩ .

فابراهيم بن المهدي « كان أشد خلق الله أعظاماً للغناء ، واحرصهم عليه واشدهم منافسة فيه » . وكان يُقبل على الغناء عن هوىً ورغبة ملحة فلذلك كان يؤثر عنه قوله : « انما اصنع تطرباً لا تكسباً واغني لنفسي لا للناس فأعمل ما اشتهي » . حتى اذا عيب عليه افساد الغناء القديم قال : « انا ملك وابن ملك وانما اغني على ما اشتهي وكما التذّ » . وكانت لابراهيم أخت جميلة الصوت ، حلوة الانشاد فقيل فيهما : « لم يُر في جاهلية ولا اسلام أخ وأخت أحسن غناء من ابراهيم بن المهدي واخته علية [1] » . وعلية هذه تعرف كيف تصل بين القلوب المتجافية بسحر صوتها وجميل شعرها وعذوبة ألحانها ؛ اسمع الى هذه الحكاية :

« أهديت الى الرشيد جارية في غاية الجمال ، فخلا معها يوماً واخرج كل قينة في داره واصطبح ، وكان من حضر من جواريه الغناء والخدمة في الشراب زهاء الفي جارية في احسن زي من كل نوع من انواع الثياب والجوهر ، واتصل الخبر بأم جعفر فعظم عليها ذلك ، فأرسلت الى عُلية تشكو اليها ، فأرسلت اليها علية : لا يهولنك هذا ، والله لأردّنه اليك ، قد عزمت ان أضع شعراً وأصوغ فيه لحناً وأطرحه على جواريّ ، فلا تبقي عندك جارية الا بعثت بها الي ولبسيهنّ أنواع الثياب ليأخذن الصوت مع جواريّ ، ففعلت ام جعفر ما امرتها به . فلما جاء وقت صلاة العصر لم يشعر الرشيد الا وعلية وام جعفر قد خرجتا اليه من حجرتيهما ، معهما زهاء الفي جارية من جواريهما وسائر جواري القصر ، عليهنّ غرائب اللباس وكلهن في لحن واحدٍ هزَج صنعته علية وهو :

منفصلٌ عني وما قلبيَ عنهُ منفصِلْ
يا هاجري اليوم لمن نوَيتَ بعدي ان تصِلْ !!

---

(١) النويري ـ نهاية الارب ج ٤ : ٢٢٥ .

فطرب الرشيد وقام على رجليه حتى استقبل ام جعفر وعلية وهو على غاية السرور وقال : لم أرَ كاليوم قط يا مسرور ، لا تبقينّ في بيت المـــال درهماً الا نثرته ، فكان ما نثر يومئذٍ ستة آلاف درهم ، وما سمع بمثل ذلك اليوم [١] » .
وكان للرشيد أبن يلقب بأبي عيسى حسن الوجه والغناء وللمهدي ولد اسمه عبدالله له اصوات مذكورة ، قيل أنه علّم غلاماً أسود ، الضرب على العود حتى حذق فيه فاشترته منه أم جعفر بثلاثمائة الف درهم[٢] .

وكان للأمين ولد اسمه عبدالله ، غزِل ظريف يقول الشعر ويلحنه .

وكان لأبي عيسى بن المتوكل صنعة مقدارها اكثر من ثلاثمائة صوت .

ولابن المعتز علم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها .

ويطفح كتاب الأغاني بالحكايات عن اشراف العرب وفقهائهم ومحدثيهم الذين اولعوا بالغناء واوتوا فيه قوة وبراعة ... فابراهيم بن سعد ، وكان من العلماء الثقـــات المحدّثين ، كان يبيح السماع ويضرب بالعود ويغني عليه ، وحدثت له قصة حملته على أن يحلف يميناً ألا يحدث حديثاً حتى يغني قبله[٣] . ورويت هذه الأبيات عـــلى انها من غناء مالك بن انس وقد اجتمع الى زمرة ومعهم دفوف ومعازف وعيدان يغنون ويلعبون ومع مالك دُفٌ مربع وهو يغنيهم :

سُليمى ازمعت بينا وأين لقاؤها أينا !
وقد قالت لأترابٍ لهـــا زهر تلاقينا
تعالَينا فقدْ طابَ لنا العيشُ تعالينا[٤]

---

(١) النويري ـ نهاية الارب ٤ : ٢٣٣ و ٢٣٤ .

(٢) النويري ـ نهاية الارب ٤ : ٢٤٠ .

(٣) النويري ـ نهاية الارب ٤ : ٢٤٧

(٤) النويري ـ نهاية الارب ٤ : ٣٤٨ .

وكان ابو دُلَف العجلي شجاعاً عالي القدر عند الخلفاء يجيد الشعر والغناء كما انه كان جواداً ممدوحاً ، مدحه علي بن جَبَلة بقصيدة رائعة جاء فيها هذه الأبيات :

انما الدنيا ابو دُلَفٍ بين باديه ومُحتَضَرِهْ
فاذا ولّى ابو دلفٍ ولّت الدنيا على اثرهْ
كلُّ من في الأرض من عَرَبٍ بين باديه الى حَضَرهْ
مستعيرٌ منه مكرمة يكتسيها يومَ مفتخَرِهْ[1]!

وهناك كثيرون غير من ذكرنا نكتفي بالاشارة الى من مرّ معنا وفيه ما يكفي .

ولم يقف هذا القَصص الغنائي عند حد العلماء والفقهاء ورجال الدين بل أعطانا صورة صادقة أمينة عن حياة الخلفاء الاجتماعية المجونية وميلهم الى الفن والغناء والموسيقى .

الخلفاء والمغنون

وانه لمن الحق ان نعتبر الأعصر العباسية أفخم الاعصر الأدبية العربية . لهذا النشاط المعنوي الذي ظهرت بوادره في جميع مناحي الفكر . وليس هنا مجال البحث في الاسباب الكثيرة التي ساعدت على تنمية الفكر العباسي حتى نشط وازدهر ، ولكن ، لا بد من القول انه كان للخلفاء العباسيين او لاكثريتهم الساحقة ، على الاقل ، اليد الطولى في هذا النمو وذاك الازدهار . نكتفي الآن بلمحة سريعة خاطفة عن بعض هؤلاء الخلفاء وحياتهم الاجتماعية وقصورهم الخيالية التي كانوا يستقبلون فيها الادباء والشعراء والمغنين والمغنيات ، ندرس كل ذلك كما

---

(٣) النويري ـ نهاية الارب ج ٤ : ٢٥٠ .

ينعكس لنا في هذا القصص الغنائي ولنبدأ بمؤسس الدولة العباسية ابو العباس السفاح.

السفاح (٧٥٠م- ٧٥٤)

كان سفاكاً بطاشاً ورغم ذلك فانه شجع الغناء والموسيقى . دفعه الى هذا التشجيع تقربه من الفرس وميله اليهم ارضاء لهم، لان خلافة العباسيين قامت على اكتافهم . زد على ذلك ان السفاح كان يطرب ولكن من وراء الستارة على قول المسعودي : « وكان لا ينصرف عنه احد من ندمائه ولا من مطربيه الا بصلة من مال وكسوة ويقول : لا يكون سرورنا معجلاً ومكافأة من سرّنا واطربنا مؤجلاً[1] . »

المنصور (٧٥٤م - ٧٧٥)

ان الحكايات عن بغداد والمجتمع البغدادي في بذخه ومجونه ، في علومه وآدابه ، في تبذيره واسرافه ، في تعهره وتزهده ، ان هذه الحكايات الكثيرة تكاد تكون من عجائب الاساطير التي لا يستطيع العقل البشري ان يصدقها !!

اما باني بغداد فهو المنصور بناها سنة ١٤٥هـ او سنة ٧٦٢م لتكون عاصمة المملكة العباسية فاصبحت عاصمة الشرق بل محتضنة العلوم والفنون والآداب . ولمعت في ايام المنصور أسماء البرامكة فشجعوا رجال الفن والفكر تشجيعاً كبيراً . ورغم ما كان يشاع من ان المنصور ما كان ليتأثر بالموسيقى والغناء كغيره من الخلفاء ، لانه في زعم بعضهم ، عرف حَكَمَ الوادي وكان يستسرفُ ما يناله هذا المغني من صلات بني سليمان ابناء علي[2] ، اقول رغم كل ذلك ، فان اخصاءه ورجال بلاطه وابناء عمه شجعوا الموسيقيين وناصروهم حتى ان ابنه المهدي كان من اشد انصارهم ومشجعيهم .

---

(١) المسعودي – مروج الذهب ج ٦ : ١٢١ و١٢٢

(٢) الاصفهاني – الاغاني ٦ : ٦٧

المهدي (٧٧٥-٧٨٥م)

كان بلاطه يعج بالموسيقيين منهم : حكم الوادي وقد مر ذكره ، وسياط ، وابراهيم الموصلي . وكان المهدي ذا صوت جميل « لم يكن لاحد اجمل منه [١] » على حد تعبير ابن خلكان .

الهادي (٧٨٥-٧٨٦م)

هو ابن المهدي لم يطل زمن حكمه . كان المغنيان ابراهيم الموصلي وابن جامع من اصدقائه ومقربيه . اما ابنه عبد الله فكان مغنياً ماهراً وكان يضرب على العود [٢] . وقد مر معنا انـــه علم غلامه الاسود واسمه قلم ، الضرب على العود فاشترته ام جعفر باغلى الاثمان .

هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩م)

ان حكايات الف ليلة وليلة بما فيها من خيال ظريف ساحر ، وبما فيها من وصف خارق ، جذاب تعكس لنا ، الى حد بعيد ، شخصية هذا الخليفة العظيم . لقد اشتهر في الشرق والغرب واصبح قصراه : الرقة والانبار حديث العـــامة والخاصة ، وكانا محط انظار العلماء والادباء والشعراء والمغنين فكثرت عنهما الروايات والاسمار والاحاديث واصبحا محجة الكثيرين من مهرة المغنين امثال : حكم الوادي ، وابراهيم الموصلي ، وابن جامع ، ويحيى المكي ، وزلزل ، وفليح ابن ابي العوراء ، وعبد الله بن دحمان ، والزبير بن دحمان واسحق الموصلي ، ومخارق ، وعلوية ، ومحمد بن الحارث ، وابو صدقه ، وبرصوما ، ومحمد الزف وغيرهم .

---

(١) ابن خلكان - وفيات الاعيان ٣ : ٤٦٤ راجع ايضاً فارمر ص : ٩٣

(٢) الاصفهاني - الاغاني ج ٩ : ٩٩

الامين (٨٠٩-٨١٣م) .

يصوره المسعودي، وقد مرت به ساعة من اشد ساعاته خطراً، في ليلة قمراء، جالساً على شاطىء دجلة في قصره المعروف بالخلد ، في القبة التي كان اتخذ لها فرشاً مبطناً بانواع الحرير والديباج الاخضر المنسوج بالذهب الاحمر ، وغير ذلك من انواع الابريسم . قدامه قدح بلور مخروز فيه شراب ينفذ ، مقداره خمسة أرطال، وهو يدعو بعض ندمائه للاستئناس بهم وتغنيهم جاريته المفضلة ضعف[1] !.

ويبدو لنا هذا الخليفة، من خلال هذه الحكايات الغنائية التي نقرأها عنه، خليعاً يصرف ايامه مع المغنين والقيان. كان يقضي الليلة بكاملها في صحن مملوء بالشمع الكبير بين المئات من الوصائف وهن يغنين على الطبول والسرنابات :

هذي دنانيرُ تنساني فاذكرُها   وكيف تنسى محباً ليس ينساها
واللهِ واللهِ لو كانت اذا برزت   نفسُ المتيم ، في كفيه، القاها[2]

وهو يجول ، لا يسأم ،ولا يضجر حتى الصبح !

ورعى الامين عمه ابراهيم بن المهدي بعين عنايته ، وكان ابراهيم من امهر موسيقيي عصره . « كانت له اليد الطولى في الغناء والضرب بالملاهي ، وحسن المنادمة[3] بايعه اهل بغداد بالخلافة على زمن المأمون ابن اخيه (٨١٣ — ٨٣٣) لان المأمون ، لما كان بخراسان جعل ولي عهده علياً بن موسى الرضى ، وامر الناس بترك لباس السواد ، وهو شعار العباسيين ، واستبداله بلباس الخضرة . فعزّ ذلك على بني العباس فنقموا على المأمون وخلعوه بعد ان بايعوا ابراهيم بالخلافة وناصروه كما مر معنا . ولدعبل الشاعر ابيات هجائية في ابراهيم ، ترينا مقدار اهتمامه بالموسيقى والغناء والمجون قال دعبل :

---

(١) مروج الذهب - المسعودي ج ٦ : ٤٢٧ .
(٢) الاصفهاني - الاغاني ج ١٦ : ١٣٨ و ١٣٩ .
(٣) ابن خلكان - وفيات الاعيان ج ١ : ١٠

ان كان ابراهيمُ مضطلعاً بها [1]   فلتصلُحَنْ من بعده لمخارقِ
ولتصلحن من بعد ذاك لزلزلٍ   ولتصلحن من بعدِهِ للمارقِ
انّى يكونُ، وليس ذاك بكائنٍ   يرث الخلافة فاسقٌ عن فاسقِ [2]

ولدعبل ايضاً في ابراهيم مما يؤكد ميل هذا الخليفة للهو والمجون :

يا معشرَ الأجناد لا تقنطوا   وارضَوا بما كان ولا تسخَطُوا
فسوفَ تُعطَونَ حُنينيَّةً   يلتذُّها الأَمردُ والأَشمطُ
والمعبديات لقوادكم   لا تدخلُ الكيسَ ولا تُرْبَطُ
وهكذا يَرْزُقُ قوادَهُ   خليفةٌ، مُصحَفُه البَربَطُ [3]

وهذا الخليفة المتعبد للبربط كان شوكة في عين عمه المأمون عندما ثار عليه، حتى اذا ما ظفر به عفا عنه وقرّبه منه وصار يستمع الى الحانه بلذة وشغف. وقد أسس المأمون بيت الحكمة في بغداد، وبيت الحكمة احتضن العلوم اليونانية على انواعها، فقام بنو موسى وكثيرون غيرهم من علماء العرب، يعملون على دراسة هذه العلوم وترجمتها واقتباس ما يصح اقتباسه الى اللغة العربية، ومن ذلك الموسيقى، فازدهرت الفنون في ايامه وتقدمت شوطاً بعيداً .

المعتصم (٨٤٢-٨٤٧م)

لم يقصر عن بقية الخلفاء في تشجيع الفنون ورعايتها . ومن بين المغنين الذين عرفهم بلاط المعتصم: احمد بن يحيى المكي، زرزر الكبير ومحمد بن عامر الرومي.

---

(١) اي بالخلافة

(٢) ابن خلكان – وفيات الاعيان ج ١١:١ مخارق وزلزل وابن المارق من المغنين .

(٣) الاصفهاني - الاغاني ج ١٨ : ٣٠ - البربط : المزهر والعود معرب من الفارسية معناه صدر الاوز .

الواثق (٨٤٢ _ ٨٤٧)

ويصلُ الفن الموسيقي العربي مع الواثق الى ذروته ، فلم يدّخر هذا الخليفة الفنان وسعاً في تشجيع الآداب عامة والفنون خاصة ، ذلك لانه كان فناناً يحسن فن الالحان احساناً يحسده عليه الكثيرون من ممتهني الغناء في ذلك العصر. يذكر الاغاني للواثق الحاناً كثيرة تبلغ المائة صوت ويقول عنه « انه اعلم الخلفاء بالغناء ، واحذقُ من غنّى بضرب العود[1] »

من الحانه المعروفة ابيات لعلي ابن الجهم انشده اياها ابن ابي العيناء :

لو تنصّلتَ الينا لوهبنا لكَ ذنبكْ
ليتني املُكُ قلبي مثلَ ما تملُكُ قلبك !
ايها الواثق باللهِ م لقد ناصحتَ ربّكْ
سيدي ، ما أبغضَ العيشَ اذا فارقتُ قربَكْ!

فاستحسنها الواثق وكافأ كلاً من الناظم والراوي بالف دينار ووضع فيها لحناً ذاع بين المغنين وانتشر !

ولقد لمع نجم اسحق الموصلي زمن الواثق فكان على رأس زمرة كبيرة من المغنين والضرّاب امثال : مخارق ، علوية ، عمرو بن بانة ، عبدالله بن العباس الربيعي ، ابراهيم بن سهل ، حسن المسدود . ويقول المستشرق فارمر في كتابه عن الموسيقى العربية :

« بموت الواثق ينتهي الدور الاول من الاعصر العربية ، وهو عصر الاسلام الذهبي الذي ، يظهر التمدن الاوروبي الحديث ، مقارناً به ، مجرّد توحش[2] ».

ومهما يكن من امر فان الحياة العلمية الفنية التي يعكسها لنا هذا القصص

(١) الاصفهاني – الاغاني ٨ : ١٧٢

(٢) Farmer - A History of Arabian Music p: 97.

الغنائي حياة جديرة بالدرس والاعتبار .. ولقد قام الخلفاء بقسطهم في تشجيع هذه العلوم وهذه الفنون سواء كان في المشرق او في المغرب . فعبد الرحمن الاول (٧٥٦ – ٧٨٨) مدوّخ الاندلس لم يمنعه انغماسه العنيف في السياسة وامور الدولة من الاهتمام بالموسيقى ولقد سمع بالعجفاء ، وكانت عجوزاً كلفاء ، تحسن الغناء والضرب على العود فبعث من اشتراها له وجعلها مغنيته المفضلة[1].

الحكم الاول (٧٩٦ ـ ٨٢٢ م)

كان من الذين يقدرون لذاذات الحياة واطايب المجتمع . فلقد وصفه لين بول في كتابه «الاسلام في اسبانيا» بقوله : «لقد كان الحكم جذلاً انيساً يلتذ بالحياة كيفما جاءت دون اقل ميل نحو التزهد[2] . » فظهر في بلاطه كثيرون من الموسيقيين امثال العباس بن النسّائي والمنصور وكان مغنياً يهودياً ، وغيرهما كثيرون ...

وفي زمن عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ – ٨٥٢) لمع نجم زرياب فكان يقاسم السلطان اكله ويرافقه في حله وترحاله حتى اصبح رئيس الموسيقيين دون منازع. وسيأتي الكلام عن زرياب ومدرسته .

ومما لا شك فيه ان الاعصر العباسية ، في حقباتها المختلفة ، لم تكن مزدهرة ازدهاراً واحداً في العلوم والفنون والآداب . فبعد ان عرفت هذه العلوم والفنون عصراً دُعي بحقٍ العصر الذهبي (٧٥٠ – ٨٤٧) عادت فتأخرت لاسباب كثيرة لا مجال لذكرها هنا . ورغم هذه الاسباب التي تراكمت فعملت في جسم الدولة العباسية هدماً وخراباً فلقد ظهر خلفاء كثيرون شجعوا الفن الغنائي وعملوا جهدهم لحماية المغنين وتشجيعهم . فالمتوكل (٨٤٧ – ٨٦١) ناصب رجال الفكر العداء ، وخنق الحرية الفكرية ، وضيّق امام العلماء والفقهاء مجال

---

(١) الاصفهاني – الاغاني ٢٠ : ١٤٨ و ١٤٩

(٢) Lane Pole - Moors in Spain p: 74.

الاجتهاد والتفكير الحر بتقريبه احمد بن حنبل واعتماد فقهه دون سواه من الفقهاء الاربعة[1] . ورغم كل ذلك فقد كان يشجع المغنين لانه كان محباً للفنون. كذلك كان ابنه ابو عيسى . قيل عنه انه كان يقول : « اذا اتممت صنعة ثلاثمائة وستين صوتاً ، عدد ايام السنة ، تركت الصنعة [2] » .

ومن المغنين الذين ادركهم المتوكل ، اسحق الموصلي ، احمد بن يحيى المكي ، محمد بن الحارث ، عمرو بن بانة ، عبدالله بن عباس الربيعي ، اصوصة الأسود ، الحسن المسدود. واشتهرت من المغنيات عُريب وشارية وفريدة ومحبوبة جاريته المفضلة .

اما المنتصر (٨٦١ – ٨٦٢) فكان شاعراً وموسيقياً ، كثيراً ما كان يخلو بالندماء والمغنين واصحاب الأنس [3] .

ولا تذكر المصادر الادبية التاريخية عن تذوّق المستعين (٨٦٢ – ٨٦٦) للفنون شيئاً يذكر. ولكنّ لمحمد بن طاهر، احد ولاته، رأياً في الغناء والموسيقى يدل على حبه للغناء وميله الى الصوت الرخيم . قال مجيباً عن سؤال وُجّه اليه : اي السماع افضل ؟ فقال : « اوتار اربعة ، وجارية متربعة ، غناؤها عجيب ، وصوتها مصيب [4] » .

وكان المعتز (٨٦٦ – ٨٦٩) موسيقياً وشاعراً اشهر مغنيه بُنان بن عمرو الحارث ، سليمان بن القصّار ، وكان يحسن الضرب على الطنبور . ومن مغنياته شارية التي سبقت الاشارة اليها وقد الف عبد الله بن الخليفة المعتز كتاباً في اخبارها . وكان عبد الله هذا موسيقياً بارعاً « حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها [5] ... »

---

(١) Farmer - A History of Arabian Music p: 139.

(٢) الاصفهاني – الاغاني ٨ : ١٠٤

(٣) الاصفهاني الاغاني ٨ : ١٧٦

(٤) المسعودي مروج الذهب ٧ : ٣٤٨

(٥) الاصفهاني – الاغاني ٩ : ١٤١

ويذكر الاغاني ان لعبد الله كتباً مشهورة في صناعة الغناء ورسالة طويلة ارسلها الى عبيد الله بن طاهر في تغيير بعض الالحان فأجابه ابن طاهر :

« ولو ان الرسالة جبهت الابراهيمين : ابراهيم بن المهدي وابراهيم الموصلي، وابنه اسحق وهم مجتمعون لبُهت منهم الناظر وأُخرس الناطق [١] . »

ووصف المسعودي المعتمد (٨٧٠ – ٨٩٢) بقوله :

« كان المعتمد مشغوفاً بالطرب ، والغالب عليه المعاقرة ، ومحبة انواع اللهو والملاهي [٢] » . وكانت شارية من المغنيات المفضلة عنده . « كان قد وثق بهـا فلم يكن يأكل الا طعامها . » وقد كافأها يوماً ، على غناء جميل غنـّته اياه بالف ثوبٍ مما لم يفعل مثله احد من الخلفاء قبله [٣] .

وكانت صنعة المعتضد (٨٩٢ - ٩٠٢) في الغناء صنعة يعتدّ بهـا . قال ابو الفرج في الاغاني انه لم يجد لاحد من الخلفاء ، بعد الواثق ، صنعة يعتدُّ بهـا الا المعتضد ، فانه صنع صنعة متقنة ، عجيبة ، برّزت على صنعة سائر الخلفاء سوى الواثق [٤] . » وكان ابن طاهر يقرّظ صنعة المعتضد في الغناء ، وابن طاهر كما مرّ معنا ، خبير « بعلوم الاوائل من الفلاسفة في الموسيقى [٥] » . وهو صاحب كتاب (في النغم وعلل الاغاني المسمى كتاب الآداب الرفيعة) وهذا المؤلف « مشهور ، جليل الفائدة » على حد تعبير الاغاني [٦] .

احتقار الغناء والمغنين :

وليس لنا ، وقد عرضنا لتشجيع الخلفـــاء للمغنين ، وبعد ان رأينا النعم الكثيرة التي غمروا بها ، واقبال بعض الخلفاء على تعـــاطي الغناء ان نجزم بان

---

(١) نفس المصدر السابق .
(٢) المسعودي – مروج الذهب ٨ : ٨٨
(٣) الاصفهاني – الاغاني ١٤ : ١١٣
(٤) الاصفهاني – الاغاني ٨ : ١٩٦ و ١٩٧
(٥) الاصفهاني – الأغاني ٨ : ٤٤ و٤٥
(٦) الاصفهاني – الأغاني ٨ : ٤٥

المغنين كانوا من الشرف والاحترام في الذروة . فلقد كان هناك رجال الدين الذين يقفون بالمرصاد لكل من يحاول ان يشذّ عن الطريق القويم . وكان هناك القضاة الذين كانوا ، بحكم وظيفتهم ، حماة للشريعة وذادة عنها . فكيف يتسامحون مع هؤلاء النفر من الناس الذين يفسدون اخلاق الفتيان ويغرونهم على انفاق اموالهم وتبذيرها [1] ؟ كل هذا تجيب عنه هذه الحكايات الغنائيــة التي نحن بصددها ، بشيء من التفصيل والشرح :

فاذا ما اقبل ابو يوسف القاضي وهو من أهل المهابة والفقه، يحدّث ابن جامع المغني ، وهو لا يعرفه ، نظر الناس اليهما وقالوا متعجبين : « هـــذا القاضي أبو يوسف قد أقبل على المغني [2] حتى اذا أنذر القاضي بالمغني وجاء هذا الاخير يسلم ، ردّ عليه القاضي السلام ، بغير ذلك الوجه الذي كان يلقاه بـه وقال : إنا لله !!

ولعلنا لو تعمقنا في درس هذه الظاهرة من رجال الدين والعلماء نحو المغنين وازدرائهم لهم لوجدنا لذلك اسباباً يمكن حصرها فيما يلي :

اولاً : الاحاديث المختلفة عن النبي محمد في انه ما كان ليحب ان يسمع الى الغنـــاء .

ومن طريف ما يحكى من هذا القبيل ان ابن عمر ، وكان بصحبة نافع ، سمع مزماراً ، فوضع إصبعيه على اذنيه ونأى عن الطريق وقــال يا نافع : هل تسمع شيئاً ؟ قال نافع : لا ! فرفع عندئذ اصبعيه من اذنيه وقال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسمع مثل هذا ، فصنع مثل هذا [3].

ثانياً : ان الحسد كان عاملاً كبيراً في احتقار المغنين والازدراء بهم و الحط من مقامهم ومن صنعتهم لانهم كثيراً ما زاحموا العلماء والفقهاء الى قلب الخليفة فنالوا اعجابه وحازوا رضاه وخلوا به خلوات عديدة يحسدهم عليها الكثيرون

---

(١) الأصفهاني – الأغاني ٣ : ٨٨

(٢) الاصفهاني – الأغاني ٦ : ٦٩

(٣) النويري – نهاية الارب ٤ : ١٦٥

من رجال البلاط المقربين، فكيف بالعلماء ؟! لذلك رأينا الشعراء يهجون الخلفاء ويعيرونهم بميلهم الى الغناء وضربهم على الآلات الموسيقية [1].

وكان اهل العراق يعيرون الحجازيين لانهم اجـــازوا الغناء واشتهروا به وكانت المدينة معدن الغناء .

كذلك أثر عن الخلفاء الراشدين وبعض الأمويين ابتعادهم عن المغنين وكرههم الغناء اعتقاداً منهم انه يصرف الناس عن امور دينهم ويحمل اهل التقوى والتعقل على طلب اللهو والملذات .

ولكن هذا الازدراء وهذا الاحتقار للغناء وللمغنين لم يكن سوى موجة ، مـــا ازبدت حتى تلاشت ، لأن تيار الترف والعمران الاجتماعي الذي مرت به الأعصر العباسية كان قوياً صخّاباً لم تقف في وجهه مثل هـذه الحواجز الواهية والعوائق الضعيفة . فالحضارة التي وصل اليها العرب في ذلك العصر حملتهم على طلب الراحة والملذات والرخاء ، ومنها الغناء ، فاشتهر اكثر من خليفة في هذا الفن الجميـل وشجّع السلاطين والامراء في جملتهم ، اصحـاب الأصوات الجميلة وقربوهم منهم واجزلوا لهم العطايا فلمعت اسمـــاء الكثيرين من المغنين وأصاب الكثيرون منهم شهرة واسعة وثروة ضخمة وها انا ذاكر بعضهم، لأنهم كانوا نواة القصص الغنائي وحولهم انشئت الحكايات الغنائية الكثيرة ، التي ندرسها في هذا الفصل . ولنبدأ ببعض المغنين الذين نشأوا وعُرفوا في العصر الاموي وكان لهم اكبر التأثير في تشجيع الغناء ونموه في العصر العباسي ، لاسيما وان اكثرهم عاش في العصرين وبعضهم تمتع بخيرات الخلافة الاموية والعباسية وفي مقدمتهم :

طويس – وقد مر ذكره مع ابان بن عثمان بن عفّان وكيف احتضنه هـذا الاخير وقبّله بعد ان سمع غناءه الرقيق . وطويس هو أول من غنّى في الاسلام الغناء الرقيق . وقد علّم ابن سُريج والدلاّل ونؤمة الضُحى [2]

وجميلة المغنية – وقد اشتهرت زمن سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧ م)

---

(١) راجع ابيات دعبل في هجاء ابراهيم بن المهدي وقد مر ذكرها.

(٢) ابن عبد ربه – العقد الفريد ج ٣ : ٢٤١ .

وتفيدنا الحكايات الكثيرة التي تطفح بها كتب الأدب ان هـــذه المغنية كانت تعقد مجالس للغنـــاء والأدب تغصّ بعلية القوم وأشرافهم . وكانت قـد آلت ألا تغني احداً الا في منزلهـا فكان يقصدها حتى آلُ البيت احتراماً لقسمهـا هـــذا [١] .

ومعبد بن وهب – وكان فحل المغنين وامام أهل المدينة في الغناء . كان له متعصّبون يفضّلونه على المغنين جميعاً وكان كثير الادلال بنفسه معجباً بهـــا ، فخوراً بصوته وأنغامه .

وسائب الخاثر – وقد عاصر عبد الملك (٦٨٤ – ٧٠٥) وهو اول من عمل العود في المدينة وغنى به [٢] .

وابن سريج – وكان يُفضّل برقة صنعته وهو اول من ضرب بالعود على الغناء العربي بمكة .

والغريض – وقد أخذ الغناء عن ابن سُريج فبرع فيه وفاقه .

ابن مسجح – كان مولىً لبني مخزوم وهو استاذ ابن سُريج والغريض . ويخصه المستشرق فـــارمر ببحث مطول في احد كتبه الموسيقية ويعدد تآليفه الموسيقية المختلفة [٣] .

وابن محرز – وكان يلقب بصنّاجة العرب .

وعزة الميلاء ، وعمر بن داود ، ورائقة ، وسلّامــة ، وربيعة ، وعَلوية ، وزَلزَل ، وابراهيم الموصلي ، وكان أوحد زمانه في الغناء واختراع الالحــان . عرف بانه من اصحاب المدارس الغنائية [٤] .

---

(١) الاصفهاني الاغاني ج ٧ : ١٢٩ .

(٢) الاصفهاني – الاغاني ج ٧ : ١٨٨ .

(٣) Farmer - Historical facts p: 236 .

(٤) يحسب المؤرخون ابراهيم الموصلي من المغنين المخضرمين راجع Ribera ص : ٣٤ .

هؤلاء هم اشهر المغنين في العصر الاموي . وليس لنا ان نسهب ، اكثر مما فعلنا ، في سرد الحكايات عن مغنيّ العصر الاموي وتأثير غنائهم واشتهارهم ، لاسيا ، وان بحثنا قائم في الدرجة الاولى حول مغنيّ العصر العباسي . ولكننا نستنتج ، ولا بد من ذلك ، من هذه الحكايات الكثيرة وهذا القصص الغنائي الذي يدور حول هؤلاء المغنين ان العصر الاموي قد عرف الغناء معرفة صحيحة وظهرت فيه اسماء الكثيرين من المغنين الذين حملوا لواء هذا الفن زمناً طويلاً حتى اوصلوه الى زملائهم في العصر العباسي فترعرع ونما في ظل القصور والبلاطات ، قصور الامراء والوجهاء ، وبلاطات الملوك والخلفاء . واليك بعض الاسماء التي مهرت العصر العباسي بطابعها الخاص واكسبته لوناً ناصعاً وحولها دارت الحكايات الغنائية التي نحن بصددها :

اسحق الموصلي – وهو ابن ابراهيم وكان من اشهر ندماء الخلفاء . تفرّد بصناعة الغناء والموسيقى . وأخباره لا تقل أهمية وروعة عن أخبار أبيه . وكلاهما يملأ كتب الأدب العربي بالحكايات الغنائية الطريفة .

حكم الوادي – وكان يحسب من كبار المغنين العرب [1] وهو معروف بفن الهزج .

ابن جامع ، واستاذه سياط

عُريب ، شارية ، متيّم ، دنانير ، ابراهيم بن المهدي وقد مر الكلام عنه ، المسدود وكان مسدود فرد منخر ومفتوح الآخر . وكان يقول : لو كان منخري الآخر مفتوحاً لأذهلت بغنائي اهل الحلوم وذوي الألباب وشغلت من سمعه عن أمر دينه ودنياه ومعاشه ومعاده . اشتهر بصنعة عجيبة اكثرها الأهزاج واشتهر له هذان البيتان :

---

(١) الاصفهاني – الاغاني ج ٥ : ٩ .

عُجْ بنا نجنِ بطرف العين تفّاحَ الخدودْ
ونسلِّ القلبَ عمن حظنا منه الكُدودْ

وكان يقول : والله لا تركت بعدي من يهزج [١] لُقب بالطنبوري ونبغ في بلاط الواثق والمتوكل والمنتصر .

ابن بانة - وكان تلميذ اسحق الموصلي والامير ابراهيم بن المهدي . كان اول ظهوره في بلاط المأمون . أحسن الغناء والشعر ولكنه لم يكن موسيقياً ماهراً. كان يذهب مذهب ابراهيم بن المهدي في الغناء وتجنيسه، ويخالف اسحق ويتعصب عليه تعصباً شديداً ويواجهه بذلك فينصره ابراهيم عليه . وكان تيّاهاً معجباً شديد الذهاب بنفسه وهو معدود في ندماء الخلفاء ومغنيهم . كان يقول لاسحق: « ليس مثلي يقاس بمثلك لأنكَ تعلمت الغناء تكسباً وتعلمته تطرُّبـاً ، وكنت أضرب لئلا اتعلمه وكنت تضرب حتى تتعلمه [٢] » .

ابن عائشة - وكان تائهاً لا يغني الا لخليفة او لذي قدر . ما كان يريد ان يقال له : غنّ : « او لمثلي يقال هذا ؟ [٣] » .

فليح ابن ابي العوراء - وهو احد الثلاثة الذين اختاروا المئة الصوت للرشيد حسبه اسحق الموصلي من اربعة فحول المغنين هم : ابراهيم الموصلي، حكم الوادي، سياط ، وفُليح ابن أبي العوراء [٤] .

ابن المربذ - وفريدة جارية الواثق ومحبوبة من جواري المتوكل .

المكي - استاذ ابن جامع وابراهيم الموصلي ، وفُليح ابن ابي العوراء وهو من عائلة موسيقية .

---

(١) الاصفهاني - الاغاني ج ٢١ : ٢٥٦ .
(٢) الاصفهاني - الاغاني ج ١٤ : ٥٢ .
(٣) الاصفهاني - الاغاني ج ٢ : ١٣ .
(٤) الاصفهاني - الاغاني ج ٥ : ٩

يزيد حوراء – مغني المدينة ، ظهر في ايام المهدي ، عمل في مدرسة ابراهيم الموصلي وهو من طبقة ابراهيم وابن جامع . كان يتعصب للاول على الثاني [١] » .

أحمد ابن أبي العلاء – تلميذ اسحق الموصلي من أهل سُرّ من رأى . برع في الاخذ عن اسحق وله صفة « يسيرة جيدة » على قول الاغاني [٢] .

عبدالله بن عباس الربيعي – كان شاعراً مغنياً محسناً جيد الصنعة نادرها ، وشعره مطبوع ظريف من اشعار المترفين واولاد النعم . عرف في بلاطات الخلفاء من الرشيد الى المنتصر . كان معجباً باسحق وكان المتوكل يفضله على غيره من المغنين [٣] .

قريص – وكان من حُذاق المغنين [٤] .

احمد بن صدقة – عاصر المأمون الى زمن المتوكل . وكان ابوه وجده من الموسيقيين المعروفين في بلاط الرشيد .

بنان بن عمرو الحارث – من مغني المتوكل والمنتصر . عشيق الجارية فضل الشاعرة وكان نديم المنتصر ومغنيه المفضل .

وقبل ان ننهي البحث في المغنين وحكاياتهم ، نذكر كلمة عن زرياب واثر مدرسته في الموسيقى العربية .

زرياب – كان زرياب ثورة في عالم الفن والغناء ترعرع على يدي اسحق وتحت كنفه حتى اذا اشتد عزمه وقويت شكيمته وآنس من نفسه القوة راح يتطاول على استاذه معتداً بنفسه ، مفاخراً بفنه امام الرشيد بقوله : « ان أذنت غنيتك ما لم تسمعه اذن قبلك [٥] » .

---

(١) الاصفهاني – الاغاني ج ٣ : ٧٣ .
(٢) الاصفهاني – الاغاني ج ٢٠ : ١١٤ .
(٣) الاصفهاني – الاغاني ج ١٧ : ١٢١ .
(٤) ابن النديم – الفهرست ص : ١٥٦ .
(٥) المقري – نفح الطيب ج ٢ : ٧٤٩ .

ويعجب الرشيد بغناء زرياب اعجاباً ظاهراً يثير حسد الموصلي عليه فيكيد الموصلي لزرياب بالسر ويحمله على ترك البلاط مرغماً والهرب الى « مغرب الشمس » الى بلاد الاندلس الجميلة. ويقرّ قراره في قرطبة وينزل على عبد الرحمن ابن الحكم مكرماً، معززاً. فقرّبه ابن الحكم اليه وسمح له بمجالسته على الشراب والسماع وأحبه حباً شديداً وقدمه على جميع المغنين . وبرع زرياب في فن الموسيقى وأظهر مقدرة في الغناء يحسد عليها . وكان صاحب مدرسة في الغناء عُرفت باسمه هي مدرسة لها قوانينها وقواعدها . ولقد أضاف الى أوتار العود الأربعة وتراً خامساً [1] فكان بذلك فناناً موهوباً ومغنياً مجدداً وصاحب مدرسة معروفة .

ولزرياب مجموعة من الأغاني عني بها ويجمعها وحفظها اسلام بن عبد العزيز ، وعمل كثيراً في سبيل نشرها وتعميمها [2] .

والظاهر أن زرياب كان موسيقياً في دمه . كان له ثمانية أولاد ذكور وابنتان اثنتان ، كلهم غنّى ومارس الصناعة . كان اعلام عبيد الله ولكنه ، كما تقول المصادر ، « كان تيّاهاً بنفسه، شديداً بزهوه ، كثير الاعجاب بغنائه ، يجترىء على الملوك ويستخف بالعظماء [3] » .

أما حمدونة ، وهي بنت زرياب ، وزوجة الوزير هشام بن عبد الملك العزيز فكانت متقدمة في أهل بيتها ، محسنة لصناعتها ، اخذ عنها كثيرون من المغنين .

هؤلاء هم أهم المغنين والمغنيات في العصر العباسي . وقد رافق الغناء مظهر آخر من مظاهر الفن هو الضرب على الآلات الموسيقية المختلفة فبرع الكثيرون وذاع صيتهم ونالوا حظوة كبرى عند الملوك والامراء والخلفاء وهاك بعضهم :

---

(١) المقري – نفح الطيب ج ٢ : ٧٥١ .

Ribera, J - Music p: 107 . (٢)

(٣) المقري – نفح الطيب ج ٢ : ٧٥٢ .

زلزل – كوفي الاصـل اخذ الغناء عن ابراهيم الموصلي ، وهو الذي ثقفه وأراه وجوه النغم حتى أصبح من حذّاق الضرّاب. يقول صاحب العقد الفريد: « كان زلزل أضرب الناس للوتر ، لم يكن قبله ولا بعده مثله [١] » .

محمد الزف – كوفي الأصل والمولد . كان مغنياً ضارباً ، وكان أسرع خلق الله اخذاً للغناء وأصحّهم اداء له . وكان يتعصب لابن جامع .

ابو حشيشة الطنبوري – كان ضارباً ماهراً على الطنبور . ظهر في بلاط المأمون والمعتمد وهو مؤلف في الغناء وفي اخبار الطنبوريين كما سنرى .

عمر الميداني – نديم ابي حشيشة وهو من المتقدمين الذين يحسنون الصنعة والاداء قال جحظة : سمعت ابن الدقاق في منزل ابي العبيس بن حمدون يقول : سمعت ابا حشيشة والمستورد (والصحيح المسدود) ومن قبلهما من الطنبوريين فما سمعت منهم اصحّ غناء ولا اكثر تصرفاً من عمر الميداني[٢].

ابن القصار – كان نديم ابن المعتز . وضعه الاغـاني بين احسن الطنبوريين قال : « كان ابن القصـار معدوداً بين احسن الطنبوريين وهم : المسرور وعمر الميداني وابن القصّار [٣] » .

جراب الدولة – من الطنبوريين الظرفاء . كان يلقب بالريح . له كتـاب « النوادر والمضاحك في سائر الفنون والنوادر » وقد وصفه ابن النديم بقوله : انه كتاب كبير [٤] .

ملاحظ – كانت له الرئاسة على جميع الضرّاب [٥] .

---

(١) ابن عبد ربه – العقد الفريد ج ٣ : ٢٤٦ .

(٢) ابو الفرج الاصفهاني – الأغاني ج ٢٠ : ٦٦

(٣) ابو الفرج الاصفهاني – الاغاني ج ١٢ : ١٦٧

(٤) ابن النديم – الفهرست ص: ١٥٣

(٥) ابو الفرج الاصفهاني – الاغاني ج ٥ : ٥٠٧

ومن اقدم الذين تعلموا الضرب على العود الحرث بن كلدة الطبيب العربي الجاهلي . تعلم ذلك من فارس واليمن . ويقال انه ادرك الاسلام [١].

اما الجواري المغنيات – فقد اشتهر الكثيرات منهن ولم يكنّ اقلّ شهرة من المغنين ، لا سيما وإن الصوت الحسن من الوجه الحسن يكون اشد اختلاساً للعقول واوقع للقلوب على حد تعبير ابن عبد ربه [٢].

فهناك بصبص – وكانت جارية من مولدات المدينة ، حلوة الوجه ، حسنة الغناء ، اشتراهـــا المهدي وهو ولي العهد ، سراً من ابيه ، بسبعة عشر الف دينار . وكان عبد الله بن الزبير يأتيها فيسمع منها وقيل انه انشدها شعراً بايعها فيه اذ قال :

لو انها تدعو الى بَيعةٍ   بايعتُها ثمَّ شققتُ العصا [٣]

وهناك عريب – وكانت مغنية محسنة ، نهـاية في الحسن والجمال والظرف وحسن الصورة وجودة الضرب واتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والاوتار. وكانت دفاترها وصحفها التي جمعت فيها غناءها الف صوت . وقد خصها الاصفهـــاني بسبع عشرة صفحة من كتابه الاغاني ذاكراً نوادرها الغريبة وحكاياتها الكثيرة التي تظهر تأثيرها وفعل غنائها في عظماء دهرها ، وفي مقدمتهم الخلفاء [٤].

وهناك عبيدة الطنبورية – نبغت في الضرب على الطنبور ، شهد لها بذلك اسحق الموصلي وكان يقول فيها : « الطنبور اذا تجاوز عبيدة هذيان [٥] » وكان ابو حشيشة يعظمها ويعترف لها بالرياسة والاستاذية . ذكرهـــا ابن جحظة في كتابه الطنبوريين والطنبوريات فقال : « كانت من المحسنات وكانت لا تخلو من

---

(١) القفطي – اخبار العلماء باخبار الحكماء ص : ١١٣
(٢) ابن عبد ربه – العقد الفريد ج ٣ ص : ٢٣٠
(٣) ابو الفرج الاصفهاني – الاغاني ج ١٣: ١١٤–١١٩
(٤) الاصفهاني – الاغاني ج ١٨ : ١٧٥ و ١٩١
(٥) الاصفهاني – الاغاني ج ١٩ : ١٣٧

عشق ، ولم يعرف في الدنيا امرأة اعطر منها [1]. » وكان مسدود المغني يقدرها ويحترمها فلا يتقدمها في الغناء ان جمعهما مجلس فيقول: « لا والله لا اتقدم عبيدة وهي الاستاذة [2]. » كان لها طنبور مكتوب عليه بالابنوس :

كل شيء سوى الخيانة في الحب يحتَمل [2]

وقال فيها بعض الشعراء :

امست عُبيدةُ في الاحسان واحدةً

فالله جار لها من كل محذور

من احسنِ الناس وجهاً حين تُبصرها

واحذقِ الناس ان غنَّت بطنبورِ [3]

وهناك شارية – خرّجها ابراهيم بن المهدي واخذت غناءه كله او اكثره وبذلك يحتج من يقدمها على عُريب . ولقد برعت في الغناء حتى تمنى الكثيرون شراءها بآلاف الدنانير فلم يقبل ابراهيم بذلك بل اعتقها وتزوج منها . وقد وصلت للمعتصم بعد وفاةابراهيم فاعطي فيها سبعين الف دينار فلم يبعها. وكانت تدعي ان اباها من قريش وانها سُرقت وهي صغيرة ، فبيعت بالبصرة من امرأة هاشمية وباعتها من ابراهيم بن المهدي .

وهناك بذل – من مولدات المدينة . كانت تغني ثلاثين الف صوت ولها كتاب في الاغاني منسوب الاصوات ، غير مجنس ، يشتمل على اثني عشر الف صوت . وكانت حلوة الوجه ، ظريفة ، ضاربة . شهد لها ابو حشيشة قال : «كانت بذل مناحسن الناس غناء فيدهرها. وكانت استاذة كل محسن ومحسنة». وقيل انها ارادت مداعبة ابراهيم بن المهدي يوماً ، وكان يعظمها ويتوافى لها

---

(١) الاصفهاني – الاغاني ج ١٩ : ١٣٤ و ١٣٥
(٢) الاصفهاني – الاغاني ج ١٩ : ١٣٦
(٣) الاصفهاني – الآغاني ج ١٤ : ١٠٩ - ١١٤

فانقطع عنها ، فصارت اليه ودعت بعود فغنت في طريقة واحدة وايقاع واحد واصبع واحدة مائة صوت لم يعرف ابراهيم منها صوتاً واحداً ، ثم وضعت العود وانصرفت . فلم تدخل داره حتى طال طلبه لهـا وتضرعه اليها في الرجوع اليه [1] .

اما دنانير – مولاة يحيى بن خالد البرمكي . فكان الرشيد لشغفه بهـا يكثر مصيرها الى مولاها ويقيم عندها ويبرها ويفرط . لهـا كتاب مجرد في الاغاني مشهور . وقد اخذت الغناء عن بذل واخذت ايضاً عن كبـار المغنين امثال فُليح وابراهيم وابن جامع واسحاق ونظرائهم . وتقدم عقيل المغني منها خاطباً وكان يحبها حباً شديداً فردته رغم الشفاعات الكثيرة التي بذلها مولاه صالح بن الرشيد ، وبذل والحسين بن محرز . وفي دنانير يقـول ابو حفص الشطرنجي :

هذي دنانيرُ تنساني فاذكرها وكيف تنسى محباً ليس ينساها

واللهِ واللهِ لو كانت اذا برزت نفسُ المتيم في كفيه القاها ..

ومن الاسماء التي ظهرت عاتكة – وكانت امها شهدة جارية الوليد بن يزيد وشهدة هذه كانت مغنية ايضاً اشتهرت في بلاط الرشيد ونبغ من تلاميذهـا اسحق الموصلي ومخارق [2] .

ومتيم الهاشمية وكانت من مولدات البصرة اخذت عن اسحق وابيه قبله وعن طبقتها من المغنين ، وتخرجت على يد بذل . وكانت احسن الناس وجهاً وغناء واديباً . حظيت عند علي بن هشام حظوة شديدة وتقدمت على جواريه اجمع ، وهي ام ولده كلهم [3].

---

(١) الاصفهاني - الاغاني ج ١٥ : ١٤٤ - ١٤٧

(٢) الاصفهاني - الاغاني ج ٦ : ٥٧ و ٥٨

(٣) الاصفهاني – الاغاني ج ٧ : ٣١ - ٣٨

ذات الخال ـ احدى الجواري الثلاث اللواتي كان الرشيد يهواهنّ ويقول الشعر فيهن وهن : سحر وضيا وخنث او ذات الخال .

كانت احسن الناس وجهاً ولها خال على خدها ، فوق شفتها العليا ، لم ير الناس احسن منه في موضعه . كان ابراهيم الموصلي يهواها وهو الذي باعها من الرشيد بسبعين الف درهم حتى اذا علم الرشيد ان كان بينها وبين ابراهيم صلة حبية ابغضها ووهبها لحموية الوصيف . ولكنه كثيراً ما كان يشتاقها ويستمع الى غنائها بعد ذلك .

عنان — من مولدات اليمامة ، جارية النطاف ، كان فحول الشعراء يساجلونها ويعارضونها فتنتصف منهم . وكان العباس بن الاحنف يهواها ويراسلها شعراً ولم تكن لتميل اليه . وكان الرشيد يحبها ويساوم بها فيأبى الناطفي ان يبيعها منه باقل من مائة الف دينار [١] .

وهناك كثيرات من المغنيات يرد ذكرهن في هذا القصص الغنائي ونجد ترجمتهن في كتاب الاغاني وهن اقل شهرة ممن ذكرنا امثال : حسنة . وريّق . دَمن جارية اسحق الموصلي . وهبة جارية محمد بن عمران القروي . دفاق جارية يحيى بن الربيع . سمحة . قمرية العمرية ام ولد عمرو بن بانة وغيرهن . . .

اما في الاندلس فنبغت العجفاء جارية عبد الرحمن الاول بن معاوية صاحب الاندلس ، وفضل المدنية جارية عبد الرحمن الثاني . ومصابيح تلميذة زرياب التي يقول فيها ابن عبد ربه ابياته المشهورة :

يا مَن يضنُّ بصوتِ الطائرِ الغردِ
ما كنتُ احسَبُ هذا الضنَّ من احدِ
لو أن اسماع اهلِ الارضِ قاطبةً
اصغتْ الى الصوت، لم ينقُصْ ولم يزدِ [٢]

(١) الاصفهاني – الاغاني ج ١٠ : ١٠١ .
(٢) المقري – نفح الطيب ج ٢ : ٧٥٤ .

هذه هي اشهر اسماء الجواري والقيان المغنيات اللواتي اشتهرن في الاعصر العباسية وهي اسماء، كثيراً ما ترددت في هذا القصص الغنائي، العابق بطيب الصوت، وشذا الروح. وهؤلاء القيان، بما فيهن من مرح الشباب، وعبق الحب، وطيب الحنجرة، قد استطعن ان يخلعنَ على هذه الحكايات الف لون ولون حتى بات الواحد منا، وهو يقرأ هذه الحكايات، يتساءل: أفي اليقظة هو ام في المنام؟ ويتمنى لو تطول هذه الاحاديث العجيبة وهذه الاخبار النادرة التي تجمع الى الاشراق اللغوي، متعة روحية سامية!

شهرة المغنين والمغنيات

ولسنا نستطيع ان نمر بهؤلاء المغنين والمغنيات دون ان نبحث في هذه الشهرة العريضة التي حظي بها الكثيرون منهم. وهي تظهر في مظاهر مختلفة اهمها ما يلي:

التأثير في الخلفاء والعظماء — وهو تأثير كثيراً ما احسنت الجواري استغلاله عند الخلفاء والعظماء. فذات الخال، وقد علمت سحر جمالها في قلب الرشيد، تسأله ان يوليّ حموية الوصيف، الحرب والخراج، بفارس سبعَ سنين فلا يردّ لها الرشيد طلباً [1]. وكان يشقُّ عليها كثيراً أن تراه يميل الى بعض الجواري غيرها، فكانت تقصّ الخال الذي بخدها لتغيظه بعملها، فيتأثر الرشيد من ذلك وينهض اليها مسرعاً مسترضياً لها ..

اما بُذل فكان الخلفاء يتوددون اليها ويستزيرونها ويمرون على بابها. وهكذا قلْ في الكثيرات من هؤلاء المغنيات اللواتي كن يظهرن دالة كبرى على رجال الدولة وامراء العصر. فيتدخلن في كل شاردة وواردة، فعل الكثيرات من نساء الشرق والغرب، والملكات العشيقات اللائي غيّرن مجرى التاريخ بما كان لهن من سحر على الملوك والامراء.

---

(١) الاصفهاني – الاغاني ج ١٥ : ٨٠

وهذا التأثير لم يكن الدافع اليه المغنيات فقط بل كان للمغنين منه القسط الاكبر .

فالحارث بن خالد المخزومي يمدح الغريض بقوله: «يا غريض لا لوم في حبك، ولا عذر في هجرك ، ولا لذة لمن لا يروّح قلبه بك ، يا غريض ! لو لم يكن لي في ولايتي مكة حظ الا انت ، لكان حظاً كافياً وافياً . يا غريض ! انما الدنيا زينة فازين الزينة ما فرّح النفس . ولقد فهم قدر الدنيا على حقيقته من فهم قدر الغناء [1] . » وهذا الوليد ابن يزيد يستدعي معبد ويوجه اليه الى المدينة ويجلسان معاً، ليس بينهما ثالث ، في موضع بقرب بركة مملوءة ماء ورد قد خلط بمسك وزعفران [2] .

وكانت الجواري والمولعون بمعبد كثيرين يكبون على يديه ورجليه يقبلونها قائلين : « انت سيدنا ومن نتمنى على الله ان نلقاه [3] . »

وكان ابراهيم الموصلي ذا مكانة كبيرة عند الرشيد . كثيراً ما كان يقول له : « يا ابراهيم بكـّر علي غداً حتى نصطبح [4] . »

العطايا والهدايا – والمظهر الثاني لهذه الشهرة يصيبها المغنون والمغنيات هو في هذه العطايا الكثيرة ، والانعامات العظيمة ، والهدايا الثمينة ، التي كانت تتدفق عليهم من رجال الدولة ، والخلفاء في مقدّمتهم . وانني لاحتار حقاً في اختيار الامثلة على ذلك . فاي مغن لم ينل العشرات والمئات والالوف من الدنانير الذهبية ؟ واي مغنية لم تتدفق عليها عقود الذهب واللؤلؤ تدفقاً ، وتنثر امامها الاثواب الجميلة نثراً ؟ !

هذي دنانير ، وقد تيّمت الرشيد ، يهدى اليها عقد ، قيمته ثلاثين الف دينار [5] .

---

(١) الاصفهاني – الاغاني ج ٣ : ١٠٧
(٢) الاصفهاني – الاغاني ١ : ٢٧
(٣) الاصفهاني – الاغاني ج ١ : ٢٤ و ٢٥
(٤) الاصفهاني – الاغاني ج ٥ : ٢٢٨
(٥) الاصفهاني – الاغاني ج ١٦ : ١٣٧

وهذه شارية تصل الى المعتمد ، بعد ان مرّت على غيره ، فيأمر لهـــا بالف ثوب من جميع انواع الثياب [١] .

وهذه عُريب تغلـّف شعرها مكان الغسلة ، بستين مثقالاً مسكاً وعنبراً ، وتغسله من جمعة الى جمعة ، فاذا غسلة اعادته ، وتقسم الجواري غسالة رأسها بالقوارير وما تسرّحُهُ منه بالميزان [٢] .

وهذه ام جعفر، وقد جمعت بنات الخلفاء وبنات هاشم لينحنَ على الرشيد، تبعث الى اسحق بن ابراهيم الموصلي بمائة الف درهم ومائة ثوب مكافأة له عـــلى اربعة ابيات ليست من نظمه ولا تلحينه [٣] .

وهذا ابن جامع يدخل الى بغداد فقيراً ويخرج منها احسن من جـلة اهلها ومياسيرهم بعد مكافئات الرشيد له على غنائه . قيل انــه اقبل اليه يوماً وطلب منه ان يغنيه فكافأه بثلاثة اكياس فيها ثلاثة آلاف دينار [٤] .

وهذا المأمون يجعل يوماً خاصاً بالجواري المغنيات يغنينه من وراء الستارة، ويصلهن باجزل الصلات واغزر العطايا [٥] .

وهذا الواثق يجمع الـضرّاب والمغنين للمناظر-ة في حضرته ويكافىء المجيدين منهم [٦] .

وهذا الـرشيد الثاني يكافىء حكَمَ الوادي بألف قطعة ذهبية ، وقد تغلب حكم هذا ، على ابراهيم الموصلي وابن جامع في حضرة الهادي ، فنال الجائزة الاولى ومقدارها ٣٠٠ الف قطعة فضية . وهذا الامين يدفع عشرة آلاف درهم ثمن درس موسيقي واحد يعطية يحيى المكي لاخيه ابراهيم بن المهدي [٧] .

---

(١) الاصفهاني – الاغاني ج ١٤ : ١١٣
(٢) الاصفهاني – الاغاني ج ١٨ : ١٨٧
(٣) الاصفهاني – الاغاني ج ٨ : ٣٤٨
(٤) الاصفهاني – الاغاني ٦ : ٣١١
(٥) الاصفهاني – الاغاني ٥ : ١٢٥
(٦) Farmer - A History of Arabian Music p: 114.
(٧) المصدر السابق .

الجواري تباع باثمان باهظة

ولا يستطيع قارىء هذه الحكايات الغنائية الا ان يدهش لهذه الاموال الكثيرة التي كان يهبها الخلفاء ورجال المال للمغنين والمغنيات وخاصة المبالغ الجسيمة التي كانت تدفع ثمناً لجارية جميلة الصوت ، حسنة الوجه ! .

فبذل التي مر ذكرها، والتي تتناولها هذه الحكايات، بطريف الاخبار وجميل الروايات ، قيل انها بيعت بعشرين الف الف درهم[١] . وهو مبلغ من المال عظيم بل هو اعظم مبلغ ينقد ثمن جارية .

آلات الطرب

وتتردد في هذه القَصَص الغنائي عشراتُ الاسماء لآلات الطرب التي كان يستعملها المغنون في تأدية اصواتهم . وليس القصد هنا في ان نصف هذه الآلات وصفاً علمياً فنياً فنبين مزاياها بالنسبة لآلات اليوم. ذلك يحتاج الى دراسة خاصة لا تتوافر الا لمن كان له اطلاع واسع في فن الغناء والموسيقى ، الشرقي منهما والغربي ، انما يهمنا، ان نلم بهذه الآلات الماماً سريعاً بصفتها تؤلف قسماً من مادة هذا القصص . ولعل في ذكر اسمائها حاصرة اسسها وتبيان اهميتها[٢] .

كان طُويس يغني على المُرَبع . وابن سُريج ينقر على الدف وهو ايضاً اول من ضرب بالعود ؛ وكان ابن عائشة يغني على الاداة . وكان لحسّان بن ثابت ، زمن النبي ، جارية تغنيه بمزهرها[٣] .

وكان عند جبلة بن الايهم الغساني مغنيات روميات يغنين بالرومية بالبرابط[٤] .

---

(١) الاصفهاني – الاغاني ١٥ : ١٤٥

(٢) راجع كتاب Studies in Oriental Musical instruments - Farmer وهو من اوسع المصادر وأشملها لدراسة هذه الآلات .

(٣) الاصفهاني – الاغاني ج ١٠ : ١٦٩ .

(٤) الاصفهاني – الاغاني ج ١٦ : ١٥ .

وقال ابن رشيق : « وغنى العرب جميعاً بالعيدان ، والطنابير والمعازف والمزامير [1] » .

ولقد اتخذ العرب بعض آلاتهم الموسيقية عن الشعوب الكثيرة التي امتزجوا بها مثل الفرس والروم والانباط وغيرهم . من هذه الآلات :

الارغانون، والبُزق، والطبلة، والدُف، والِشلياق، والقيثارة، والطنبور، والـعُنق الربّاب ، والِمعزَقة ، والبشهروز ، والعود [2] ..

انواع الغناء

وغنى العرب على هذه الآلات المختلفة جميع انواع الغناء وهي كثيرة منها :

الُحداء : وهو اول السّماع والترجيع في العرب على قول المسعودي [3]. وهو يقع بتطريب وترجيع يسير وترفيع للصوت [4] .

النصب : وهو شبيه بالحداء .

وهناك فن الاهزاج الذي برع فيه اسحق الموصلي بينما ابوه ابراهيم ُعرف بالماخوري. قال الاصفهاني: « اربعة بلغوا في اربعة اجناس مبلغاً قصر عنه غيرهم، معبد في الثقيل وابن ُسريج في الرمل، وحكم في الهزج وابراهيم في الماخوري [5] ». وقال المسعودي: « وكان غناؤهم (اي العرب) النصب ثلاثة اجناس: الركباني والسناد الثقيل والهزج الخفيف [6] . »

---

(١) ابن رشيق ـ العمدة ج ٢ : ٢٤١ .
(٢) الدكتور حسن وغيره ـ نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية ص : ٧٩ .
(٣) المسعودي ـ مروج الذهب ج ١٠ : ٩٢ .
(٤) الاصفهاني ـ الاغاني ٩ : ٥٤ .
(٥) الاصفهاني ـ الاغاني ج ٨ : ١٤٩ .
(٦) الاصفهاني ـ الاغاني ج ٦ : ٦٦ .

وتقدم الغناء واصبح ، بعد زمن ، فناً مستقلاً له اتباعه ، وله مريدوه ، وله اعلامه الذين يحملون لواءه وينشدونه على طريقة علمية صحيحة . فهذا ابراهيم الموصلي يؤلف صوتاً مشهوراً مطلعه :

قلْ لمن صدَّ عاتباً ونأى عنكَ جانبا
قد بلغتَ الذي اردتَ وإن كنتَ لاعبا

فيتصل خبره بابراهيم بن المهدي فيكتب يسأله عن الصوت فيجيبه ابراهيم ويكتب اليه « بشعره وايقاعه، وبسيطه، ومجراه، وإصبعه، وتجزئته واقسامه، ومخارج نغمه ومواضع مقاطعه ، ومقادير ادواره ، واوزانه [1] . »

فالايقاع والبسيط والمجاري والاصبع والتجزئة والاقسام ومخارج النغم ومواضع المقاطع والادوار والاوزان ، كل ذلك الفاظ لهـــا معانيها العلمية ومدلولاتها الفنية . وهي تعطينا فكرة واضحة عن تقدم فن الموسيقى ورسوخه عند العرب في ذلك العصر . ولقد استطاع المستشرق فارمر ان يرى تشابهاً كبيراً بين استعمال العرب لاجناس غنائهم وبين التي استعملها اليونان قبلهم . فاجناس الغناء الثلاثة التي وردت في كتاب مفاتيح العلوم وهي الطنيني ويسمى القوي والمقوي، اللوي والملون، والتأليفي او الناظم او الراسم، ليست في الحقيقه سوى الانغـــام اليونانية المعروفة باسم Diatonic'Enharmonic, Chromatic وتسمى ايضاً الرجليّ والخنثويّ والنسوي [2] .

وفي الاغاني اشارات كثيرة الى استعمال العرب هذه الالحان المقتبسة عن الالحان البيزنطية [3] .

---

(١) الاصفهاني - الاغاني ٩ : ٥٤ .

(٢) الخوارزمي - مفاتيح العلوم - مطبعة الشرق سنة ١٣٤٢ هـ ص : ١٤٠ .

(٣) الاصفهاني - الاغاني ٥ : ٥٣ .

وكان لتقدم الغناء وانتشار شهرة المغنين ، ان ظهر الفن الغنائي في مظهر جديد هو مظهر التأليف في الموسيقى والغناء ، او الجمع ، جمع الاخبار عن الفنانين من ضرّاب ومغنين ومغنيات ، او جمع الاصوات المختلفة والاغاني المتنوعة في كتاب مستقل .

ومما يؤسف له حقاً ، ان يكون اكثر هذه الكتب مفقوداً . فلم يصلنا منها شيء يستحق الذكر فنهتدي بواسطته الى دراسة الفن الموسيقي العربي القديم . ولعل العاملين على احياء التراث العربي القديم يعثرون، في زوايا المكاتب العالمية على بعض هذه الكتب فينشروس خدمة للعلم والآداب والقومية .

وهاك اسماء بعض المؤلفين مع اسماء كتبهم :

١ ـ **الكندي**[١] : + سنة ٤٧٤ ه له عدة كتب في الموسيقى منها :

١ – رسالة كبرى في خبر تأليف الالحان .

٢ – رسالة في ترتيب النغم .

٣ – رسالة في الايقاع .

٤ – رسالة في المدخل الى صناعة الموسيقى .

٥ – رسالة في الاخبار عن صناعة الموسيقى .

٦ – رسالة في خبر صياغة التأليف .

٧ – مختصر الموسيقى في تأليف النغم وصناعة العود[٢] .

٢ ـ **الخليل ابن احمد**[٣] : + سنة ١٧٥ ه

له كتاب النغم وكتاب الايقاع وفيهما محاولة جريئة علمية في دراسة الفن الموسيقي .

---

(١) ابن النديم – الفهرست ص : ٢٥٧ .

(٢) قد وصل الينا بعض هذه المخطوطات منها ثلاثة او اربعة كتب في المتحف البريطاني ومكتبة برلين باسماء محرفة بعض التحريف . راجع عن ذلك فارمر ص : ١٢٨ .

(٣) ابن النديم الفهرست ص : ٤٣ ،

٣ – اسحق الموصلي [١] : + سنة ٢٣٥ هـ

له كثير من الكتب في الغناء وفي اخبار المغنين منها :

١ – كتاب الاغاني .

٢ – كتاب اخبار عزة الميلاء .

٣ – اغاني معبد .

٤ – كتاب اخبار حنين الحيري .

٥ – كتاب اخبار طويس .

٦ – كتاب اخبار ابن مسجح .

٧ – كتاب اخبار ابن عائشة .

٨ – كتاب اخبار الدلال .

٩ – كتاب الاختيار من الاغاني للواثق .

١٠ – كتاب الرقص والزّفن .

١١ – كتاب النغم والايقاع .

١٢ – كتاب اخبار معبد بن سريج واغانيها .

١٣ – كتاب اخبار الغريض .

١٤ – كتاب الاغاني الكبير .

حنين بن اسحق العبادي : + سنة ٨٧٣ م

مسيحي المولد والنشأة عُرف بنشاطه في ترجمة الكتب اليونانية الى العربية والسريانية . يقول فارمر ان في مكتبة مونيخ الحكومية مخطوطة عربية لحنين فيها بحث عن الموسيقى مأخوذ عن اليونانية . وقد ترجمت الى العبرانية [٢] .

---

(١) ابن النديم – الفهرست ص : ١٤١ .

Farmer — A History of Arabian Music p : 128 (٢)

٥ - بنو موسى :

وهم محمد واحمد والحسن ابناء موسى بن شاكر . نشأوا في بيت الحكمة وكانوا علماء في الرياضيات والميكانيك وعلم النجوم والموسيقى . ولهم كتاب الاراغانون وكتاب الآلات التي تزّمر بنفسها وهو موجود مخطوطة في مكتبة المدرسة الارثوذكسية (الثلاثة الاقمار) في بيروت [1] .

٦ - يحيى المكي :

له كتاب في الاغاني وقد جمع فيه احسن الامثلة من الغناء القديم .

٧ - احمد بن يحيى المكي : + سنة ٨٦٤ م

ابن يحي المذكور. راجع كتاب ابيه واخرج منه نسخة جديدة بثلاثة آلاف اغنية ثم جمع كتاباً آخر باسم كتاب مجرّد في الاغاني وجمع فيه اربعة عشر الف اغنية .

٨ - ابراهيم الموصلي : + سنة ٨٠٤ م .

لم يسبقه احد من مؤلفي القطع الموسيقية . جاء في الاغاني ان ابراهيم « صنع تسعمائة صوت منها دينارية ومنها درهمية ومنها فلسية ، وليس اكثر من صنعته. فاما ثلاثمائة منها فانه تقدم الناس جميعاً فيها ، واما ثلاثمائة فشاركوه وشاركهم فيها ، واما الثلاثمائة الباقية فلعب وطرب [2] .

٩ - عمرو بن بانة : + سنة ٨٩١ م

له كتاب مجرد الاغاني يشهد فيه ابن خلكان بقوله : « انــــه كاف لمهارته . ويقول فيه ابو الفرج « انه اصل من الاصول [3] . »

---

(١) المشرق مج ٢١ ص ٤٤٤ .

(٢) الاصفهاني – الاغاني ج [illegible]

(٣) الاصفهاني – الاغاني ١٤ : ٢ [illegible]

١٠ - ابو حشيشة الطنبوري :

له كتابان : الاول كتاب المغني المجيد ، والثاني كتاب اخبار الطنبوريين ويقول ابن النديم انه رأى الكتاب الاول « بخط عتيق [١] » .

١١ - قريص المغني :

له كتاب صناعة الغناء واخبار المغنين وذكر الاصوات التي غنى فيها على الحروف ولم يتمه . والذي خرج منه نحو الف ورقة . هذا ما يقوله ابن النديم[٢] .

١٢ - جحظة البرمكي : + سنة ٩٣٨ م

له كتاب الطنبوريين ، وكتاب النديم ، وكان لهما شهرة كبيرة في ذلك الزمن وقد نقل عنهما الاصفهاني في كتابه الاغاني .

---

(١) ابن النديم - الفهرست ص : ١٤٥

(٢) ابن النديم - الفهرست ص : ١٥٦ .

قيمة الحكايات الغنائية

يجدُر بنا ، لنقدّر هذه الحكايات الغنائية قدرها ، ولننزلها منزلتها من الفن القصصي العام ، والقصة العربية خاصة ، ان ننظر في المادة التي تتألف منها وفي البواعث والاسباب التي بعثت على تأليفها وتدوينها ، والاغراض الكثيرة التي تناولتها .

ولقد مررنا مروراً سريعاً بالاغراض الرئيسية التي طرقتها هذه الحكايات ، فرأينا انها وضعت للالمام بحياة المغنين والمغنيات ، وذكر الحانهم واصواتهم ، وتعدد آلاتهم التي كانوا عليها يضربون . كما انها تبين ، الى حد كبير ، الشهرة الواسعة التي اصابها هؤلاء المغنون ، والحظوة الكبرى عند الخلفاء والعظماء من بني قومهم ، والثروات الضخمة التي نالها الكثيرون والكثيرات ممن مر ذكره معنا من مغنين ومغنيات. كل ذلك هو غرض هذه الحكايات، وهو غرض رئيسي هام ، يطلعنا على تاريخ عصبة كبيرة من اصحاب الفن ، حملت لواء الموسيقى والغناء طيلة الاعصر العباسية ، وعملت جهدها في تحسينه وتنميته وترقيته . وليس هذا كل شيء ، بل لهذه الحكايات قيمتها الاجتماعية التي لا يستطيع المؤرخ ان ينكرها . فايّ اخبار هي اخبار هؤلاء المغنين والمغنيات ، تلك الروايات الطريفة التي يذكرها كتاب الاغاني وغير الاغاني عن جميلة وعزة وعريب ودفاق وغيرهن كثيرات! بل ما هي هذه المجالس الفخمة؟ مجالس اللهو والرقص والغناء والشراب ، تلك التي كانت هؤلاء الجواري يعقدنها في دورهن تارة ، والخلفاء في قصورهم تارة اخرى ؟ انها تطلعنا على العصر العباسي ، او على الاقل على جانب منه . وهذا الجانب رغم ما فيه من مجون ورغم مـا يغلب عليه من الحرية الاخلاقية والنزعة المجونية، هو وجه من وجوه المجتمع العباسي الكثيرة، تلك الوجوه المختلفة في تقاسيمها ، المتعددة في متناقضاتها !

مادة الحكايات الغنائية

وليست قيمة هذه الحكايات الغنائية محصورة في عرضها لنا ، وبصور مختلفة

مظاهر العصر العباسي فقط. بل إنّ فيها مادة شعرية غزلية لارق شعراء العرب، وغير بعيد ان يتآلف الشعراء والمغنون وان يتصادقوا فهم بحاجة قصوى بعضهم الى بعض. فالشعر الرقيق المقرون الى الصوت الجميل يرقص السامع ترقيصاً[1].

وفي هذه الحكايات الشيء الكثير عن حيل الجواري وظرفهن في كتابة الرقيق من الشعر على المراوح التي يحملنها او اذيال الفساطين التي يلبسنها مما كان يلفت الانظار ويبهر العقول.

دخل ابن ابي عتيق على عبد الملك. فوجده جالساً بين جاريتين قائمتين عليه، تميسان كغصن بان، بيد كل جارية مروحة، تروح بها عليه، مكتوب بالذهب في المروحة الواحدة:

إنني أجلُبُ الرياح ... وبي يلعبُ الخجلْ
وحجابٌ اذا الحبيبُ ... ثنى الرأس للقبَلْ
وغياثٌ، اذا النديم ... تغنَّى او ارتجلْ!

وفي المروحة الأُخرى:

انا في الكفِّ لطيفة ... مسكني قصرُ الخليفة
انا لا أصْلُحُ الا ... لظريفٍ او ظريفة
أو وصيفٍ حسن القد ... شبيهٍ بالوصيفة [2]

ويحكون عن الدارمي وكان شاعراً أُموياً شريفاً من سادات قومه، أنه تنسّك وترك الشعر ولزم المسجد، حتى اذا قدم تاجر عراقي بعِدل (نصف حمل)

(١) الاصفهاني – الاغاني ج ١ : ١١٢ وابن عبد ربه – العقد ج ٣ : ٢٥٥

(٢) ابن عبد ربه – العقد ج ٣ : ٢٣٩.

من خُمُر العراق ، الى المدينة ، باعها كلّها إلا السود . فشكا ذلك الى الدارمي ، فعمد هذا الى ثياب نسكه ، فألقاها عنه وعاد الى مثل شأنه الأول ، وقال هذا الشعر ، ورفعه الى صديق له من المغنين :

قلْ للمليحة في الخِمار الأسودِ ماذا فعلت بزاهد متعبّد ؟
قــد كان شمّر للصلاة ثيـابَهُ حتى خطرت له بباب المسجد
ردّي عليه صلاتَهُ وصيــامَهُ لا تقتليه بحقّ دين محمّــدِ

فشاع هذا الغناء وقالوا : قد رجع الدارمي وتعشّق صاحبة الخمار الاسود . فلم تبقَ مليحة في المدينة الا اشترت خماراً أسود . وباع التاجر جميع مـــا كان معه [1] .

ويتغنى ابن سريج امام عطاء بن ابي رباح ببيتي جرير :

إنَّ الذين غدَوا بلبك غادروا وشَلًا بعينك لا يزالُ معينا
غيَّضنَ من عبراتهن وقلنَ لي ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا ؟

فيضطرب عطاء اضطراباً شديداً وتدخله اريحية ويحلف ألا يكلّم احــداً بقية يومه إلا بهذا الشعر [2] .

ويأخــذ المغني ابن جامع الأبيـــات التالية عن احدى الجواري حتى اذا سنحت له الفرصة تغنى بها امام الرشيد أولاً وثانياً وثالثاً فكافأه عليهـا بثلاثة آلاف : ١٠٠٠٠ .

شكونا الى احبابنا طولَ ليلنا فقالوا لنا : ما أقصر الليلَ عندنا!
وذاكَ لان النومَ يغشى عيونهم سراعاً ، وما يغشى لنا النومُ أعينا

---

(١) ابن عبد ربه – العقد ج ٣ : ٢٣٥ .
(٢) الاصفهاني – الاغاني ج ١ : ٢٥٩

اذا ما دنا الليل المضرُ لذي الهوى ... جزعنا ، وهم يستبشرون اذا دنا
فلو انهم كانوا يلاقون مثل ما ... نلاقي، لكانوا في المضاجع مثلنا [1]

ومن جميل الشعر الذي كان يتغنى به اسحق الموصلي وهو من صنعته :

الطلول الدوارس ... فارقتها الاوانسُ
اوحشتْ بعدَ أهلها ... فهي قُفرٌ بسابسُ

وللشعراء المدنيين باع طويل في نظم الشعر الغنائي الرقيق . اسمع الى ابيات ابن الدمينة يقول :

وأذكُرُ أيامَ ٱلحمى ثم أنثني ... على كبدي من خشية أَن تصدَّعا
وليست عشياتُ ٱلحمى برواجعٍ ... عليك، ولكن خلٍّ عينيك تدمعا
بكتْ عينيَ اليمنى فلما زجرتها ... عنِ الجهل بعد الحلم ، أسبلتا معا

ولقد مر معنا ان اسحق كوفيء مكافأة كبيرة على أربعة أبيات ليست من نظمه ولا تلحينه بل هي من نظم الاحوص وتلحين معبد وهي من اشهر الأبيات في النوح :

قد لعمري بتُّ ليلي ... كأخي الداء الوجيعِ
ونجيُّ الهمِّ مني ... بات أدنى من ضلوعي
كلما أبصرتُ ربعاً ... دارساً،فاضتْ دموعي
مقفراً من سيدٍ ... كان لنا ، غيرِ مطيع

---

(١) الاصفهاني ــ الاغاني ج ٦ : ٣١١ .

ومر معنا ايضاً ان بعضهم كان يحلف بالطلاق أن يسمع غناء المغنين ويشرب عليه وهذه بعض اصوات مخارق التي كانت تحملهم على ذلك الحلفان :

بكرتْ عليك فهيَّجَتْ وجدا   هُوجُ الرياح واذكرتْ نجدا
أتحنُّ من شوقٍ اذا ذكرت   نجدٌ ، وأنتَ تركتها عمدا ؟

وآخر :

ألِفَ الظبيُ بِعادي   ونفى الهمُّ رُقادي
وعدا الهجرُ على الوصل   بأسيافٍ حِداد
قلْ لمن زيَّنَ وُدي   لستَ أهلاً لودادي

وتخبرنا هذه الحكايات الطريفة ان فريدة ، وكانت جارية مغنية محسنة ، اهداها عمرو بن بانة الى الواثق ، كثيراً ما كانت تتغنى بمجلس الواثق فتجيء بالسحر الى أن غنـّته يوماً هذا الصوت :

أهابُكِ إجلالاً وما بك قدرة   عليَّ ، ولكن ملءُ عينٍ حبيبُها
وما هجرَتكِ النفسُ يا ليلُ إنها   قلتْكِ ولا ان قلَّ منكِ نصيبُها

فرفع رجله فضرب بها صدر فريدة ضربة تدحرجت منها من أعلى السرير الى الأرض وتفتت عودها ! ذلك ان الواثق فكـّر فيما فكـّر فيه ، بأن مغنيته قد تجلس يوماً من الأيام هذا المجلس مع غيره من الخلفاء [1] ! من يدري ؟

ومما غنى به نومة الضحى ، وهو من الشعر الجميل :

يا مُولدَ النارِ قد أعيت قوادِحُهُ   إقبسْ ، اذا شئتَ ، من قلبي ، بمقباسِ
ما اوحشَ الناسَ في عيني واقبحهم   اذا نظرتُ ، فلم أُبصِرْكَ في الناسِ

---

(٢) الاصفهاني - الاغاني ج ٤ : ١١٥ .

وكان ابن المعتز يحسن النظم والتلحين، ومن جميل أصواته التي تظارف فيهـا وملح :

زاحَمَ كُمي كمَّهُ فـالتويا وافَقَ قلبي قلبَه فـاستويا
وطالما ذاق الهوى فاكتويا يا قرةَ العين ويا همي ويا ...

وله في غلام نفر منه وغضِبَ فجهد ان يترضاه فلم يكن له فيه حيلة :

بابي أنت قد تماديتَ في الهجر والغضب !
واصطباري على صدودك يومـاً من العجبْ
ليس لي ، إن فقدتُ وجهك في العيش ، من أرب
رحم الله من اعان على الصلح ، واحتسبْ !

ومر سليمان بن داود كاتب أم جعفر وكان جالساً مع عبدالله بن موسى الهادي خادم لصالح بن الرشيد فسأله عبدالله : ما اسمك ؟ قال: اسمي: لا تسلْ . فاوحى هذا الاسم لعبدالله بهذه الابيات الغنائية الجميلة .

وشادنٍ مرَّ بنا يجرحُ باللحظ المقَلْ
مظلومُ خصرٍ ظالمٌ منه، اذا يمشي، الكفلْ
اعتدلت قـامته والطرفُ منه ما عدَلْ
بدرٌ تراهُ أَبداً طـالعَ سعدٍ ما أَفَلْ
سألتُهُ عن اسمهِ فقال : اسمي لا تَسَلْ
وطلعتْ في وجنتيه وردتان من خجَلْ

فقلت ما اخطا الذي سمَّاكَ بل قالَ المَثَلْ
لا تسألنْ عن شادنٍ فاق جمالاً وكمُلْ !

وقال فيه :

عزَّ الذي تهوى وذَلّ صبٌّ الفؤادِ مختبَلْ
جدَّ بهِ الهجرُ وذا الهجرُ اذا جدّ قتلْ
من شادنٍ ممنطَقٍ فاقَ جمالاً وكَمُلْ
تناصفَ الحسنُ به فلا تسَلْ عن لا تَسَلْ

ومن أصوات الغريض المستحسنة :

يا خليلي قد مللتُ ثوائي بالمصلّى وقد سئمتُ البقيعا
بلّغاني ديار هندٍ وسُعدى وارجِعاني فقد هَوَيتُ الرجوعا

ومن اهزاجه :

لبيكِ يا سيدتي لبيكِ ألفاً عددا
لبيكِ من ظـالمة احببتُهـا مجتهدا
قومي الى ملعبنـا نحكِ الجواري الخُرَّدا
وضعْ يداً فوق يدٍ نرفعُهَا يداً يدا

وأيضاً :

شجاني مغاني الحيّ وانشقّتِ العصا وصاح غراب البين: انتَ مريضُ

ففاضتْ دموعي عند ذاكَ صبابةً وفيهن خُودٌ كالمهاة غضيضُ
ووَلَّيتُ محزونَ الفؤاد مروعاً كئيباً، ودمعي في الرداء، يفيضُ

ومن أصوات ابراهيم الموصلي المشهورة وهو لأبي صخر الهُذَلي :

عجبتُ لسعي الدهر بيني وبينها ولما انقضى ما بيننا، سكَنَ الدهرُ
فيا حبّها زِدني جوىً كلَّ ليلةٍ ويا سلوةَ الأَيام، موعدُكِ الحشرُ
ويا هجرَ ليلى قد بلغت بيَ المدى وزدتَ على ما ليسَ يبلغُهُ الهجرُ
وإني لتعروني لذكراكِ هِزةٌ كما انتفض العصفور بلَّله القطرُ
هجرتك حتى قيلَ لا يعرفُ الهوى وزرتُكِ حتى قيل: ليس له صبر
اما والذي أَبكى وأَضحك والذي أَمات،وأَحيا، والذي أَمره الامرُ
لقد تركَتْني احسُدُ الوحش أَن أرى اليفين منها لا يروعهما الذُعرُ [1]

ومن أصوات أبي حشيشة التي كان يشتهيها المستعين :

وما أنسَ لا أَنسَ منها الخشوعَ وفيضَ الدموع وغمزَ اليد
وخدي مضافٌ الى خدّها قياماً الى الصُبح لم نرقُدِ !!

وآخر، وكان يشتهيه المعتمد :

قلبي يحبُّكِ يـــا منى قلبي، ويُبغضُ من يحبُّكْ
لأكونَ فرداً في هواكِ فليت شعري كيف قلبُكْ؟

---

(١) النويري نهاية الارب ج ٤ : ٣٥٢ والاصفهاني -- الاغاني ج ٥ : ١٦
وابو علي القالي - الامالي ج ١ : ١٥٠ .

وكانت جميلة اذا ما غنّت بشعر عمر ابن أبي ربيعة يشقّ الحضور ثيابهم ويغمى عليهم :

ولقد قالتْ لجاراتٍ لها كالمهى يلعبنَ في حُجرتها
خذنَ عني الظِلَّ لا يتبعُني ومضتْ تسعى الى قبّتها
لم تُعلّقْ رجلاً فيما مضى طفلةٌ غيداءُ في حُلّتها
لم يطِشْ قطُّ لها سهمٌ ومن ترمِهِ ، لا ينجُ من رَميتها

ومن أصوات بذل وكانت تغنيه للمأمون :

ألا ، أَرى شيئاً أَلذَّ من الوعدِ ومن املي فيه، وإن كان لا يجدي
ومن غفلةِ الواشي اذا ما اتيتُها ومن زورتي أبياتها خالياً وحدي
ومن ضجةٍ في الملتقى ثم سكتةٍ وكلتاهما عندي، أَلذُّ من الُخلدِ

وقد مرت معنا بعض أبيات من هذه القصيدة التي نظمت في دنانير جارية البرامكة :

هذي دنانير تنساني واذكُرها وكيف تنسى محباً ليس ينساها ؟
أعوذُ بالله من هُجران جاريةٍ أَصبحت من حبها ،اهذي بذكراها
قد أكملَ الحسنُ في تركيب صورتِها فارتجَّ أَسفلُها واهتزَّ أَعلاها
قامت لتمشي فليت الله صوّرني ذاكَ الترابَ الذي مسّتهُ رجلاها
واللهِ واللهِ لو كانت ، اذا برزت نفس المتيَّم ، في كفَّيه ، أَلقاها ؟؟

وهناك الكثير من القصائد الحبية الرقيقة لشعراء العرب الغزلين كعمر وجميل وابن ذريح وعروة والمجنون وكلها مادة جميلة لهذا القصص .

فوائد الحكايات الغنائية

ولا بد من القول ، وقد اشرفنا على الانتهاء من البحث في هذه الحكايات الغنائية ، ان فوائدها عديدة تقسم الى انواع :

١ - **الفائدة التاريخية** : اننـــا مجبرون على قبول الكثير من هذه الحكايات كأصل من اصول التاريخ نستطيع بواسطته ان نؤرخ حيـــاة المغنين والمغنيات وندرس علاقتهم بالكثيرين من ابناء عصرهم من امراء وخلفاء وشعراء وملوك .

٢ - **الفائدة الاجتماعية** : لقد رأينا ان الحياة العباسية المترفة بما فيها من مجون وفسق وعربدة ، قد ارتسمت بارزة في هذه الحكايات الكثيرة التي تعج بالنوادر عن الجواري الحسان، وتطفح بالروايات عن المغنين واجتماعاتهم بمن كانوا يشجعونهم من ملوك وخلفاء وما كان يجري في تلك الاجتماعات من شرب ومجون وخلاعة. زد على ذلك مـــا تقرؤه بين السطور عن عادات القوم في طعامهم وشرابهم وزواجهم ، الى مـــا هنالك من أمور كثيرة تؤلف للمؤرخ صورة دقيقة عن المجتمع العباسي .

٣ - **الفائدة الادبية الفنية** : ليس لهذه الحكايات قيمة قصصية فنية بما لهذه الكلمة من معنى فني حديث . فالحبكة القصصية التي تملـــك على قارىء القصة انفاسه ، لا أثر لها في هذه الحكايات ولا ضير عليها من ذلك وهي انما وضعت ، كما ذكرنا في بدء هذا البحث ، لسرد خبر من الأخبار او رواية حادث من الحوادث . على ان قيمتها الادبية قائمة في لغتها المشرقة وبيانها الناصع وبلاغتها العربية . والقصص الاخباري يشترك في هذه الصفات في جميع الوانه وانواعه . ولهذه الحكايات فائدة أدبية اخرى لا تقل اهمية عما ذكرناه. فلقد مرَّ بنا عشرات الابيات من الشعر العربي الرقيق لم تكن لتوجد لولا وجود المغنين ولولا وجود هذه الحكايات وهي قصائد يحق للأدب العربي ان يفخر بها .

واخيراً أرى في هذه الحكايات مورداً عذباً ، ومنهلاً طيباً لأدباء العرب المحدثين يستلهمونها حكايات جديدة ومواضيع طريفة بل آثاراً أدبية خالدة .

الفصل الثاني

القصص البطولي

١ – نشوءُهُ .

٢ – ملاحم العالم الكبرى .

٣ – ما هو القصص البطولي :
- ١ – تسميته .
- ٢ – مـادته .

٤ – سيرة عنترة :
- ١ – شهرتها
- ٢ – ما هي ؟
- ٣ – مؤلفها
- ٤ – طبعاتها وترجماتها
- ٥ – أقسامها الرئيسية
- ٦ – شخصياتها
  - ا – عنترة
  - ب – عبلة
  - ج – شيبوب
- ٧ – الروح الاسلامي فيها
- ٨ – منزلتها الأدبية
- ٩ – إلياذة العرب .

نشوء القصص البطولي

لكل أمة عريقة في المجد والمدنية تاريخ تستوحيه ، وماض تتطلع اليه ، وابطال تنسج حول اسمائهم هالة من الاحترام والقداسة، تخلدهم في بطون الكتب وعلى الواح القلوب وتمجدهم بما تصوغه حولهم من حكايات أسطورية جميلة تظهر عبقريتهم الحربية وشجاعتهم النادرة مشيدة بما يتحلون به من سامي الاخلاق ورفيع السجايا .

وليس لهذا النوع القصصي البطولي من تاريخ معين يرجع اليه في نشوئه وتكوينه فلقد نشأ مع الانسان الاول ، ولقد حيكت حول الامم القديمة ، تلك الامم التي تحدثت عنها التوراة، عشرات الحكايات الاسطورية. وتناقلتها الالسن جيلاً بعد جيل . وفيها الغريب وفيها الطريف ، وفيها الحقيقة ممزوجة بالوهم والخيال .

ورددت الاجيال صدى هذه الحكايات الوهمية انغاماً حلوة، تارة على شبابات الرعاة يمرحون في رؤوس الجبال الشاهقة وبين بطون الاودية المرعة ، وتارة على أنغام ناي عتيق لبدوي فنان ، يرسل مع نغماته الحزينة انات نفسه الملتاعة وقلبه الملوع .

وخطت البشرية خطوة جديدة نحو العلم والنور فاذا بالرواة ، رواة العلم والادب والدين في الامم يتناقلون هذه الاخبار ويقصّونها حكايات طريفة وروايات منمقة على جمهور من الناس كبير ، يلتف حولهم متلقفاً من شفاههم ، بشغف وانتباه ، العبارة تلو العبارة ، والكلمة تلو الكلمة .

وكان المسرح ، او قل ما سمي بهذا الاسم بعد مئات السنين . فاذا به أداة صالحة لنشر هذا القصص في جمهور الناس واذا بالممثلين ، بما وهبوا من مقدرة في تصريف الكلام وزلاقة في اللسان ، وقوة في التعبير والتأثير ، يحملون الرسالة عن الرواة ويؤدونها على وجهها الكامل لجمهور المتفرجين .

وتتفاعل عناصر الامة وتتعاون بعضها مع بعض ، فتخلق الشاعر الموهوب والفنان العبقري ، فيربط بخيطه السحري ما تشتت من هذه الروايات الكثيرة وينظمها عقداً لؤلؤياً وضاء ويسكب عليها شيئاً من فنه وسحره وروحه ؛ فاذا بهـا ملحمة من ملاحم العالم الخالدة ، تتغنى بمآثر الامة وامجادها ، وتستعرض تاريخها وعظمتها في خيال مبدع سام ولغة أنيقة مشرقة .

تلك كانت طريق هوميروس في الالياذة والاوذيسة وفرجيل في الانياذة ، والفردوسي في الشاهنامه .

ملاحم العالم الكبرى

لجميع أمم العالم التي أثرت في مجرى التاريخ ملاحم معروفة يتغنى بهـا ابناء تلك الامم مباهين ، مفاخرين .

فللهنود المهابهارتا التي يرجع تاريخها الى القرن الخامس عشر او السادس عشر قبل الميلاد وقد ترجمت الى اكثر من لغة اجنبية . كما ترجمهـا وديع البستاني الى اللغة العربية [١] .

ولليونان الالياذة والاوذيسة (حوالي ٨٥٠ قبل الميلاد) وأثرهما في الادب العالمي والفكر الحديث اشهر من ان نشير اليه بكلمة موجزة هنا .

وللرومان الانياذة لفرجيليوس (حوالي ١٩ ق. م) وقد استقى منها دانتي في الكوميديا الالهية .

وللفرنسيين اغنية رولان (القرن الحادي عشر [٢] للميلاد) . وتتشابه في

---

(١) المهبراته – ملحمة هندوية هي كبرى الملاحم العالمية . ترجمها عن السنسكريتية رومش د.ط. عربها شعراً وديع البستاني، نشرتها جمعية متخرجي الجامعة الاميركية في بيروت سنة ١٩٥٢ .

(٢) يقول بعضهم انها الفت سنة ١١٠٠م والبعض الآخر سنة ١٠٨٠ وآخرون سنة ١١٢٥م.
راجع مقدمة كتاب Chanson de Roland - Joseph Bédier, Paris 1937.

بعض تفاصيلها بسيرة عنترة كما سنرى. وهي صلة وصل بين الادب الملحمي القديم والملاحم الحديثة .

وللطليان الكوميديا الالهية لدانتي (١٢٦٥ — ١٣٢١) وهي اكبر أثر أدبي ظهر في القرون الوسطى . وقد استوحى الطليان اغنية رولان فكان لهم ملاحم رومانطيقية كثيرة منها :

١ — مورغانتِ ماغيور ظهرت سنة ١٤٨١ وهي للوكي بولسي .

Luigi Pulci - Marganti Maggiore .

٢ — اورلاندو الخالد ظهرت سنة ١٤٨٦ وهي لِ م. م. بواردو .

M. M. Boiardo - Orlando Immamorato.

٣ - مامبريانو سنة ١٤٩٧ تأليف فرنسيسكو بالو .

Francesco Bello - Mambriano.

٤ — اورلاندو الغاضب للشاعر اريستو .

Ariosto - Orlando Furioso.

وهو من شعراء النهضة المعروفين وملحمته من اشهر ملاحم المتأخرين ظهرت في سنة ١٥١٦ .

٥ — ملحمة اورشليم المخلصة لتاسّو .

Torquata Tasso - Jérusalem délivré .

ويعدها بعضهم افخم ملاحم الايطاليين على الاطلاق .

وللاسبان السِّيد وهي في مقدمة ملاحم القرون الوسطى كتبت بين سنة ١١١٥ و ١١٧٥ . ولهم ايضاً في الادب الحديث (الاروكانا) (١٥٦٩ — ١٥٩٠) للشاعر زونيجا .

Zuniga - Araucana.

وهي اول عمل أدبي ذي قيمة كما يلاحظ بعض النقاد .

وللانكليز (الفردوس المفقود) للشاعر ملتون المتوفى سنة ١٦٧٤م وهي

ملحمة دينية تصف تكوين الخليقة، توصل ملتون ان يضاهي بها هوميروس وفرجليوس .
وللالمان هيلدبراند Hildebrand ولهم (انشودة الظلام) Niebelungen Lied وقد جمع اشعارها شاعر جرماني مجهول في القرن الثاني عشر . وكانت موضوعاً خصباً لخيال الموسيقيين الالمان فاستوحوها موضوعات موسيقية هامة وفاجنر هو في مقدمة هؤلاء الفنانين .

وللفرس الشاهنامة للفردوسي وهي نشيد القوم المفضل كما مر معنا .

ونلاحظ ان الملاحم تقسم الى انواع منها القديمة الكلاسيكية ومنها الحديثة الرومانطيقية . منها الشعرية وهي كثيرة، ومنها النثرية وعددها ضئيل جداً مثل :

دون كيخوت لسرفانتي الاسباني (+ سنة ١٦١٦) .

والديكاميرون او الايام العشرة لبوكاتشيو الايطالي (سنة ١٣٧٤) .

ولقد اهتم بالملاحم الكتاب الاقدمون من يونان ورومان كما انه قد ظهرت مدرسة فلسفية عُنيت بهذا النوع من الادب على رأسها اكزنافانوس وبارمنيدس وامباذوقليس [1] . هذه هي اهم ملاحم العالم . وهي تختلف في انواعها وقيمتها الفنيّة الادبية وموضوعاتها باختلاف المؤلفين والعصور والازمنة التي وضعت فيها . ولم نذكرها هنا الا لنظهر اهمية هذا اللون الادبي في العالم ونحن نعلم ان العرب لم يقصدوه بالذات ولم يخلفوا فيه آثاراً تذكر لهم كما مر معنا في مدخل هذا الكتاب .

القصص البطولي

١ — تعريفه ٢ — تسميته ٣ مادّته

تعريفه : فماذا عنينا اذاً بالقصص البطولي العربي ؟ وما هي مخلفات العرب في هذا الفن الادبي ؟ وهل تسترعي الاهتمام والانتباه والى اي حد ؟

---

(١) نلخص هذه المعلومات عن دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة Epic .

ان معظم ما وصلنا من هذه الحكايات البطولية قد دون حوالي أواخر العصر العباسي الثالث وهي مجهولة المؤلف، ضعيفة الشخصية ، هزيلة اللغة والاسلوب، دونت لارضاء الطبقة العامة من الجمهور ليس لها لون ادبي فني ولا رونق. وهي، وإن كانت تصور المجتمع العربي من نواح عديدة في اعصره القديمة ، فالركاكة والاسفاف ، وما فيها من خلط تاريخي في سرد الحوادث والوقائع ، يحملنا على القول انها وضعت للتسلية في الدرجة الاولى .

اما لماذا اطلقنا عليها اسم القصص البطولي فلانها تدور في مواضيعها المتعددة حول بطل او ابطال معروفين من ابطال العرب ، كما انهـــا تصف ايام العرب ووقائعهم المشهورة، معددة الشخصيات الكثيرة التي اشتهرت في هذه الحروب .

هذا ما حملنا على تسميتها بالقصص البطولي. فهي ان لم تبلغ درجة سامية من فن الملحمة وآدابها كأكثر الملاحم التي تقدم ذكرها ، فهي تقوم ، مثل تلك الملاحم على تمجيد البطولة والتغني بذكر الوقائع وصفات الرجولة والشجاعة . ومما لا شك فيه ان تلك الحوادث المتشابكة وتلك الوقائع التي تؤلف موضوع هذه الحكايات البطولية، لو اتيح لها شاعر عربي مرهف الشعور رقيق الاحساس عميق الخيال او كاتب موهوب يعرف كيف يصل بين اجزائها المتقطعة ساكباً فيها روحاً من روحه ونغماً من انغامه لكان للعرب ملاحم لا تقل شأنا وخلوداً عن الملاحم المذكورة .

ما هي هذه الحكايات ؟

والى القارىء بعض هذه الحكايات التي تدخل في هذا الباب . وسنذكرها واحدة واحدة دون نقف عندها طويلا لسببين :

اولاً : ان بعض هذه الحكايات ليس مطبوعاً كما سنرى . وبعض المطبوع منها غير متيسر وجوده في البلدان العربية .

ثانياً : ان هذه الحكايات تكاد تكون في مجموعها نسخة واحدة بعضها عن بعض ، في الموضوع والاسلوب .

على اننا خصصنا عنترة بدراسة خاصة لانهـــا تمثل ، في عرفنا ، القصص البطولي اتم تمثيل . فهي اكمل مثال وصلنا من هذا النوع الادبي ويعدها بعض النقاد للعرب بمثابة الالياذة لليونان [1] .

اما الحكايات البطولية التي اشرنا اليها فهذا بعضها :

١ ـ قصة شيبان مع كسرى انو شروان :

مطبوعة في بمباي . لم نستطع ان نحصل على نسخة منها . وصفها زيدان في الجزء الثاني من تاريخ آداب اللغة العربية[2] فقال ما فحواه : انها قصة تاريخية قريبة من الرواية الخيالية لان مؤلفها توسع بحوادثها التاريخية بتصرف . وتدور هذه القصة عـــلى حروب شيبان وكسرى انو شروان وسببها . وهي نثرية ويتخلل حوادثها قصائد يظهر عليها انها مصطنعة حديثاً فضلاً عن بعض القصائد الحقيقية التي نظمها ابطال القصة . وليس لهذه القصة مؤلف معروف كاكثر هذه الحكايات ، انما هي مروية عن بشر بن مروان الاسدي عن ابن نافع التميمي .

٢ ـ قصة بكر وتغلب :

مطبوعة في بمباي ايضاً سنة ١٣٠٥هـ في ١٢٠ صفحة لم نحصل عليها فنعطي فيها رأياً شخصياً وهي قصة تاريخية اكثر منها رواية خيالية . تنسب روايتها لمحمد بن اسحق ، صاحب السيرة النبوية . ذكر فيهـــا اخبار كليب وجساس وضمنها قصائد حماسية اراد بها اظهار شهامة العرب وفروسيتهم وخاصة ربيعة .

٣ ـ قصة البراق لعمر بن شبة : + سنة ٢٦٢ هـ .

وهي قصة تاريخية موجودة ضمن مجموعة خطية في المكتبة الخديوية في مصر اسمها (الجمهرة) . والغريب ان ابن النديم في ترجمته لابن شبة ذكر له اكثر من

---

(١) زيدان ـ الهلال مج ٥ : ٧٣٠ والزيات ـ تاريخ الادب العربي ص : ٢٤٩٠ و Huart في كتابه : Littérature Arabe ص : ٣٦٧ .

(٢) زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص : ٢٩٤ .

عشرين كتاباً ولم يذكر بينها اسم الجمهرة [1] على ان زيدان وقف على هذا المخطوط وهو يشتمل على اخبار العرب وشيء من ايامهم وحروبهم قبل الاسلام مع الفرس والروم واليمن . اما البرّاق فهو بطل هذه القصة ، وهو شاعر قديم من ربيعة من اقرباء المهلهل وكليب . وليلى بنت لكيز هي ابنة عم البراق ولها خبر معه تداولته الالسن والرواة وتوسعوا فيه حتى اصبح مجموعة اخبار عن وقائع حربية ضمنها ابن شبة كتاب الجمهرة في خمس قصص متسلسلة :

اولاً: الحرب بين ربيعة وطي، ثم بين ربيعة وطي وقضاعة، إذ دخل البراق على رأس ربيعة وجرت بين الطائفتين ثماني وقائع .

ثانياً : قصة قطيعة مضر وربيعة .

ثالثاً : قصة سبي ليلى بنت لكيز من وائل الى بلاد العجم والحروب التي اثيرت بين العرب والعجم والروم بسبب ذلك السبي. والبطل هو دائماً البرّاق .

رابعاً: قصة الحرب او الحروب بين وائل واليمنيين لقتل كليب احد الاسرى وفي هذه القصة يدخل كليب والمهلهل .

خامساً : قصة البسوس .

وهي قصة قائمة بنفسها ، حوادثها عنترية تكثر فيها الحماسات والمبارزات حتى يخيل للقارىء انه يطالع عنترة . هذا ما يقوله زيدان عن هذه القصة التاريخية [2] . ثم يضيف الى ذلك ان هذه القصة لو دونت في العصر الذي دوّنت فيه سيرة عنترة لصارت مثلها . ولكنها دونت قبل عنترة بقرن وبعض القرن . على ان لغة (البراق) اصح واقرب الى صدر الاسلام واقل مبالغة من لغة عنترة .

---

(١) ابن النديم – الفهرست ص: ١١٢ .

(٢) زيدان – تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ : ٢٩٣ .

٤ ـ قصة سيف بن ذي يزن :

يرجع تدوينها الى اواخر القرن الرابع عشر الميلادي . وهي متأثرة ، الى حد ، بحكايات الف ليلة وليلة . تدور حوادثها في مصر القاهرة وهي حوادث تاريخية حربية جرت بين المسلمين والاحباش الوثنيين . وفيها كثير من الحوادث الخرافية ابطالها الجن والعفاريت والارواح الساحرة .

موضوعها : سيف بن ذي يزن هو احد ملوك اليمن ولد من ام جارية كانت كانت قد سممت زوجها قبل ولادة سيف . فلما ولد سيف في الصحراء اخذت تغذيه ظبية بطريقة عجيبة . ويعثر عليه الصيادون فيقتادونه الى بلاد الحبشة حيث يشب هناك بطلاً صنديداً ويلمع اسمه في الحروب الكثيرة والمعامع الحامية التي تدور رحاها تارة بين سيف والمختطف ، الملك الكافر ، وتارة بينه وبين سعدون للحصول على كتاب (النيل) الذي وضعوه مهراً للزواج بشامة . وبعد حوادث عديدة ومجازفات عجيبة تلعب فيها الجن والسحرة دوراً كبيراً يعود سيف الى بلاده متعباً « بعد ان احيا الارض بالايمان . وحظي من الله بالثواب والاحسان . ويعتزل الناس في جبل خال تاركاً الحكم لولده مصر [١] » .

يقول بارت [٢] : « ان هذه القصة تعطينا صورة صادقة عن عقلية الشعب المسلم في مصر في أواخر القرون المظلمة وتؤلف ، في الوقت نفسه ، مصدراً قيماً لتاريخ الاسلام بمعناه الصحيح » .

ويدعي كامل الكيلاني في قصته حي بن يقظان [٣] « ان صاحب قصة سيف ابن ذي يزن اقتبس فكرة ارضاع الظبية لسيف بطل قصته عن حي بن يقظان ، ثم ارتقى من الظبية الى جنية تعطف عليه وترضعه » .

---

(١) سيرة فارس اليمن الملك سيف بن ذي يزن ـ مج ٤ : ١٢٠٨

(٢) Encyclopedy of Islam Vol : IV pp. 72.

(٣) كامل الكيلاني ـ حي بن يقظان ـ مطبعة المعارف مصر سنة ١٩٣٥ ص : ٨٢ .

ويذكر المؤرخ الفرنسي هيـــار في كتابه تاريخ الادب العربي [1] ترجمة فرنسية لهـذه السيرة بقلم عـلي بك ظهرت في القسطنطينية سنة ١٨٤٧ م باسم (السلطان سيف ذو يزن) .

٥ - سيرة بني هلال

العنصر التاريخي في القصة :

بنو هلال قبيلة عربية عرفت في الجاهلية بتقديس الكعبة. وعاشوا في العصر العباسي وهمهم النهب والسلب . فجرت بينهم وبين الفاطميين حروب كثيرة حملتهم على الرحيل الى بلاد المغرب .

هـــذا هو العنصر التاريخي في سيرة بني هلال . وجاء القصاص والشعراء والرواة فحاكوا حول هذه الحروب الاساطير الكثيرة واضفوا عليها شيئاً من خيالهم وقبساً من روحهم فجاءت اداة صالحة ، خصبة ، الحكايات بطولية حبية أو بالاحرى لملحمة عربية تكاد تكون فريدة في الادب العربي .

أقسام السيرة وموضوعها :

وصلت الينا سيرة بني هلال في طبعتين منقحتين مختلفتين .

١ - السيرة الشامية .

٢ - السيرة الحجازية .

وهي تقسم الى ثلاث مراحل : في المرحلة الاولى تاريخ عـام ووصف شامل لحياة بني هلال في بلاد السرو وعباده [2] حيث يولد للملك المنذر ابنان هما جابر وجُبير جدا الهلاليين .

---

(١) Huart - Littérature Arabe, Paris, 1902 - p: 401.

(٢) السرا او سرو : مدينة باذربيجان وهي بين اردبيل وتبريز خربها التتر سنة ٦١٧ هـ . - راجع عنها معجم البلدان مج ٣ : ٦٤ .

المرحلة الثانية : حكاية بني هـلال وهم يرحلون الى بلاد نجد لجوع اصابهم الامير غانم وابنه دياب لهم استقبالاً حسناً .

المرحلة الثالثة : تغريبة بني هلال او رحلة بني هلال الى بلاد المغرب، ووصف حروبهم مع الزناتي خليفة سلطان تونس سنة ٤٦٠ هـ ، ١٠٦٨م . وتتشابك في هذا القسم الحوادث بعضها في بعض ، وتكثر الاسماء : اسماء القبائل المتحاربة ، واسماء الابطال المتحاربين ، وتختلط الحقيقة بالخيال ، والتاريخ بالاسطورة ، وتقوم الحروب في سبيل الاستيلاء على العروش السبعة والأربعة عشر قصراً في بلاد المغرب مما يثير في نفس القاريء حب الاستطلاع والتشوق لمتابعة قراءة الكتاب .

مصادر السيرة

لا بد لنا ونحن ندرس سيرة بني هلال ، من الاشارة الى المصادر القديمة التي استند عليها جامع هذه الحكايات او جامعوها ، وذكر كلمة عن العلماء الغربيين والشرقيين الذين درسوا هـذه الحكايات دراسة علمية أدبية فأدّوا للأدب العربي خدمة تذكر لهم ورفعوا قيمة هـذا الأدب الشعبي في عيون أبناء الغرب والشرق .

قلنا ان مرور بني هلال في افريقيا وحروبهم مع الفاطميين في القرن الحادي عشر كان حادثاً تاريخياً له خطره وله أثره في نفوس الشعراء والقصاص والرواة في ذلك الزمن فاستغلوه استغلالاً أدبياً فنياً ونظموا فيه القصائد ورووا عنه الحكايات . ولقد حفظ ابن خلدون بعض هذه الحكايات وشيئاً من القصائد التي استندت عليها السيرة ؛ فكان ابن خلدون اقدم مصدر استند عليه جامعو هـذه الحكايات واستقوا منه (١) .

اما ابن الاثير (+ ٦٣٠ هـ) وغيره من المؤرخين العرب فلم يذكروا عن بني هـلال سوى تاريخهم وعلاقتهم بغيرهم من الشعوب التي حاربوها (١) . ولعل

---

(١) Huart p : 398 .

المستشرقين هم اول الذين اثاروا بحثاً علمياً في مثل هذه الحكايات كما تقدم . فلقد اصدر المستشرق ألورد Ahlwardt كتالوج المخطوطات العربية في مكتبة برلين وذلك سنة ١٨٩٦م يلخص فيه كثيراً من الحكايات العربية ، نحو ١٧٣ مخطوطة من رقم ٩١٨٨ - ٩٣٦١ ، ومنهـــا سيرة بني هلال وهي تشغل من الكتاب محلا كبيراً [١] .

وكتب المستشرق هارتمن سنة ١٨٩٨ م مقـــالاً باللغة الالمـانية بعنوان : (حكايات بني هلال) أشاد فيه بقيمة هذا الأدب الشعبي ومادته السخية ودرس المصادر الاساسية التي استوحت منها هذه الحكايات « البطولية الحبية [٢] » .

ولقد سبق هذين المستشرقين الاستاذ Basset ببحثه القيم بعنوان :

Un Episode d'une Chanson de Geste arabe. وقـد صـدر سنة ١٨٨٥ م والذي يقول فيه هيار صاحب كتاب الادب العربي ان كتاب Basset ذو قيمة من حيث المصادر .

زد على ذلك ان Basset هو أول من عبّد الطريق لدراسة هذه الحكايات الشعبية عن بني هلال .

وهناك الفرد بل Bel المستشرق الفرنسي وقد كتب مقالاً مطولاً قيماً بعنوان « الجازعة » Djazya استطعنا ان نطلع عليه في المجلة الأسيوية [٣] وان نقتبس منه معلومات كثيرة عن هذه السيرة .

ويجد القارىء جدولاً مفصلا بكل هذه المصادر التي ذكرناها وبكثير غيرها في كتاب Bibliographie Des Ouvrages Arabes ببلوغرافيا المؤلفات العربية لمؤلفه فيكتور شوفان[٤] كما انه يعدد طبعاتها الكثيرة المختلفة مع تواريخها .

---

(١) المصدر السابق ص : ٣٩٨ .

(٢) Journal Asiatique, 9me série p : 322.

(٣) Journal Asiatique, 9me Série XIX pp : 239 et sep.

(٤) Bibliographie des Ouvrages Arabes - Tome III PP128 et seq.

سيرة بني هلال والشاهنامة

يرى المستشرق هيار[1] تشابهاً في بعض مشاهد الشاهنامة وسيرة بني هلال وذلك عندما يلتقي ابو زيد الهلالي بالامير رزق ويصوب اليه رمحه قاصداً قتله وكل منهما يجهل الآخر حتى تأتي أم أبي زيد وتشرح لابنها وخامة عمله فيما لو كان أقدم على قتل الامير الذي ليس هو في الحقيقة غير أبيه ! ان هذا المشهد ، في زعم هيار ، شبيه بمشهد آخر في شاهنامة الفردوسي عندما يلتقي رستم بابنه سحراب فيقتل الاب ابنه دون ان يعرف الواحد منهما الآخر [2] ، الا بعد ان يقع المقدر .

والذي نقوله : ان في سيرة بني هلال وفي غيرها من هذه الحكايات البطولية كثيراً من المشاهد التي قد تتشابه ببعض المشاهد في الملاحم العالمية الكبرى ولكنها تبقى قليلة لا تخوّل الباحث الحق في اصدار حكم نهائي في الموضوع . على اننا نعتقد ان مثل هذا الحكم لا يحق اصداره الا بعد دراسة خاصة عميقة ، ومقارنة صحيحة بين هذه الحكايات وبين الملاحم العالمية الاخرى .

ولعل المستشرق الالماني برنهارد هلر في كتابه عن سيرة عنترة في أدب المقارنة هو المستشرق الوحيد الذي وفى الموضوع حقه من الدرس . وسنعرض لكتابه في دراستنا عن سيرة عنترة [3] .

---

(١) كلمان هيار احد المستشرقين الفرنسيين وكان استاذ اللغة العربية في مدرسة اللغات الحية في باريس ، ومؤلف كتاب تاريخ آداب اللغة العربية وتاريخ بغداد الحديث . راجع عنه زيدان — تاريخ آداب اللغة العربية ٤ : ١٧٩ .

(٢) Cl. Huart - Littérature Arabe p: 398.

(٣) راجع في الموضوع : B. Heller - Die Bedenteng Des Arabishen, Antar Romanos Fûr Die Nergleichend Litteraturkund. Leipzig 1931.

سيرة عنترة بن شداد

١ – شهرتها

٢ – ما هي ؟

٣ – مؤلفها

٤ – طبعاتها وترجماتها

٥ – اقسامها الرئيسية

٦ – شخصياتها
- ا – عنترة
- ب – عبلة
- ج – شيبوب

٧ – الروح الاسلامي فيها

٨ – منزلتها الادبية

٩ – الياذة العرب

سيرة عنترة بن شداد

شهرتها :

قال اسكندر آغا ابكاريوس في كتابه «منية النفس في اشعار عنتر عبس[1]» متحدثاً عن شهرة سيرة عنترة وعن شغف الجمهور بها :

« بلغنا عن رجل من اهل حمص كان يحضر كل ليلة الى حلقة القصاص يسمع فصلاً من قصة عنترة . ففي احدى الليالي تأخر في حانوته الى ما بعد المغرب ، فحضر الى هناك بدون عشاء . وكان في تلك الليلة سياق حرب عنتر مع كسرى، فقرأ القصّاص الى ان وقع عنتر في الاسر عند الفرس ، فحبسوه ووضعوا القيد في رجله . وهناك قطع الكلام وانفضّت النـاس ، فدخل على الرجل امر عظيم واسودت الدنيـا في عينيه وذهب الى بيته حزيناً كئيباً . فقدمت له زوجته الطعام فرفس المائدة برجله ، فتكسرت الصحون وانصب مـا فيها على فرش البيت ، وشتم المرأة شتماً قبيحاً فصادمته في الكلام فضربهـا ضرباً شديداً ، وخرج يدور في الاسواق ، وهو لا يقر له قرار . ثم غلب عليه الحال فذهب الى بيت القصاص فوجده نائماً فايقظه وقال له : قد وضعت الرجل في السجن مقيّداً واتيت مستريح البـال ! فارجوك ان تكمل لي هذا السياق الى ان تخرجه من السجن،فانني لا اقدر ان أنام ولا يطيب عيشي ما دام على هذه الحال، وانظر ما تجمعه من الجمهور في ليلتك فانا اعطيك اياه الآن . فاخذ القصاص الكتاب وقرأ له باقي السياق الى ان خرج عنترة من السجن فقـال له : اقرّ الله عينيك وأراح بالك . الآن طـابت نفسي وزالت همومي فخذ هذه الدراهم ولك الفضل . ثم انصرف الى بيته مسروراً وطلب الطعام واعتذر لامرأته بأن القصاص وضع له القيد في رجل عنتر وهي جاءته بالطعام ليأكل ؛ فكيف يمكنه ان يذوق طعاماً وعنتر محبوس مقيد ؟ قال : وامـا الآن فقد ذهبت الى بيت القصـاص وقرأ لي الحديث الى ان اخرجه من السجن والحمد لله ، قد طابت نفسي ، فهاتي ما عندك من الطعام واعذريني عما فرط مني . »

---

(١) اسكندر آغا أبكاريوس – منية النفس في اشعار عنتر عبس ص: ٥ ـ ٦.

فهذه الحكاية ، على بساطتها وسذاجتها تبين شغف العامة من الناس بسيرة عنترة وتعلقها الشديد بجميع تفاصيلها . وسنرى ، بعد ان ندرس هذه السيرة ، بشيء من التدقيق والتفصيل ، ان هذا التقدير لم يقتصر على العامة بل تعداها الى الخاصة من الناس ، فالى الادباء والمتأدبين فالمستشرقين . لقد اعاروا هذه السيرة اهتمامهم الشديد وكتبوا عنها الفصول الضافية وعلّقوا عليها التعاليق الكثيرة حتى ان بعضهم الف فيها كتباً قائمة بذاتها . والحقيقة ان سيرة عنترة تستحق مثل هذه العناية من قبل رجال البحث والأدب لانها تمثل قصص الفروسية عن العرب ، اصدق تمثيل . وهي اطول الحكايات العربية البطولية واشرفها مقصداً زد على ذلك ان بطلها هو عنترة الفارس الشاعر ،الذي ملأ الآفاق صيته وطبقت العالم شهرته .

لذلك وجب على دارس القصص البطولي عند العرب ان يتناول هذه السيرة فيدرسها درساً دقيقاً مقارناً ، مبيناً منزلتها القصصية الأدبية بين الحكايات الشعبية العربية وبين مثيلاتها من الحكايات الغربية . ولست انكر على القارىء صعوبة هذا الدرس على من كان في حالتي تنقصه اكثر المصادر الاجنبية عن هذه السيرة وهي مصادر لها اهميتها ولها اعتبارها . كذلك ليس غرض رسالتي هذه البحث في نوع واحد من انواع القصص كما ذكرت سابقاً . وليست سيرة عنترة ، على منزلتها الرفيعة في القصص البطولي ، الا لوناً واحداً من هذه الالوان الادبية المتعددة . وعندي انها تستحق دراسة علمية قائمة بذاتها ، ليس هذا البحث الذي نقدمه للقارىء الا مدخلاً لها وتمهيداً .

ما هي سيرة عنترة ؟

هي اعظم الحكايات العربية البطولية وهي تتناول حياة العرب في العصر الجاهلي ، فتصورها لنا من جميع وجوهها ، وتُطلعُنا على عادات العربي في ذلك الزمن وايامه وشجاعته وكرمه وحبه ووفائه وتضحيته وحُبهِ الضيف وحسن مراعاته الجوار وما شاكل هذه الصفات التي اشتهر بها العرب .

وهي تقوم في أساسها على ولادة عنترة ، اشهر ابطال الجاهلية واحد شعرائها المعدودين من زبيبة الجارية الحبشيّة السوداء وكيف ان هذا العبد الاسود ، رغم ضعة نسبه من جهة امه ، ورغم تقديس ألعرب الجـــاهليين عنصر الدم في ذلك الوقت ، استطاع ان يشق طريقه الى المجد والعظمة وان يربح رضى ابنة عمه عبلة ويتزوج منها ، متكلاً على سيفه وبطولته من ناحية ، وعلى فصاحته وشاعريته من ناحية اخرى . فهي في ذلك ، رواية حماسية غرامية ذات مغزى تظهر لنا ، ببروزٍ وجلاء ، عمــل الارادة القوية والشجاعة المندفعة ، والحب الصحيح . ان رجل القلب في سيرة عنترة استطاع ، رغم الاهــــانات العديدة التي صُبت على رأسه ، ورغم الصعوبات الخارقة التي اعترضته في حياته ، ورغم العراقيل الممكنة وغير الممكنة التي خلقها له خصومه ليوقعوه ، استطاع رغم كل ذلك ، ان يقفَ صامداً امام هذه المصائب وان يتربع هانئاً على عرش ذهبي من المجد والسؤدد . وهذا هو الغرض الاساسي المقصود من هذه الحكاية !

مؤلفها :

اختلف العلماء في اسم مؤلفها كما اختلفوا في اسم مؤلفي اكثر هذا النوع من القصص. وحاول الكثيرون ممن بحث في سيرة عنترة ان يستنتجوا من دراساتهم رأياً معروفاً يركنون اليه ويطمئنون فلم يستطيعوا .

هناك آراء مختلفة متعددة لا تخرج عن حيّز التخمين والظن يعزو بعضها سيرة عنترة للاصمعي احد رواة القرن الثاني للهجرة (٧٣٩ – ٨٣١م) ولكن المتأكد منه ان الاصمعي ليس هو الراوية الوحيد الذي يرد اسمه في بعض السياقـات من القصة . فهناك اسم ابي عبيدة وجهينة الاخبـار ونجد بن هشام وكلهم من الرواة العرب المعروفين .

ويدعي بعض المؤرخين ان اسم الاصمعي موضوع للتستر وراءه[١] وهناك

---

(١) Huart Cl - Littérature Arabe p: 396.

رأي آخر يقول ان واضع سيرة عنترة هو يوسف بن اسماعيل المصري (٩٧٥م – ٩٩٦م) وهو من الرجال الذين كان لهم اتصال بباب العزيز بالله (الخليفة الفاطمي في القرن الرابع للهجرة – اواخر القرن العاشر للميلاد) . قيل انه حدثت ريبة في دار الخليفة لهجت الناس بها في المنازل والاسواق حتى ساء الخليفة ذلك فاشار على الشيخ يوسف المذكور ان يطرف الناس بما عساه ان يشغلهم عن هذا الحديث. وكان الشيخ يوسف هذا واسع الرواية في اخبـــار العرب ، كثير النوادر والاحاديث وكان قد اخذ روايات شتى عن ابي عبيدة ونجد بن هشام وجهينة الاخبار والاصمعي وغيرهم من الرواة . فأخذ يكتب قصة عنترة ويوزعهـا على الناس فاعجبوا بهـا واشتغلوا عن سواها . وكان من تلطفه في التشويق ان قسّم الكتاب الى اجزاء عديدة اوصلها بعضهم الى ٧٢ جزءاً كان يقطع الكلام في كل جزء عند معظم الامر حتى يتطلب المطالع الجزء التـــالي[١] . فيتضح من هذا الكلام ان الاصمعي لم يكن مؤلف القصة كلهـا لان يوسف هذا لم ينقل عنه الا بعض حوادثها اما البعض الآخر فقد نقله عن رواة آخرين غيره .

ولقد تنبه الى تعدد هذه الآراء في مؤلف سيرة عنترة بعض المستشرقين فاشار احدهم الى تعذر معرفة مؤلفها والزمن الذي ألفت فيه[٢] مما حمل المستشرق هامر بيرجستال على كتابة مقال مطول في الجريدة الاسيوية يُدلي فيه برأي جديد في تأليف عنترة يدعي فيه ، ان القرن الاول الهجري قـــد عرف القُصاص الذين استغلوا عنترة ابا الفوارس وحوادثه الخارقة ، ولكن سيرة عنترة لم توضع ولم تسمّ بهذا الاسم الا في القرن السادس الهجري . وضعها احد اطبـــاء وشعراء العراق المشهورين ابو المؤيد ابن الصايغ الملقب بالعنتري[٣] . امـا المصدر الذي يستند عليه هذا المستشرق فهو قول لابن ابي اصيبعه في كتابه « عيون الانباء في طبقات الاطباء » جاء فيه :

---

(١) زيدان – الهلال مج ٥ : ٧٣٠

(٢) Journal Asiatique tome V, 1838 p: 383.

(٣) Journal Asiatique tome V, 1838 P: 386.

« ... ان العنتري كان في اول امره يكتب احـــاديث عنتر العبسي فصار مشهوراً بنسبته اليه[1] » وابن الصايغ هذا عاش في اواسط القرن السادس الهجري فهو من ادباء القرن الثاني عشر الميلادي . ويفاخر كاتب المقال بانه كان اول من ادخل الى اوروبا مخطوطاً كاملاً عن سيرة عنترة وذلك لستٍ وثلاثين سنة خلت فمن حقه ان يفاخر بانه اول من يشير الى مؤلفها الحقيقي .

والذي نراه ان هذا القول لا يختلف في أساسه من حيث تعيين مؤلف السيرة عما سبقه من الاقوال ، وان كان ذا نصيب اكبر من الوجاهة والتقدير. فهل من الدليل الجازم القاطع ان يقول احد المؤرخين بان ابن الصايغ، وقد اشتهر بعلومه الطبية في القرن الثاني عشر ، كان يكتب اول امره ، احـــاديث عنترة ، حتى تنسب اليه قصة كاملة كسيرة عنترة ؟

ان الادلة الخارجية للجزم في هذا الامر تنقصنا؛ فلم يبق امامنا غـير تحري النص وهذا يحتاج الى دراسة عميقة لاسلوب السيرة ومقابلته باسلوب هؤلاء الرواة الذين تتكرر اسماؤهم على انهم مؤلفو القصة، او مقابلته باسلوب ذاك العصر الذي كانوا يعيشون فيه .

على ان الباحث ، يستطيع ، بشيء كبير من السهولة ، ان يلاحظ ما في السيرة من اخطاء نحوية وصرفية ، وما فيها من ضعف في اسلوبها ، يبلغ بهـا بعض الاحيان ، حد الاسفاف ، مما يحملنا على الحكم ان مثل هـــذا الاسلوب يختلف اختلافاً بيناً عن اسلوب الاصمعي واصحابه الرواة الآخرين .

والحقيقة التي تبدو لنا ان سيرة عنترة كاخواتها التي مرّ ذكرها لم يكن مؤلفها واحدا بل تداولتها عدة السن ودوّنت حوادثها عدة أقلام ودخلهـا من الخلط التاريخي والهفوات الكثيرة ما ينفي عنها نسبتها الى مؤلف واحد معروف .

وما قلناه في مطلع هــذا الفصل من ان أكثر هذه الحكايات البطولية مجهولة

---

(١) ابن ابي اصيبعة ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء سنة ١٨٨٢ مصر ج١ : ٢٩٠

لمؤلف ، نقوله ولكن بشيء من الحذر ، عن سيرة عنترة . ذلك ان هذه السيرة، وان تداولتها ايدٍ كثيرة ولحقت بها زيادات عديدة حتى اصبحت على ما هي عليه من التضخم والاسفاف ، تبقى ذات علاقة وثيقة بيوسف بن اسماعيل وبابن الصايغ وربما بغيرهم من الرواة الذين ذكرنا اسماءهم سابقاً .

وليس من المستبعد ان يكون جميع هؤلاء المذكورين وغيرهم كثيرون ممن لم تصلنا اسماؤهم قد أسهموا في وصول هذه القصة الينا على هذه الصورة، لان حوادث عنترة ، الشاعر البطل ، قد استغلها الرواة القصاص استغلالاً أدبياً عظيماً ، فجاء الادباء من بعدهم يجمعون ما تشتت من هذه الحكايات. وكان لخيال القصاص في تزويق هذه الحوادث وترتيبها وعرضها مجال فسيح ؛ فوصلت الينا وهي في حالتها الحاضرة من التشويش في التأليف وسرد الوقائع سرداً ينقصه الوحدة في التفكير والانسجام المتزن في التعبير .

والمرجح ان سيرة عنترة ليست ابعد من عصر الصليبيين ، دوّنت حوادثها في اواخر القرن الرابع الهجري حوالي سنة ٣٨٠ هـ.

طبعاتها وترجماتها

الحقيقة ان سيرة عنترة تختلف في روايتها اختلافاً قد لا يكون جوهرياً ولكنه يجعل منها ثلاث سير بدلاً من واحدة نسميها فيما يلي :

١ - السيرة الحجازية وهي اصول هذه الروايات .

٢ - السيرة الشامية .

٣ - السيرة العراقية وهي لا تختلف اختلافاً بيّناً عن السيرة الشامية. لذلك يمكننا القول ان سيرة عنترة معروفة في سيرتين :

١ - السيرة الحجازية وهي كاملة .

٢ – السيرة الشامية وهي مختصرة وقد تكون تتشابه تشابهاً كبيراً بالسيرة العراقية كما ذكرنا [١] .

ولها طبعات عديدة نشير الى أقدمها ونحيل القارىء الى المصادر التي تعدّد تلك الطبعات .

١ – طبعت في بيروت (١٨٦٩ – ١٨٧١) في ١٥٤ كتاباً في ٩ مجلدات .

٢ – بيروت – المطبعة الأدبية (١٨٨٣ – ١٨٨٥) في ١٥٥ كتاباً في ستة مجلدات وهذه هي الطبعة التي اعتمدناها في رسالتنا .

٣ – القاهرة (١٨٨٨ – ١٨٩٣) في ٣٢ جزءاً وهذه الطبعة تعتمد السيرة الحجازية .

٤ – وقد اخذ بطبعها سليمان الحرائري والاب بُركاد Bourgade في ذيل جريدة (برجيس باريس) سنة ١٨٦٥ و ١٨٦٦ ولكن لم يظهر منها الا جزءان من اثني عشر جزءاً [٢] .

ويعدد شوفان في كتابه المذكور (مآخذ الكتب العربية) طبعاتها وترجماتها بالتفصيل الوافي فمن أراد الاطلاع عليها فليرجع اليه [٣] .

ترجماتها

لا بد من الاشارة الى العدد الكبير من المستشرقين وغيرهم من ادباء الغرب الذين تصدوا لهذه الحكايات البطولية التي تروى عن عنترة . فمنهم من اخذ يبحث فيها بحثاً أدبياً تحليلياً مقارناً ومنهم من دفعه اعجابه بها الى ترجمتها او

---

(١) M,Hartmann - The Encyclopædia of Islam Vol. I p:362.

(١) فؤاد افرام البستاني المشرق مج ٢٧ : ٦٤١ .

(٢) Chauvin -Bibliographie des Ouvrages Arabes Vol. III p: 113.

ترجمة قسم منها . نذكر من المستشرقين الفرنسيين الذين عملوا على ترجمتهـا او ترجمة بعضها :

١ – كارْدَنْ دين كاردون Cardin de Cardonne

٢ – دي برسفال Du Perceval

٣ – شربونو Cherbonneau

٤ – دوغا Dugat

٥ – دوفيك Devic

وللشاعر الفرنسي المشهور الفونس دي لا مارتين اعجاب خاص بسيرة عنترة فلقد اطلع عليها ، على ما يظهر ، في زيارته للشرق وخصها ببحث في كتابه القيم عن الشرق (رحلة لا مارتين الى الشرق) [١] .

ولم يقف اعجاب لامارتين عند هذا البحث المقتضب في كتابه المذكور بل نشر بحثاً آخر في مجلة « المتمدن » Le Civilisateur سنة ١٨٥٤ بعنوان : عنتر او التمدن الريفي Antar ou la Civilisation pastorale. وقد نشر هذا البحث على حدة ثم اعاد نشره بعنوان : عنتر وذلك سنة ١٧٦٤ م. اما دوفيك الذي أشرنا اليه سابقاً فقد كتب كتاباً عن عنترة بعنوان : حوادث عنترة بن شداد ، طبع في باريس سنة ١٨٦٤ م .

وكان قد سبق هـذا التاريخ وترجم نحو ثلث السيرة الى اللغة الانكليزية تاريك هاملتون Terrik Hamilton سكرتير السفارة الانكليزية في القسطنطينية في ذلك العهد . امـا ترجمته فقد نشرت في لندن سنة ١٨٢٠ في أربعة مجلدات بعنوان :

عنترة – حكاية بدوية - Antar - A Bedween Romance

---

(١) Lamartine - Voyage en Orient Paris 1911 Tome II p: 471 .

وهناك بحوث كثيرة في هذه السيرة نشرت في المجلة الاسيوية وفي غيرها من كتب الادب سنشير اليهـا في سياق بحثنا عنها . وعـلى من يرغب في زيادة الاطلاع على ترجماتها واللغـات التي ترجمت اليهـا ، وهي كثيرة ، واسماء الذين اهتموا بذلك ، ان يعود الى كتاب المستشرق شوفان المذكور ففيه تفصيل مـا أجملناه هنا .

اقسام السيرة الرئيسية

تسهيلاً للبحث نقسم سيرة عنترة الى ثلاثة اقسام :

أولاً : زواج عنترة من عبلة بعد مصاعب لا تحصى وأهوال لا حدّ لها .

ثانياً : سعي عنترة المتواصل لاظهـار فصاحته وشاعريته وتعليق معلقته في الكعبة .

ثالثاً : رحلات عنترة خارج الجزيرة العربية وغزواته الكثيرة وموته .

موضوع السيرة

ليس للسيرة موضوع واحد كما يظهر من أقسامها الرئيسية الثلاثة المشار اليها سابقاً، ولكنها تتناول أموراً كثيرة منها ما يمت، الى عنترة وسياق القصة بصلة ومنها ما لا علاقة له مطلقا بجوهر السيرة وسيرها الفني الطبيعي . ولكن هناك حوادث بارزة في السيرة تفرض نفسها على القاريء اكثر من غيرها وهي تؤلف عنـاصر القصة وموضوعهـا الاساسي وهي : لون عنترة ، حب عنترة ، تمجيد البطولة في سيرة عنترة ، تمجيد الحسب والنسب والافتخار بهما .

وسنرى بالتفصيل ان هذه العناصر الاربعة تكاد تكون كل ما في السيرة فرواة السيرة يهمهم كثـيراً ان يكون عنترة « اسود ادغم ، افطس المنـاخر ، واسع المحاجر ، مهدل الاشداق، مفلفل الشعر[١] . في عصر كان العرب يقدسون

---

(١) سيرة عنترة ج ١ : ٦ .

فيه العرقية الدموية ، حتى اذا ما التقى بفرسان العرب الميامين في ساحات الوغى واحتقروه لسواد جلده ، فخر عليهم ، وهو العبد الاسود ، بقوته وجبروته فكان ذلك ادعى لاحتقارهم واذلّ لرفعتهم وتكبرهم !.

وحب عنترة ، كما سنرى، هو عنصر جوهري من عناصر السيرة . فمن اجل هذا الحب يعيش عنترة ، ومن اجل هذا الحب يناضل ويحارب، ومن اجل هذا الحب يموت ميتة الابطال !

ويأتي في الدرجة الثالثة عنصر البطولة في السيرة . وهذا العنصر هو الذي يجعل من هذه الحكاية حكاية بطولية من الدرجة الاولى . نرى ان حوادث الرواية تجري كلها في نسق واحد وترتيب واحد ومجرى واحد،هو تمجيد البطولة والمفاخرة بالفروسية الصحيحة . فعنترة تحبه الفوارس وتعجب به وهم خصومه وما ذلك الا لبطولته وعزة نفسه[1] . وهو لا يحترم هؤلاء الفرسان خصومه ويحبهم الا لانهم ابطال صناديد لذلك فهو يكرمهم في حياتهم ومماتهم ويشهد بقوتهم وبطولتهم كما يشهدون هم بدورهم بقوته وبطولته[2].

واذا ما ظفر عنترة بخصم من خصومه الابطال عفا عنه اكراماً لهذه البطولة[3] حتى يصبح هذا العفو قاعدة مطردة تجري عليها فرسان العرب فيقول ربيعة بن المقدم بعد ان ظفر بعمرو :

« انك اذا ظفرت بفارس في الحرب ابق عليه كما ابقيت انا عليك[4] .

بقي العنصر الرابع وهو عنصر الحسب والنسب والافتخار بهما . وهو لا يبدو بارزاً بروز العناصر الثلاثة الاولى ولكنه لا يقل عنها اهمية على ما يظهر

---

(١) سيرة عنترة ج ٤ : ١٣٠٧ .

(٢) سيرة عنترة ج ٤ : ١٧٠٥ .

(٣) سيرة عنترة ج ٤ : ١٧١٩ .

(٤) سيرة عنترة ج ٤ : ١٦٨١ .

لي . فالبطل مهما سما ببطولته ورجولته لا يفخر به العرب الا اذا عظم حسبه وعرف نسبه . والولد ينشأ يتيم الاب حتى اذا كبر وقف امام امه يسألها عن ابيه وهل كان كريم المحتد ؟ ومن هم آباؤه واجداده ؟ وهل يحق له الافتخار بهم والاعتزاز باعمالهم الجيدة ؟ حتى إذا عرف انه منحدر من ارومة شريفة وقبيلة عزيزة الجانب تاه عجبا وفخر نسبا وقال في سياق قسمه : « وحق كذا وكذا... وجدي المنتسب [1] ».

ومما لا شك فيه ان في السيرة مسائل كثيرة غير هذه الامور الاربعة التي ذكرت سابقا ولكنها مسائل تبقى ثانوية بالنسبة لسياق القصة ومجراها الطبيعي.

ان في السيرة صورة صادقة لحياة العرب في الصحراء في العصر الجاهلي فهي تصف حبهم وبغضهم وانتقامهم وحريتهم وغزواتهم وايامهم وميلهم الفطري الى انشاد الشعر وغير ذلك من الشؤون التي اثرت عن العرب الجاهليين .

وفي السيرة ايضا كثير من الحوادث التاريخية لذلك العصر السحيق ولكنها حوادث غير موثوق بصحتها كما سنبين في مكان آخر من هذا البحث . واخيراً مهما كثرت الحوادث في سيرة عنترة ومهما كانت موضوعاتها متعددة، فان العناصر الاربعة المارّ ذكرها تبقى مسيطرة عليها سيطرة فعالة تجعل منها وحدة مترابطة اجزاؤها ولو بعض الترابط .

شخصياتها : الاخلاق والصفات

تتكاثر الشخصيات في سيرة عنترة وتتعدد بتكاثر الحوادث وتعددها . اما هذه الحوادث فلا حصر لها ولا عد . ففي كل لحظة دسيسة تحاك ، ومفاجأة تظهر . وبمناسبة وبغير مناسبة تشن الغارات على القبائل وتلتحم الفرسان في معارك لا نهاية لها فترتمي الابطال صرعى على الارض وتتكدس الاجسام بعضها فوق بعض ! وليس في استطاعة الباحث ان يتناول جميع هذه الشخصيات

(١) سيرة عنترة ج ٥ : ١٧٨٦ .

بالدرس والتحليل لانها في اكثرها قد حشرت حشراً في القصة لتملأ فراغ الفصول بالحوادث وترضي ذوق العامة فليس لها اهمية اولية في السيرة . لذلك اكتفينا بعرض سريع لكل من الشخصيات التالية: عنترة ، عبلة ، شيبوب اخو عنترة.

عنترة :

يبدو لنا عنترة في السيرة اسطورياً في حبه وبطولته ، وشاعريته وحنكته السياسية ودهائه واخلاقه الرفيعة النبيلة حتى وفي موته ايضاً . ولكي نتحقق من هذا القول لا بد لنـــا من ان نتناوله من جميع هذه النواحي بشيء من التحليل مستشهدين على ذلك ، بامثلة من السيرة نفسها ولنبدأ في حبه :

حب عنترة :

قلنـــا ان حب عنترة لعبلة ابنة عمه هو حب اعمى يكاد يكون محور القصة وجوهرهـــا الأساسي . فجميع مآتي عنترة وجميع مساعيه السلمية تدور حول هدف أساسي واحد ولغاية واحدة هي الوصول الى الحبيبة والزواج منها !

وحبه هو حب عنيف ، اعمى ، عميق ، صادق ، مخلص . وعنترة عــاشق حزين يشجيه صوت الحمائم ويهيج اشجانه وعواطفه نسمات الريح الناعمة . وهو، من اجل هذا الحب يتحمل كل اهانة وكل مصيبة ويلاقي مشاق كثيرة ما انزل الله بهـــا من سلطان ! ما ذنب هذا الرجل ليقوم بمثل هذه الغزوات التي لا تنتهي ? ولا تقف عند حد ? بل ما الدافع الذي يحمله الى ان يزج بنفسه في الجبال الشاهقة والأودية السحيقة والصحاري المقفرة ، معرضــاً نفسه لانياب الوحوش المفترسة واظافرها الحادة ?

لماذا يتحمل هذه المجازفات الخطرة ? وهذه الرحلات الشاقة الطويلة ? وفي سبيل من مِن النــــاس يغزو القبائل والفرسان والامراء والسلاطين والملوك والصعاليك ، انه يفعل كل ذلك في سبيل عبــلة ، تلك الحبيبة التي أعماه حبهـــا

وكبتّه هيامه لها . انه لا يرضى لها مهراً الا الف ناقة من النوق العصافير، وليس من طريقة لايجاد هذه النوق الا ان يغزو النعمان بن المنذر[١] .

واذا كان هذا الحب قد اعمى عنترة عن ان يرى المخاطر تحف به ، وان يحس بها ، فقد اعماه ايضاً عن ان يرى جمالاً غير جمال عبلة . فالجواري التي قدمها قيصر الى كسرى وهي اجمل من الكواكب ، هي ملكه يتصرف بها كما يشاء لان كسرى قدمها له هدية ولكن عنترة لا يأبه لها لان حب عبلة قد شغله عن كل حب سواه[٢] .

لقد امتلأ بهذا الحب كل ما في عنترة من عواطف واحساس حتى اذا ما جاءه اخوه شيبوب يخبره بزواج عبلة ، مكرهة، من بسطام بن قيس بن مسعود أحس بطلنا « ان روحه قد انسكت من جسده من شدة الغرام[٣] » .

وحب عنترة لا يعرف النعمة ولا الطمأنينة ولا لذة الوصـــل والتقرب من الحبيب لذلك فهو حب ملتاع ، جريح ، صادر من أعماق القلب :

بين العقيق وبينَ بُرقةِ ثَهْمَدِ	طَلَلٌ لعبلةَ مستهِلُّ المعهـدِ
كيفَ السلُوُّ وما سمعتُ حمائماً	يندبن ، إلّا كنتُ أَوّلَ منشدِ
وسألتُ طيرَ الدوحِ كم مثلي شجا	بأنيـــــنهِ وحنينهِ المتردّدِ
ناديتُـهُ ، ومـدامعي منهـلَّةٌ	أين الخليُّ من الشجيّ المكمَدِ ؟
قالوا : اللقاءُ غداً بمنعرجِ اللّوى	واطولَ شوقِ المستهامِ الى غد !
وتخـالُ أنفـاسي اذا ردّدتُهـا	بين الطلول، محت نقوشَ المبردِ!

---

(١) سيرة عنترة ج ١ : ١٢٣ .
(٢) سيرة عنترة ج ١ : ١٣٦ .
(٣) سيرة عنترة ج ١ : ٢٤٧ .

وليت هذا الحب الجريح يقف به عند هذا الحد ! بل ليته يبقي له جلال البطولة وروعة الفروسية ! ان عنترة البطل لا يتردد عن البكاء عندما يعلم ان عبلة أسيرة عند الأعداء[1] :

اذا كان دمعي شاهدي كيفَ اجحُدُ ... ونارُ اشتياقي في الحشا تتوقَّدُ؟
الى الله اشكو ظُلمَ عمي وجورَهُ ... اذا لم اجِد خِلاًّ على الظلم يُسعِدُ
خليليَّ أمسى حبُّ عبلةَ قاتلي ... وبأسي شديدٌ والحسامُ مهنَّدُ
حرامٌ عليَّ النومُ يا ابنةَ مالك ... ومَنْ فرشُهُ نارُ الغَضا كيفَ يرقُدُ؟
سأندُبُ حتى يعلم الطَيرُ أَنني ... حزينٌ، ويرثي لي الَحمامُ المغرِّدُ
وأَلثُمُ أرضاً أَنتِ فيها مقيمةٌ ... لعلَّ لهيباً حلَّ في القلب يبرد[2]

ويبدو لنا عنترة، وقد الف السقام، وتحمل العذاب ألواناً وأصنافاً في حبه، عاشقاً حزيناً مغموماً، ناقماً على الدنيا بأسرها لأن عبلة بعيدة عنه :

اذا ريحُ الصَّبا هبتْ أَصيلاً ... شفَتْ بهبوبها قلباً عليلا
وجاءَتني تخبّر أَنَّ قومي ... بمن أَهواهُ قد جدُّوا الرحيلا
وما عنوا[3] على مَنْ خلَّفوه ... بوادي الرّمل منطرحاً جديلا
يحنُّ صبابةً ويهيم شوقاً ... إليهم، كلَّما ساقوا الحمُولا

* * *

(١) سيرة عنترة ج ١ : ٢٣٦ .

(٢) سيرة عنترة ج١ : ٢٤٣ .

(٣) كذا في السيرة والاصح : حنوا .

أَلا يا عبلَ ان خانوا عهودي   وكانَ أبوكِ لا يرعى الجميلا
حملتُ الضيمَ والهجران جهدي   على رغمي، وخالفتُ العَذولا
أَلِفتُ السُقمَ حتى صار جسمي   اذا فَقَدَ الضنى، أَمسى عليلا
وقد غنّى على الأغصان طيرٌ   بصوتِ حنينه يشفي الغليلا
بكى فأعَرْتُهُ أَجفانَ عيني   وناحَ فزاد إِعوالي عويلا[1]

فأنت ترى ان حالة عنترة الحبية هي حالة يرثى لها. لقد أصبح، وهو البطل المغوار والفارس الجبار، ريشة في مهاب الريح لا يدري أين وكيف يستقر به الحال:

أُقاتِلُ كلَّ جبارٍ عنيدٍ   ويقتلني الفراقُ بلَا قِتالِ[2]

ومن الغريب حقاً ان يثير حبه لعبلة نقمة الناس عليه. فعمه مالك يقيم في وجهه العقبات اشكالاً والواناً. وابن عمه عمرو لا يترك سانحة تسنح دون ان يدس عليه. وعمارة بن زياد «معدن الخبث والفساد» مع اخيه الربيع يترقبان الفرص للايقاع به لانه يتجاسر على حب عبلة وهو العبد الاسود ذو الحسب الوضيع والنسب الخسيس!

ومن العجب حقاً بعد ان ظهر لنا عنترة **متيّماً** بحب عبلة، ان يعود مؤلفو السيرة فيظهروه لنا في اكثر من مكان من القصة انه متزوج بغير عبلة وان نساءه كثيرات منهن مريم اخت القيصر[3] كذلك نرى عنترة عندما كان يغضب من

---

(١) سيرة عنترة ج ١ : ٣٠٦ و ٣٠٧ .

(٢) سيرة عنترة ج ١ : ٤٢١

(٣) سيرة عنترة ج ٦ : ٢٥٥١

عبلة لامر من الامور ، كان يهددها بالزواج من ضرة لها تكيدها وتنغص عليها عيشها ولقد تزوج من اكثر من جارية، على قول الرواة، وهجا عبلة بأبيات منها :

واذا الحبيب جفا وملّ فخلهِ   واجفُ وزِدْهُ من المَلالة والقِلى
ما ضاقتِ الدنيا عليّ باسرِها   حتى أَذِلَّ لمن تريد تذللا[1]

والحقيقة ان هذه الاموركلها من مبتدعات القصاصين وخيالهم الخصب وهي من الزيادات والتزاويق التي انما أرادوا ان يستعينوا بها لاثارة فضول القارىء والتأثير عليه بمختلف الطرق وحشد الحوادث . ولكن اثر هذه الحوادث وهذه المفاجآت ضعيف هزيل فهي لا تثير النفس ولا تهيج العاطفة لان اداءها ضعيف ونتائجها غير خطرة .

بطولة عنترة

ليست البطولة ، في عرف بعض الناس ، وسيلة بل هي غاية في نفسها او نتيجة[2] ويضيف بيرون[3] الى هذا القول : « ان هذه النتيجة هي التي دفعت بالاسلام والحراب الاسلامية الى ما وراء جبال البيرانا حتى حدود نهر الرين[4] » .

والذي يبدو لنا ان جامعي السيرة أرادوا ان يجعلوا من عنترة بطلاً من ابطال الاسلام دفعه الى المجازفات التي قام بها ما دفع الابطال المسلمين من بعده: جهاد ديني مستمر وهدف سام مقدس . فصوروا لنا رجولته وبطولته صوراً خارقة تفوق حد التصور « فهو يقابل خمسين فارساً فيقتلهم واحداً واحداً » ج ١ : ٢١ .

---

(١) سيرة عنترة ج ٤ : ١٥١٩

(٢) M. J. J. Ampêre — la Revue des deux Mondes, Fév. 1838.

(٣) Perron كان مدير المدرسة الطبية في القاهرة في سنة ١٨٣٩ وطبيب مستشفى القصر العيني في ذلك الوقت وقد كتب لصديق له في باريس في المجلة الاسيوية عدد دسمبر سنة ١٨٤٦ مقالا عن عنترة وعن ربيعة بن المقدم يبين فيه ان عنترة الاسطورة يختلف كثيراً عن عنترة التاريخ .

(٤) Journal Asiatique, 1840 p: 513.

« وهو بطل تخافه الجن ويخشاه الغول » ج ١ : ٥٥ يتقدم الفرسان « كأنه مارد من مردة الجان او من عفاريت سيدنا سليمان » ٢ : ٤٨٧ وهذا المارد « كان يرمي اعداءه بالنبال فيشك بها مقاتل الرجال حتى أخذوا يتعوذون منه وظنوا انه شيطان في صورة انسان » ١ : ٦٦ .

حتى الاعاجم يقولون عنه : « لا نعلم هل هو من الجن او من الابالس ؟ » ١ : ١٢٨ « وكان اذا طعن ضلعاً دقّه وان ضرب رأساً شقه » ١ : ١٢٠ .

وهو يقاتل البطريق ويطلق عليه السهم فيطلع من ظهر وله زفير وشهيق ٢ : ١٣٥ .

اما ان يضرب عنترة بطلاً من الابطال « ضربة يطلع الرمح يلمع من قفار ظهره » فهذا اسهل الامور ١ : ٧٣ و٧٤ .

مساكين اعداؤه ! « كان يضربهم فينثر رؤوسهم مثل الاكر واكفهم مثل اوراق الشجر » ١ : ١١٠ وكلهم عارف به مؤمن بجبروته حتى اذا وصفوه قالوا : « كان يلتقط الفارس منا في عرصات المجال فيضرب به الآخر فيموت الاثنان في عاجل الحال » ١ : ٣٢٤ .

ويهجم على حذيفة المسكين « ويضرب رأس حجرته بالسيف فيبريها كبري القلم[1] » ١ : ٣٧٧ .

واليك نموذجاً من معاركه التي كان يشنها كل لحظة من لحظات حياته :

« ... كانت تتطاير الجماجم وتتدحرج وتتخضب الدروع بالدماء وتشتد نار الحرب وتتأجج، وتضطرب الابطال وتنزعج وتدور ملائكة الموت على الارواح ويطوق عنترة الاعناق بالدماء ويقيم الحرب على قدم وساق ويظهر العجائب والاهوال . وينثر الفرسان والابطال ولا يفقد من قومه اكثر من سبعة رجال[2] ! » .

---

(١) سيرة عنترة ج ١ : ٣٧٧ .

(٢) سيرة عنترة ج ١ : ٥٥٢ .

اما مفاخرته ببطولته في الحرب ومخاطبته اعداءه مشيداً بقوتـه ورجولته فتملأ تضاعيف السيرة . فهو يقول عن نفسه في حربه ضد الاعاجم :

« انا عنتر العبسي ، فـــارس العرب وقد أرسلتني النار على رؤوسكم جمرة الغضب[1] » .

ويقول ايضاً :

والموتُ حقاً لو رآني لانثنى   عني مخافةَ سطوتي وتجبُّري[2] !

ويخاطب بسطام بن مسعود ، وقد طمع بعبلة ووعده بها أبوها على شرط ان يأتيه برأس عنترة ، بقوله :

إن تكن تشكو لأوجاع الهوى   فأنا أَشفيك من هذا الوَجعْ
بحسامٍ كلما جرَّدتُهُ   سَجَدَ الموتُ له ثم ركعْ[3]

وهل بقي بطل من ابطـــال العرب لم يبارز عنترة ؟ لقد حشدوا له جميع صناديد الجاهلية من صخر بن عمرو ابن ملك كندة الى زياد ابن اكال الاكباد ، الى معاوية المعروف بقانص السباع ، الى وجه الغول ، الى ربيعة بن المقدم ، الى فهر الملقب برارة النسر ، الى ابي المقداد الملقب بسيف بكر ، الى الطياح آكل الاكباد وآفـة العباد ، الى علقمة بن سيف التغلبي الملـّقب بقلاّع الآذان وآفة الزمان ، الى ابي براء عمرو بن مالك الملقب بلاعب الاسنة ، الى عمرو بن معدي كرب ، الى سبع بن الحارث الملقب بذي الخمار ، الى حذاوند ملك الاعـاجم ، ابن الملك انوشروان ، الى نازح، الى لقيط بن زرارة ، الى كثيرين غير هؤلاء من رجال العرب الذين اشتهروا بالفروسية في العصر الجاهلي .

---

(١) سيرة عنترة – ج ١ : ١٣٠
(٢) سيرة عنترة – ج ٢ : ٤٥٦
(٣) سيرة عنترة – ج ١ : ٢٥٥

ومن الطبيعي ان يتغلب عنترة على جميع هؤلاء الابطال بدهاء وسرعة لا حد لها . كان يتصدّى له خصمه فيقتله بضربة من سيفه « حتى اذا برز اليه ثان أسره ، وثالث قهره ورابع دمره ، وخامس عفره[1] » حتى لا يبقى من يتجاسر على الصمود امامه في الميدان .

عنترة والشعراء

ان الشعر ضرورة مكملة لبطولة عنترة لان الجاهليين لم يطيقوا ان يكون لهم ابطال من غير ان يكونوا شعراء ، والحقيقة ان عنترة قرن الى فروسيته شاعرية لم تتوافر للكثيرين من شعراء الجاهلية . وليس لنا ان نتعرض لهذه الشاعرية في دراستنا هذه وانما غرضنا ان نستشف شيئاً عن شخصية عنترة الشعرية كما تبدو في السيرة . لقد كدسوا اسماء الشعراء الجاهليين، بمناسبة وبغير مناسبة ، وجعلوا منهم ابطالا صناديد ، وحملوهم ، بسبب وبدون سبب ، على مقارعة عنترة ومبارزته. فهذا طرفة بن العبد ، وعمرو بن كلثوم ، وامرؤ القيس امير الشعراء ، وزهير فصيح بني غطفان، ولبيد العامري ، والاعشى بن ميمون آخر رجال المعلقات ، كل هؤلاء قد تصدوا لعنترة وكلهم رجعوا خاسرين في الحسب والنسب والفصاحة والادب[2] .

والملحوظ ان مؤلفي السيرة أرادوا ان يجعلوا منها خزانة للادب الجاهلي وخاصة المعلقات . فما كان منهم الا ان جعلوا من اصحاب المعلقات ابطالا يتناظرون الشعر ويتساجلون مع عنترة فيغلبهم بعد ان يسمع قصائدهم ويسمعهم قصيدته . وعنترة في السيرة هو شاعر من الطراز الاول ، استطاع ان يعلق معلقته في الكعبة رغم الصعوبات الجمة والعراقيل الكثيرة التي وضعوها في وجهه .

---

(١) سيرة عنترة – ج ٤ : ١٤٥٧
(٢) سيرة عنترة – ج ٤ : ١٤٩٩

عنترة والدهاء السياسي

رأينا في عنترة بطلاً مغواراً يحمل على اعدائه بضراوة وشراسة اين منهـــا ضراوة الاسود الضارية والوحوش الفاتكة !

ورأيناه يجابه جيشاً عرمرماً فيقتــل منه من يقتل ويأسر من يأسر ويرجع ظافراً غانماً لم يصبه خدش او كسر .

وقــد يتبادر الى الذهن ان من كانت هذه صفاته لا شك وانــه متهوس ، لا يحسب حساباً للعواقب الوخيمة وما قد تجره عليه مجازفاته الكثيرة من الاخطار والحقيقة ان اندفاع عنترة ومخـــاطرته بحياته في مختلف الوقائع التي شنها على اعدائه كانت مقرونة بشيء كبير من الحكمة والتروي والدهاء السياسي .

هكذا يظهر لنا عنترة في السيرة وهو في ذلك لا يختلف عن عنترة التاريخ الذي يروى عنه : « انه كان يقدم موضع الاقدام ، ويحجم موضع الاحجام[١] » كذلك كان ينكر انه أشجع العرب وأشدهـا حتى اذا سئل بما شاع له ذلك في الناس أجاب :

« كنت أقدم اذا رأيت الاقدام عزماً ، وأحجم اذا رأيت الاحجام حزماً ، ولا أدخل موضعاً لا أرى لي منه مخرجاً . وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله[٢] » .

ودهاؤه السياسي هذا ، يحمله على مهادنــة خصومه الاشداء ومحـالفتهم فهو صديق كسرى وحليفه في الحروب بعد ان كان خصمه اللدود[٣] .

اخلاق عنترة

يبدو لنا عنترة في السيرة كامل الصفات فهو عزيز النفس رغم سواد لونه وضعة

---

(١) الاصفهاني – الاغاني ج ٧ : ١٥٢
(٢) الاصفهاني – الاغاني ج ٧ : ١٥٢
(٣) سيرة عنترة – ج ٥ : ١٧٧٣

نسبه . وهو عفيف في حبه لا يتهتك ولا يفحش. وهو مترفع عن الدنايا، مترفع عن الأسلاب والغنائم التي يصيبها رجاله في الحرب فلا يمد اليها يداً . وهو سهل المخالقة ، لطيف المعشر ، دمث الاخلاق ، لا يحب ان يكون البادىء بالظلم ولا يفكر بان يسيء الى الغير . اما الكرم فهو سجية طبيعية فيه .

وهو فوق كل ذلك حليم صبور ، غير متهور ولا متهوس ، رغم المجازفات العديدة والمعارك الكثيرة التي كان يشنها على اعدائه . والفضيلة التي تجعل من عنترة مثالاً اعلى للفارس الكامل هي صونه الحريم. فهو اذ يسبي الاعداء ويقهرهم لا يتعرض للنساء والاطفال [1] .

وصيانة المرأة والمحافظة عليها شريعة قدسها العرب ايما تقديس . لذلك نجد ان جميع الابطال كانوا يحترمونها ويجلونها وهكذا قل في ابطال سيرة عنترة . فالغضبان يزعق بخصومه الانذال قائلاً :

« ... انا الغضبان مبيد الاقران . وحامي الحريم والصبيان ويلكم هل بلغ من قدركم ان تسبوا الحريم والنسوان [2] ؟

واصحاب عمرو بن مالك يؤكدون له ان ربيعة بن المقدم « ما نصره الرب عليهم الا لما سبوا الحريم وهذا هو الذنب العظيم [3] » .

ولا شك في ان جميع هذه الصفات التي تبلغ حد الكمال ليست لتطلق جزافاً على عنترة بل ان لها اصولاً في اشعاره التي أثرت عنه في العصر الجاهلي . ففي قوله :

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأَظلُّهُ حتى انال به كريمَ المأكلِ

تظهر عزة نفسه وصبره وترفعه عن الدنايا ، الامر الذي حمل النبي محمد على القول ، بعد ان سمع البيت المذكور :

---

(١) سيرة عنترة — ج ٢ : ٦١٧ و ٦٤١ وج ٤ : ١٣٤٧ وج ٥ : ١٧٥٥

(٢) سيرة عنترة — ج ٥ : ١٧٦٢ .

(٣) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٦٨٤ .

« ما وُصِفَ لي أعرابيٌ قطُّ فأحببتُ أَن أَراه الا عنترة[1] ».

وهذه الشهادة كفيلة ان تحفظ ذكر البطل العبسي وتخلده مدى الدهر . وفي قوله :

أَغشى فتاةَ الحيِّ عندَ حليلِها   واذا غَشَى في الجيش لا أَغشاها
وأَغضُّ طرفي ما بدتْ لي جارتي   حتى يواري جارتي مأواهـــا

تظهر عفته التي تنقص الكثيرين من شعراء عصره .

وهكذا قل في سائر صفات عنترة التي يظهر اثرها بارزاً في شعره فيبدو لنا شاعر الحرب والحب، شاعر المعامع الحامية والمعارك الدامية من ناحية، وشاعر الحب الذبيح والغزل الحزين من ناحية اخرى !

ان حب عبلة جعل منه رجلاً فوق الرجال . فمن اجل عبلة وارضائها خاض ما خاض من حروب ، وسبى ما سبى من ابطال ! دون ان ينقم عليها او يسيء اليها باقل كلمة تخدش عفتها .

وهنا يلاحظ Perron ، ان الشعراء العرب الاقدمين يخالفون الشعراء اليونان في نظرهم الى النساء اللواتي اثيرت الحروب من اجلهن . ان مثل هؤلاء النسوة كنّ لعنة في نظر الشعراء اليونان ، وكـــنّ مرذولات منهم . فحرب طروادة استعرت نيرانها في سبيل ارجاع هيلانة لزوجها ولم تكن قط في سبيل ارضائها والتقرب منها .

لم يعرف اليونان هذا الحب البطولي بل رذلوه ولعنته آلهتهم ولم يكن مصدراً لاعمال مجيدة عظيمة بـــل وقف حاجزاً في وجه شعرائهم فلم يروا فيه دافعاً لتمجيد البطولة ! .

---

(١) الاصفهاني – الاغاني ج ٧ : ١٥١ .

اما الحب عند العرب فكان في سبيل المرأة نفسها ، في سبيل صونها وحمايتها وهو الذي اذكى الحروب واشعل نيرانها [١] .

« والخلاصة ان عنترة الاسطورة يرتفع حتى ارقى درجات البطولة ويزدان باسمى فضائل الفروسية . يجمع بين الشجاعة وبين عطف المقتدر ، يحنو على الارملة واليتيم ، وينصف المظلوم وينتقم من الظالم . هو مثال اعلى للفارس الكامل . فارس ، بطل لا تقف بطولته عند حد ، لا يهاب جيشاً مهما بلغ عدده ولا يخشى مهالك مهما تنوعت اسبابها ولا يتراجع امام عقبة مهما كان نوعها ، فاذا قاومته الالوف زعق عليها فبددها . واذا صدته الجان اعمل فيها حسامه فصرع افرادها . واذا نبا رمحه عن خرق درعٍ قرنه رمى به الارض وضرب صدر القرن بقبضته فانفذها من ظهره [٢] » .

اما الموت فلم يخش بأسه ولم يتهيب قوته . فقد وافاه الاجل بعد ان عمر طويلاً ومات ميتة الابطال كما سنرى .

موت عنترة

ان موت عنترة اسطورة من الاساطير ! لقد حمى قومه في حياته وفي مماته . لقد روى لنا الاغاني [٣] ثلاث روايات عن موت عنترة لم يأخذ بها او باي واحدة منها مؤلفو السيرة . لقد صوروا فيها ما شاء لهم خيالهم الروائي وارادوا ان يجعلوا من موته مجالاً فسيحاً للمجد البطولي والعظمة الحربية . فاماتوه بسهم مسموم من اسهم خصمه اللدود وزر بن نبهان الملقب بالاسد الرهيص . لقد اكحل عنترة وزراً هذا واعماه فاراد ان ينتقم لعماه وكان انتقامه هائلاً .

« تعلم رمي النشاب وهو اعمى ، حتى صار يرمي به على الصوت ، فيصيب

---

(١) Perron M. A - Journal Asiatique Dec. 1840

(٢) فؤاد افرام البستاني – المشرق مج ٢٨ : ٦٣٤ .

(٣) الاغاني – الاصفهاني ج ٧ : ١٥٢ .

الغرض . واذا مر عليه طائر وزعق ، يرميه على ناحية صوته فيقتله ويأتيه عبده فيأكله [1] » .

واستطاع وِزر ، في ليلة ليلاء ، ان يصيب مقتلاً من عنترة بسهمه الحاد المسموم ، فيزمجر عنترة عندما يصيبه السهم ويهدد خصمه بابيات من الشعر ، وهو يتألم ، لا يلبث وزر عندما يسمعها ان يموت من ساعته خوفاً وجزعاً ، اعتقاداً منه ان عنترة لم يمت ، لان السهم قد اخطأه ! ويركز عنترة رمحه ، بعد ان يصيبه السهم ويستند عليه ويركب فرسه الابجر ويسير بقومه طالباً منهم أن يدخلوا ديارهم وان يتركوه وشأنه ، فهو يريد ان يحميهم في حياته وفي مماته . ويشعر برحيل قوم عنترة الاعداء فيلحق بهم اربعون فارساً مغواراً وهم يقتفون أثر عنترة الى ان وصلوا الى وادي الظبا . « وكان قد عبر الظعن فيه ، وعنترة على ظهر جواده ، مستند على رمحه في بعض نواحيه ، تارة يسير ، واخرى يقف ، الى ان وصل الى فم الوادي والمضيق . فهناك زاد الوجع عليه فوقف واركز رمحه واستند عليه ، فخرجت روحه من بين جنبيه . وكانت العرب من بعيد واقفة تنظر اليه ، ولم يجسر احد ان يقدم عليه لانهم ظنوه في قيد الحياة وانه واقف يطلب قتال من قصده واثاره [2] » .

انه لمشهد رهيب حقاً ! انها لوحة من لوحات الفن الخالد ! بل انه تمثال رائع من التماثيل العالمية الخالدة ! ذلك الجسم الاسود الحالك في سواده ، مرتكزاً على رمح من الرماح السمهرية التي طالما اهتزت لهولها النفوس ، والابجر صامد من تحته كأنه قطعة من الليل ، والابطال من على يمينه وشماله يملأون المكان ولا يقتربون !

– هيا تقدم .

– يا لك من جبان رعديد !

– ويلك ايها الابطال ! ارجعوا على اعقابكم والا عدمكم ، اهلكم واحبابكم !

---

(١) سيرة عنترة – ج ٥ : ٢٥٥٤ .
(٢) سيرة عنترة – ج ٥ : ٢٥٦١ .

– انه عنترة حامية بني عبس وفارس كل من طلعت عليه الشمس .

– انه حية بطن الواد !

– ولكنه واقف ، هادىء ، لا يُبدي ولا يُعيد !

– هو سكون العاصفة ، واغماضة الموت الزؤام .

ويشاء ربك ان يتحرك الابجر وان يتقدم فيقع جسم عنترة على الارض كأنه برج مشيّد او سدّ من حديد ! .

ان جميع النقاد ، الشرقيين منهم والغربيين ، اعجبوا بهذا المشهد الرائع وقد نتعرض لوجه الشبه بينه وبين موت البطل رولاند في الملحمة المعروفة باسم « اغنية رولاند ». على اننا نسارع الى القول بان موت عنترة في السيرة هو اروع واجمل مشهد فيها. وتنعى الاميرة عنيزة ابنة عنترة، اباها الى جميع قبائل العرب. فيعم الحزن الشديد وتأتي الوفود من اقصى البلاد لتؤدي واجب التعزية بالبطل الكبير الذي رفع اسم العرب عالياً :

فالامير عامر بن الطفيل مع جماعته على الخيول الضوامر ، فعمرو بن معدي كرب على رأس وفد من بني زبيد. فالامير هاني بن مسعود على رأس بني شيبان. فبنو نبهان ، فبنو مشاجع ، فبنو مذحج ، فبنو عامل ، فبنو صباح ، فعشرات المئات من القبائل تتلاحق بعضها ببعض حتى تملأ الارض ! وما ان دفن عنترة حتى نحرت على قبره النياق بالمئات والالوف ، واخذ الشعراء والخطباء في رثائه واخذت الخلائق تنتحب عليه ممزقة ثيابها حزناً وألماً !

واخذت الوفود من غير بلاد العرب ترسل التعازي . فهذا هرقل بن قيصر يحضر على رأس وفد من الوفود ويتقدم من قبر عنترة ويتكىء على سيفه ويبكي ويأمر بذبح الف ناقة !

وهذا الملك المنذر بن النعمان يأتي موفداً من ملك الاكاسرة، كسرى انوشروان مصحوباً بابن كسرى شهريان الذي يأمر وزيره بزرجمهر ان يذبح الف ناقة وجمل على قبر عنترة !

وهكذا نرى ان مؤلفي السيرة ، عملوا جهدهم ، ليحافظوا على هيبة بطلهم عنترة ، حتى بعد مماته ، فلا تكون خاتمته غير لائقة ببطولته وعظمته ، عندما كان لا يزال على قيد الحياة ! .

عبلة

من صفات عبلة الرئيسية الامانة والاخلاص حتى ما بعد الموت . يظهر ذلك جلياً في اكثر من مكانمن السيرة. تستفزها اعمال ابيها ومعاملته لعنترة فتثور في وجهه وتصدمه صدمة عنيفة وترميه باقبح النعوت كالغدر والمكر والخبث [١] .

وهي تسهر الليالي الطويلة بانتظار الحبيب المعبود عنترة البطل . وعنترة هو سلاحها الحاد الماضي تهدد به كل من يحاول أن يعتدي عليها [٢] . وتتزوج من عامر بن الطفيل اطاعة لامر عنترة بعد وفاته ولكنها لا تترك فرصة دون ان تذكّر زوجها المسكين بمفاخر عنترة، مفضلة اياه على جميع رجال الارض حتى تستفز زوجها وتستثيره فيأمر بخنقها فتموت ضحية حبها وامانتها لعنترة [٣] .

وهي في حبها لعنترة عفيفة ، شريفة ، طاهرة تفضل الموت الاحمر على ان تلوث عرضها . وليس سبب هذه العفة خوفاً من عنترة الذي « تفزع منه الجن وتعجز عن مداراته ومراسه الفراعنة ، والذي يضرب رقبة من يتعرّض لعبلة ، ويخرّب دياره ويقطع آثاره ويفني عساكره » كلا ليس ذلك هو السبب في عفة عبلة وان حاولت هي ان تتظاهر بذلك امام العجوز رسول ازدشير [٤] ، بل هو حبها المخلص لعنترة وللفضيلة . انها ثارت في وجه ازدشير بن الملك كسرى كاللبوءة التي فقدت اشبالها وما ذلك الا للمحافظة على عرضها وشرفها ولما لم تفلح

---

(١) سيرة عنترة — ج ١ : ٢٢٩ .
(٢) سيرة عنترة — ج ١ : ٢٣٠ .
(٣) سيرة عنترة — ج ٦ : ٢٥٧٥ .
(٤) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٤٠٦ .

في ردعه عنها مالأته حتى اذا خلت به اردته بضربة سكين حادة ، فوقع صريعاً يتضرج بدمائه [١] .

والسيرة تظهر لنا عبلة في مواقف بطولية كثيرة . فكثيراً ما كانت تستقبل عنترة تهنئه بالسلامة وتقبله وتساعده في خلع ثيابه وتطلب اليه انتذهب لتحضر معه مواقعه [٢] .

عبلة المرأة الغيورة

ولكن المرأة هي المرأة . لقد كان لها غرورها ولها صلفها الذي حملها على مجافاة عنترة وحمله على التزوج من اكثر من امرأة واحدة كما مر معنا الكلام سابقاً . ان غرور عبلة كان السبب الذي قرر مصير عنترة . وغيرتها دفعتها الى التصريح بان عنترة ليس عندها « الا بمنزلة العبيد ، لا بمنزلة الرجال ، ولو انها شاءت لردته الى رعي النوق والجمال[٣] » .

وبلغ بها صلفها ان أمرت حبيبها عنترة في تقبيل اقدامها في ليلة سكر وعربدة فتركها غاضباً حانقاً وفي قلبه من الشوق ما فيه[٤] .

اما حب عبلة لعنترة فقد جعل منه شاعراً فصيحاً وبطلاً مقداماً كما انه كان السبب في ان يموت ضحية عدوه اللدود الاسد الرهيص .

شيبوب

ان شيبوب في السيرة يلفت النظر ويستحق دراسة خاصة . فهو دماغ عنترة المفكر ، وهو الحكيم المدبر الذي يخلص اخاه عنترة من جميع الورطات التي

---

(١) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٤١٥ .
(٢) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٤٥٦ .
(٣) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٨٠٥
(٤) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٥١٣

يقع فيها . فاذا ما رأى عنترة يسرف في المروءة ويعطف على من لا يستحق العطف قام واعظاً : « ان الاسراف في المروءة يقلع الفروع والاصول[١] » .

واذا ما رأى عنترة غارقاً في بحر ملذاته ، يشرب الكأس تلو الكأس ويتذلل امام الاماء والجواري صرخ فيه قائلاً : « يا ابن الاماء ! لقد انهد ركن مجدك وعلاك ، اما تستحي ان تذل لربات القناع ، وقد ذلت لهيبتك السباع[٢]؟ »

وشيبوب حاضر عند كل طلب « يطلع مثل ريح الهبوب او يطل مثل ذكر النمام » وهو يحمي عنترة كأنه « البرق اذا لمع او الشهاب اذا سطع » . لا يقع عنترة في ورطة الا ويصل اليه شيبوب « اسرع من لمح البصر كأنه الثعبان الاغبر » .

وانه لمن المؤسف حقاً ان يموت شيبوب بيد عبد غدّار جاء مستجيراً[٣] .

ان جولد زيهر يرى ان شيبوب لعنترة مثل سانكوبوزا لدون كيخوت اما لامارتين فيدعوه عولوس العرب[٤] l'Ulysse de l'Arabie

هذه الشخصيات الثلاث ، عنترة وعبلة وشيبوب ، تكاد تكون محور السيرة فحولها تجري اهم الحوادث وهي تطغى على باقي الشخصيات ، لذلك اكتفينا بدراستها وحدها دون غيرها من شخصيات السيرة .

الروح الاسلامي في سيرة عنترة

يلاحظ ان رواة السيرة او بالاحرى جامعيها حاولوا ان يصبغوا بعض حوادثها بصابغ الاسلام ، وان يجعلوا من ابطالها العظام ابطالاً اسلاميين على بعد زمن السيرة عن الاسلام . فعنترة يبدو لنا مؤمناً بالله الواحد « الحي القيوم ،

---

(١) سيرة عنترة - ج ٢ : ٥٥٤
(٢) سيرة عنترة - ج ٤ : ١٥١٣
(٣) سيرة عنترة - ج ٦ : ٢٥٣٥
(٤) Heller - p : 126

الدائم بلا زوال » الذي خلق الارض من طين وماء « باسط الارض ورافع السماء [1] » .

ويذكر الملك زهير « الخالق العظيم » بقوله : ومن ترى يقدر ان يرث احكام الخالق العظيم[2] ؟ »

وينظر الى العجم كأنهم «عبّادالنار» اما هو وشعبه فليس توفيقهم الابالله [3]

ويرددون كلمة « الله اكبر » والركن والمقام برب السماء !

فمن هو هذا الله الذي يرد اسمه في سياق السيرة ؟ هل هو اله اليهود والنصارى ، ام هو اله واحد قادر أخذ يحس بوجوده العرب وقد اقترب مجيء الاسلام ؟

كذلك تتردد على افواه اكثر شخصيات السيرة كلمات : الله اكبر ، والركن والمقام ، ورب السماء ، ورب الخليل ابراهيم ، مما يؤكد ايمانهم بوجود الاله الحقيقي من ناحية ، وكلمات زمزم والحطيم والحجر والبيت العتيق واللات والعزّى والهبل الاكبر مما يؤكد وثنيتهم من ناحية اخرى .

وهم يسجدون امام الاصنام ويقبلون اركان البيت الحرام ويجأرون من جهة ثالثة الى الله خالق السماء وباسط الارض[4] .

والذي يبدو لنا ان هناك محاولة من قبل واضعي السيرة لجعل بعض شخصيات السيرة اسلامية في ايمانها وتفكيرها ، وهي محاولة فاشلة ، ظاهرة التصنع ، ضعيفة الحجة ، عديمة المنطق لان عنترة ، لا يتأتى له ، وقد عاش جاهلياً ومات جاهلياً ، ان يتصور وجود اله واحد في ذلك الزمن الجاهلي السحيق .

---

(١) سيرة عنترة – ج ١ : ٣٠٨ و٣٢٨ كذلك ج٢ : ٤٩٢ و٤٩٣ و٥٢٤
(٢) سيرة عنترة – ج ١ : ٨٣
(٣) سيرة عنترة – ج ١ : ١٢٧ و١٣١
(٤) سيرة عنترة – ج ٢ : ٥٢٨

« ويتعجب من قدرة من يقول للشيء كن فيكون وهو الله الذي لا إله الا هو ، خـــالق البشر ، ومصور الصور والمخرج الذكر من الانثى والانثى من الذكر[1] » .

وتبدو هذه الروح الاسلامية قوية في السيرة في المواقف التي يتنبأ فيها عنترة وغـيره بمجيء النبي العربي الكريم . « فالمجوس تصيبهم زلزلة عظيمة تدل على معجزات النبي المفضال لانهم يوم انكسرت الفرس في ذي قـــار ، وقتل هاني شيرسان ، انشق الايوان ، وخمدت بيوت النار سبعة ايام تمام ، وطلع لها غبار كالدخان ، وانقلبت الدنيا فلم يعرف الليل من النهار ولا الكسوف من الاسفار ووقع الهيكل وانـدثر على معبدهم الاكبر ، وكشفت مشايخ الفرس رؤوسها ، وقد أيقنت بهلاك نفوسها ، وهجروا الطعـام ، وحرموا شرب المدام . وخرج الملك الى ظاهر المدينة وضربت له الخيام وأيقنوا بالبلا وظنوا ان القيامة قدقامت من السماء . وما سكّن الجأش الا حسان بن معبد رأس الحكماء . فأنقذ الناس من رعبهم وشدّد قلوبهم وأخبرهم ان الذي جرى وصار انما هو اشارة على مجيء رسول سعيد، له نصر وتأييد من رب السماء، يظهر في هذه الايام وتكون ولادته في بيت الحرام ومنشأه زمزم والمقام والمشاعر العظام ، يملك الممالك ، ويغـير الشرائع ، ويخفي البدائـع ، ويظهر الاسلام ويدعو النـاس الى عبـادة الملك العلّام[2] » .

والواضح من السيرة ان النبي قد ظهر في زمن عنترة ولعب دوره فأسلم بـين يديه الملك زهير بن قيس ومن تبقى من بني عبس . كذلك فعل عينية بن حصن ومن معه من بني فزارة ، وكانوا اعداء زهـير ، فتحالفوا وتصافت القلوب تحت راية الاسلام ، الدين الجديد ، وأنزلت الآية في حقهم على ما تدعيه السيرة :

« واذكروا نعمة الله عليـكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبـكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها[3] » .

---

(١) سيرة عنترة – ج ٤ : ١٥٠٩

(٢) سيرة عنترة – ج ٤ : ١٣٢١ – ١٣٢٢ وص : ١٦٨٤

(٣) سيرة عنترة – ج ٦ : ٢٥٨٣

وهناك امور اخرى ، أقل اهمية مما ذكرناه ، تؤيد نظريتنا هذه في إسلامية السيرة منها: ان هاني بن مسعود احد الابطال المشهورين يحلف يميناً انه لا يتزوج ابنة سيد بني شيبان الا على دين النبي الذي يظهر من آل عدنان[1] .

كذلك مسألة القضـــاء والقدر وبعض المعتقدات الاسلامية الاخرى تظهر جلية في سياق السيرة : « ان الموت لا يتقدم ولا يتأخر[2] » .

والذي نلاحظه في هذا الموضوع ، كما يلاحظ في امور كثيرة غيره تتناولهـا السيرة ، ان الحقائق التاريخية لا قيمة لها في نظر واضعي السيرة . واذا كان هناك كثير من الحوادث التاريخية الجاهلية في هــذه القصة فليس معنى ذلك انها رويت على حقيقتها بل جاءت مشوهة ، فيها الشيء الكثير من المبالغة والتحريف حتى والكذب والخلط . فكيف يمكنك ان تصدق ان عنترة حاول ان يعلق معلقته على حائط الكعبة بقوته ، وانها كتبت بماء الذهب وعُلقت[3] ? ثم أخذ الناس يسجدون لهـــا[4] . وكيف يمكنك ان تصدق ان عنترة يبارز طرفة بن العبد لتثبيت قصيدته والتاريخ لم يذكر لنا شيئاً من ذلك . ?

ومن هو عنترة حتى يكتب الملك النعمان بن المنذر الى الملك زهير في شأنــه لخطبة ابنته المتجردة[5] ? وما قيمة هذا الحادث من الناحية التاريخية ? وما هي هذه الوفود الكثيرة ، التي يفوق عددها عدد النمل ، والتي تأتي ، كلها ، معزية بعنترة[6] ? فكسرى ملك الاعاجم ، وقيصر ملك الروس ، وبزرجمهر وهرقل ورؤساء العشائر الابطال ، كلهم باكٍ ، وكلهم ينحني على القـــبر مودعاً ، وهو ينحر عليه النياق ! فأين التاريخ من كل هذه الذكريات ?

---

(١) سيرة عنترة – ج ٤ : ١٦٨٧
(٢) سيرة عنترة – ج ٢ : ٦١٧
(٣) سيرة عنترة – ج ١ : ١٤٣٢
(٤) سيرة عنترة – ج ٤ : ١٥٠٤
(٥) سيرة عنترة ج ١ : ٣٨٦ - ٣٨٧
(٦) سيرة عنترة ج ٦ : ٢٦٢٧

وتبدو لنا عبلة شاعرة لا تقل شاعرية عن حبيبها عنترة ، فهل عُرف تاريخياً عن عبلة انها كانت شاعرة ؟

ويولي القيصر رجلاً من الروم على دمشق فيعزله عنترة[1] فمتى كان ذلك ؟ وكيف ؟

ويفهم من بعض سياقات السيرة ان المسيحيين كانوا يستوفون الخراج والعداد من اليهود[2] فهل للتاريخ خبر عن مثل هذا ؟

وانه من إضاعة الوقت ان أُعدد المواقف التي يكثر فيها الخلط التاريخي . فهي تشمل السيرة من أولها الى آخرها . ويكفي ان نرجع القارىء الى ما قلناه في مطلع هذا الفصل من ان القصص البطولي كان ملعباً خصباً لخيال الشعراء والرواة القصاصين فوضعوه على هواهم ، مطلقين العنان لخيلاتهم غير المحدودة ومغالاتهم الساذجة ! فلا يمكننا ، والحالة هذه ، ان نركن لأي حادث يروونه او ان نستنتج من روايتهم اي حقيقة تاريخية .

سيرة عنترة ـ منزلتها الادبية

وليس فقدان العنصر التاريخي الصحيح ليحطّ من قيمة السيرة كقصة شعبية بطولية ولكنه ينفي عنها صبغتها التاريخية ، فلا يصح لنا ان نعتبرها كمصدر تاريخي لذلك العصر . ورغم هذه الاخطاء التاريخية ، وطغيان الخيال طغياناً جارفاً على جو السيرة ، ورغم وجود هذه الحكايات الاسطورية ، فان سيرة عنترة تبقى معرضاً عجيباً ، زاخراً بالصور الصادقة ، والشعور المخلص عن حياة العربي الجاهلي في ذلك الزمن . فبينا تصف لنا الف ليلة وليلة حياة سكان المدن ، تصف لنا سيرة عنترة حياة سكان الصحاري[3] .

---

(١) سيرة عنترة ج ٦ : ٢٥٤٦
(٢) سيرة عنترة ح ٤ : ١٥٣٩
Arbuthnot F. F. Arabic Authors P: 186. (٣)

وهل لدارس الادب العربي غنى عن فهم روحية الشعب الذي أوحى ذلك الادب ، والاطلاع على عادات ذلك الشعب وخصائصه الرئيسية واهدافه التي كان يطمح اليها في حياته ؟

ان سيرة عنترة هي في مقدمة الحكايات العربية البطوليه، وهي أطول هذه الحكايات وان كان طولها سبباً في وجود مثل هذه الاقاصيص الصبيانية الخارقة التي يعجز العقل البشري عن تصديقها . وبعدُ فما هو هذا العقل الذي لا يقنع بغير الحقائق الملموسة والبراهين الدامغة ؟ والى أين يمتد سلطانه ؟ وهل يقف عند حد ؟

نرى ان هذا العقل ، قد أخذ في العصر الحديث ، عصر المدنية والنور ، بل عصر العلم والاختراع والابتكار ، عصر الدبابة المدمرة والطيارة المخيفة والمدفع الهدام ، والصاروخ المجنون[1] قد أخذ يجنح عن هذه المواليد المزعجة ، المصمة بضجيجها الصخاب وزمجرتها الخرساء ، الى عالم أهدأ وجو طليق من قيود المادة ومكبلاتها !

ألا ترى ان الانسان وقد سد أذنيه الا عن ضجيج هذه الآلية التي ادعى انها ابنة الحقيقة البكر ، يحاول ان يظهر في غير مظهره الصحيح ، وان يعيش حياته عبداً لهذه « الآلية » او طفلاً كبيراً يلعب لعبة خطرة ستؤدي به الى الموت ؟

ألا ترى ان هذه الحقيقة التي تجسمت في الغرب الحديث في غواصة تفجر قلب الاوقيانوسات او في طيارة تشق كبد السماوات ليست سوى بنت الخيال العتيق ، خيال الف ليلة وليلة وعفاريت سليمان وجن القصاصين ؟ وان هذا العقل الانساني لم يتوصل الى هذه الحقيقة الا بعد ان تغذّى ببساط الريح وقماقم الجن وخاتم لبيك .

ان حقيقة الانسان ، هي في قلقه الروحي ، في هذا القلق الذي لا يهدأ ولا يقف لانه ضد الهدوء وضد الوقوف ، هو قلق مستمر ، رائع في استمراره ،

---

(٢) كتب هذا البحث ولم تكن القنبلة الذرية ولا القنبلة الهيدروجينية قد ظهرتا بعد .

مدهش في عدم استقراره على حالة من الحالات ، يحتاج الى ما ينميه ويغذيه ، ويحتاج الى ما يطرفه ويسليه ، ويحتاج الى ما يرعبه ويخيفه كما يحتاج الى مايبهجه ويبهره . يتلهف الى تلقف الحقيقة العلمية فان وجدها او ظن انه وجدها، تلهف الى الخيال والاسطورة يخدر بهما اعصابه ويعيش فيهما حياته .

الهيجان والثورة والضجيج وغير المعقول والخرافات والاساطير كلها من متطلبات هذا العقل، ولا تقل حاجته اليها عنها الى الهدوء والطمأنينة والسلام والمعقول والدين والله والحق !

والعقل البشري كان ولا يزال الى الوقت الحاضر ، يعيش هذه الحياة القلقة وكان ولا يزال يجد جماله وحقيقته في مثل هذه الحياة ! أتراه يتدرج نحو الكمال تدرج الطفولة البريئة الساذجة نحو الفتوة العامرة ، النابضة بالحياة ! ولكن رياح الشيخوخة ستهب وتقضي على غضاضة الشباب لتكمل الحياة نفسها فيعود الانسان سيرته الاولى ليعيش حياته الاولى .

ان الانسان في سيرة عنترة هو الانسان في الالياذة وهو الانسان في جميع الكتب الدينية المقدسة وفي جميع الامكنة والازمنة ، ان اختلف في اللون والجنس والقوم فلا يختلف في طبيعته ومزاجه وحياته وقلقه الروحي الدائم المستمر .

ان هذه الحوادث الخارقة في تفاصيلها ، المضحكة في معانيها ، المهيجة في روحها ، ان هذه الحوادث الغريبة العجيبة في سيرة عنترة هي التي ترفع منزلة الكتاب في نظري واني أعتقد انه كان من الممكن ان تعتبر سيرة عنترة ملحمة جليلة من ملاحم العالم، لولا تراكم هذه الحوادث تراكماً يسد على القارىء انفاسه. فبمناسبة وبغير مناسبة تطير الرؤوس عن الابدان وتلتحم الابطال والفرسان مما يدل على ضعف الحبكة القصصية في هذه السيرة . ولو أردنا ان نضرب على ذلك الامثال لوجدنا الكثير منها . فالقارىء يتعجب من السبب الذي يحمل مالكاً بن قراد ، وهو عم عنترة ، على ان يكره ابن اخيه هذا الكره الشديد .

ولماذا ؟ ألأنه يطمع في الزواج من عبلة ، وهو عبد وضيع النسب من جهة امه؟ ولكن هذا العبد محا ببيض فعاله سواد لونه وفرض شخصيته على كثيرين من الابطال حتى أصبحت الملوك تجله وتحترمه وتتمنى له كل خير ؛ الا عمه مالك فلم تأخذه عليه شفقة ولم يهزه عطف . ثم يثور الملك زهير على هذا العم العنيد ويرغمه على تزويج عبلة من ابن عمها؛ فيأبى مالك ذلك دون اي مبرر، مما يدل على ان المؤلف لم يوفق في خلق الاعذار لعم عنترة .

وما نقوله عن عدم تبرير هذا الكره وهذه المعارضات لعنترة من قبل عمه نقوله عن الذين أخـذوا يعترضونه في تعليق معلقته على أستار الكعبة وقبوله كشاعر معروف ، رغم انهم كانوا يسمعون شعره ويتغنون به . قد يكون لهم عذر في موقفهم مثل هذا الموقف وقد يقبل القارىء هذا العذر فيما لو ذكرتـه السيرة او لمحت اليه على الاقل ولكنها لم تفعل .

ان مجمل الحوادث والمفاجآت ضعيفة في ابتكارها ، بسيطة عادية في نتائجها فالمعركة مثلاً تحدث لأتفه الاسباب ، وتنتهي بسرعة خاطفة ، فـلا حبكة في سردها ولا عقدة في سياقها . اما نتائجها فهي معروفة : رؤوس طائرة واجسام مجندلة وعنترة سالم من كل خطر لم يصبه اي خدش .

الياذة العرب

ورغم هذه الهفوات فان هنالك آراء عديدة وصريحـة تعتبر سيرة عنترة « اليـاذة العرب » فالزيات يقول : « هي افضل القصص العربية واولاها ان تسمى « الياذة العرب[1] » .

ويقول زيدان : « ان في قصة عنترة كثيراً من الحوادث التاريخية الجاهلية

---

(١) الزيات – تاريخ الادب العربي ص : ٢٤٩

وهي من هذا القبيل تشبه الياذة هوميروس على اختلاف بينهما باختلاف اخلاق القومين[1] » .

ويؤكد هذا الزعم احد الادباء المحدثين في بحث له فيقول :

« ان الملحمة هي رواية شعرية لوقيعة حماسية عجيبة خارقة . والغاية منها تحريك العواطف الشريفة واظهار الفضيلة سعيدةظافرة والرذيلة شقية مقهورة.

والملحمة صورة عصر وحياة شعب بوصفها الاخلاق والعقائد وعرضهامشاهد الزمان والمكان . فينبغي لها معرفة واسعة وعلم كثير وخلق كريم وفكر متوقد بالعقيدة الدينية واعجاب بالجمال والصلاح. وكل هذا موجود فيعنترة[2] »

ولقد سبق بعض المستشرقين أدباءنا المحدثين الى هذا القول. فقال ده برسفال المستشرق الفرنسي : « يرى المطالع في سيرة عنترة صورة أمينة لحياة عرب الصحراء الذين ، على ما يظهر ، لم تتأثر اخلاقهم بكرور الزمن أقل تأثير . فاكرامهم للضيف ورغبتهم في الاثثار وحبهم وسخاؤهم وحماستهم التي كانت تدفعهم الى الغزو وشغفهم الطبيعي بالشعر ، كل هذه الصفات هي مصورة تصويراً دقيقاً صادقاً وهي هي الروايات الهوميرية عن حروب العرب القديمة ومآتيهم ومآتي ابطالهم الاقدمين قبل م . ثم ان الانشاء اللبق ، المتنوع ، الذي يرتفع احياناً الى السمو الخيالي ، والاخلاق البارزة بقوة والمحددة بطريقة فنية ، كل ذلك يجعل هذه السيرة في مكان سام مرموق ، فهي على الجملة ، الياذة العرب[3] » .

ولسليمان البستاني معرب الياذة هوميروس ، بحث مطول في الالياذة والشعر

---

(١) زيدان – الهلال مج ٥ : ٧٣٠

(٢) ابو الفضل الوليد – مجلة الامالي : ١٣٨٠

(٣) Cl. Huart - Littérature Arab P: 396 Paris 1902

العربي يقابل فيه بين انواع الشعر العربي القديمة وتشابهها بالشعر الغربي ، ويحاول ان يحدد الملحمة بعد ان يعدد الملاحم العالمية ، فيخلص الى القول : ان العرب عرفوا الملاحم، وان لم يكن ذلك على الطريقة التي عرفها الافرنج ، فهناك سفر ايوب ، اذا صح ان ايوب كان عربياً، وهناك منظومات الجاهليين التي تناشدوها متغنين بحروبهم وايامهم وابطالهم كالمعلقات ، والجمهرات ، والمنتقيات ، والمذهبات والمشوبات والملحمات وغيرها من القصائد التي جمعت مزايا الشعر القصصي ومزايا الشعر الموسيقي كما جمعت الياذة هوميروس بين اطراف المحاسن في الشعر اليوناني .

ويتوسع البستاني في تعريف الملاحم فيضع بينها المقامات والقصص التي يمتزج بها الشعر والنثر كقصة عنترة العبسي ورسالة الغفران الخ الخ[1] » .

اما من حيث ادعاؤه ان سيرة عنترة تعتبر ملحمة ، ومن حيث انها تتشابه والياذة هوميروس فلم يقف البستاني عند حد القول بل أظهر في اكثر من مكان هذا التشابه وأشار اليه بشيء من التفصيل ، واليك بعض هذه المشاهد :

وصف الجثث يتشابه في شعر عنترة وشعر الالياذة ، كذلك هلاك الابطال الخصوم ووقوع الطير والكلاب بجثثهم .

شن الحرب والغارات يكون لخضد شوكة العدو وإذلاله في سبيل الغنائم . قال عنترة معرضاً بحاجة قومه اليه :

سيذكرني قومي اذا الخيل اقبلت   وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

ومثل هذا المعنى وارد في الالياذة على لسان اخيل .

تشبيه الابطال بالحصون مشترك في الشعرين اليوناني والعربي .

---

(١) سليمان البستاني – الياذة هوميروس ص : ١٦٨ - ١٧٥

قال عنترة :

انا الحصن المشيد لآل عبس إذا ما شادت الابطال حصنا

للدلالة على علو الهمة بالذود والكفاح .

وأخذ بعض النقاد على البطل « اخيل » بكاءه على حبيبته « بريسا » ولكن البستاني يجيبهم ان بكاء الابطال يتضمن معنى الشهامة والحب والغيرة ويضرب الامثلة بعنترة وامرىء القيس وغيرهما من شعراء العرب .

وفي النشيد التاسع من الالياذة قصة مفادها ان اخيل كان عالماً بما قدر له القضاء والقدر وذلك : اما ان يعيش عمراً مديداً في سعة ورفاه وخمول ذكر ؛ وإما ان يهلك في عنفوان الصبا ويعيش في شقاء ونصب ، ويخلد ذكره . فاختار قصر الحياة مع المجد الأثيل ، غير طامع في طويل العمر ورغد العيش .

ومثل هذا فعل العبسي :

لا تسقِني كأسَ الحياة بذلَّةٍ بل فاسقِني بالعزِّ كأسَ الحنظلِ
كأسُ الحياةِ بذلةٍ كجهنمٍ وجهنَّمٌ بالعز أطيبُ منزِلِ [1]

ولا ارى من الفائدة ان اعدد جميع هذه المشاهد مفصّلة ، بل اكتفي بذكر بعضها مثل : حنين الابطال الى القتال ، تشبيه سرايا الجيش بعصائب الطير . طَرب الابطال لصليل السلاح . تعظيم الحسناء . تشبيه الجيش بماء البحر . تشبيه السيوف بالبروق . وصف تصادم الجيشين . تشبيه الغبار بالليل والجد بالاقدام والذل بالاحجام . تشبيه الفرس بالريح . محاورة الحصان . وصف القتلى . حماية الجار ورعاية الضيف وكلها مشاهد تكاد تكون واحدة في تشابهها بعضها ببعض . ومن الخير مراجعتها في اماكنها [2] .

(١) سليمان البستاني – الياذة هوميروس ص : ٢٣١ .
(٢) سليمان البستاني – الياذة هوميروس ص : ١١٨٣ – ١١٨٤ .

اما برنار هلر المستشرق الالماني فيبقى في مقدمة الذين بحثوا في سيرة عنترة . فكتابه المشار اليه سابقاً، هو خير ما وضع في هذا الموضوع . وهو لا يقتصر على درس سيرة عنترة من حيثُ فنها القصصي ، بل يحاول ان يبين قيمة هذا الاثر الادبي بين الحكايات البطولية الكثيرة وخاصة اغنية رولاند . فهو يدّعي ان سيرة عنترة واغنية رولاند تتشابهان في اكثر من موضع وتتفقان في اكثر من مشهد . اما هذا التشابه وهذا الاتفاق فليسا نتيجة لأيّ سرقة ادبية او نقل ما، بل هما نتيجة لاتباع الملحمتين قواعد ادبية واحدة هي قواعد الملاحم القديمة . ثم يعدد هلر هذه المشاهد التي تتشابه في الكتابين وهي :

١ - ضرب الصخرة بالسيف وشقها .

٢ - اعتراض العمود السحري لبطلي الحكايتين .

٣ - تشابه الأبجر وبيار وهما فرسا عنترة ورولاند .

٤ - اجتماع عنترة بربيعة شبيه باجتماع رولاند باوليفيه كما ان هناك تشابهاً عظيماً بين الاحلام في الحكايتين وكذلك خاتمة كل منهما تتشابه بالاخرى [١] .

ومما لا شك فيه ان في جميع ما يقوله هؤلاء النقاد شيئاً كبيراً من الصحة يستحق الدرس والتمحيص . وها انا اكرر هنا ما قلته سابقاً من ان مثل هذه الدراسة تحتاج وحدها، لكتاب مستقل ككتاب هلر. وحبذا لو قام من يترجم هذا الكتاب الى اللغة العربية اذاً لاستطعنا ان نطلع على رأي مفصل في هذه السيرة ولعرفنا منزلتها في ادب المقارنة وخاصة بين الآداب الملحمية !

اما هذه الآراء التي ذكرت سابقاً فهي ، وان كانت على جانب كبير من الصحة ، لا تكفي لان تجعل من سيرة عنترة ملحمة من ملاحم العالم . اما انها تتبع في بعض سياقاتها قانون الملاحم فتتفق مع بعض هذه الكتب الملحمية وتلتقي اشخاصها في اخلاقهم ونفسياتهم بابطال الملاحم العالمية ، وانها تبقى ، بعد كل ذلك سجلاً ضخماً لمآثر العرب في العصر الجاهلي وحروبهم وانتصاراتهم ، فهذا حق صريح ، لا سبيل الى انكاره ، وهي في ذلك اعظم القصص البطولية واطولها واكثرها شيوعاً . وهي ، في ذلك ، **الياذة العرب** .

---

(١) Heller B. - Die Bedentung... pp, 99,

الفصل الثالث

القصص الديني

١ – تعريفه

٢ – أول قاصّ في الاسلام .

٣ – مادة القصص الديني .

٤ – قصة آدم
- ا – صفة آدم
- ب – آدم في الجنة
- ج – توبة آدم
- د – وفاة آدم
- ه – آدم في القرآن وفي التوراة

٥ – قصة نوح
- ا – سفينة نوح
- ب – قصة نوح في الكتب الدينية

٦ – قصة ابراهيم
- ا – ولادته
- ب – ابراهيم والاصنام
- ج – ابراهيم والنمرود

٧ — قصة يوسف
- ا — رؤيا يوسف
- ب — يوسف وامرأة العزيز
- ج — يوسف يسجن ثم يطلق سراحه

٨ — قصة عيسى
- ا — عجائب عيسى
- ب — عيسى في القصص الديني

٩ — قصة محمد
- ا — ولادته
- ب — محمد وسائر الانبياء
- ج — موت محمد

١٠ — مزايا القصص الديني
- ا — الصبغة الاسلامية
  - تفضيل محمد
  - تقديس يوم الجمعة
- ب — الخوارق
- ج — أثر التوراة
- د — المغزى
  - ١ — الاجتماعي
  - ٢ — الديني الاخلاقي
- ﻫ — روعة الوصف وغرابته

١١ — رأي خاص

ما هو القصص الديني ؟

عنينا بالقصص الديني كل حكاية كان موضوعها الأساسي الدين والرسل والانبياء. وهذا القصص قديم في الاسلام قدم الاسلام نفسه. ففي القرآن الكريم حكايات عن الامم الغابرة والشعوب القديمة التي سبقت الاسلام وهي تختلف في طولها وقصرها. جاء في سورة يوسف : «نحن نقص عليك أحسن القصص [١]». وفي مكان آخر : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب [٢] » .

وجاء في سورة الكهف ، وأهل الكهف كانوا مادة طيبة للقصص والحكاية، ما يلي : «نحن نقص عليك نبأهم بالحق، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى[٣]».

وفي سورة الاعراف : « ... فاقصص القصص لعلهم يتفكرون [٤] » . وفي سورة مريم ويوسف والانبياء وغيرها ما يوحي القصة بكل ما في هذه الكلمة من معنى القصة .

أول قاص في الاسلام

تكاد تجمع المصادر على ان أول قاصّ في الاسلام هو تميم الداري . جاء عن ابن شهاب : « أول من قصّ في مسجد رسول الله ، ﷺ ، تميم الداري. استأذن عمر ان يذكر الناس فأبى عليه حتى كان آخر ولايته فاذن له ان يذكر في يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر، فاستأذن تميم عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، في ذلك ، فاذن له ان يذكر يومين في الجمعة . فكان تميم يفعل ذلك [٥] . وقيل ان النبي حدّث عن تميم حديث الجسّاسة وهو حديث صحيح [٦] . وحديث الجساسة ،

---

(١) القرآن ـ سورة ١٢ آية ٣ .
(٢) القرآن ـ سورة ١٢ آية ١١١ .
(٣) القرآن ـ سورة ١٨ آية ١٢ .
(٤) القرآن ـ سورة ٧ آية ١٧٥ .
(٥) المقريزي ـ الخطط والآثار ج ٢ : ٢٥٣ .
(٦) ابن الاثير ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ص : ٢١٥ .

فيما يذكرون ، ان تميماً حدث انه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجـذام فلعب بهم الموج شهراً في البحر ، ثم أُرفئوا الى جزيرة في البحر ، حين مغرب الشمس ، فجلسوا في أقرب السفينة ، فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابـــة اهلب ، كثيرة الشعر ، فقالوا : ويلك ما انت ؟ فقالت : أنا الجساسة. وسميت الجساسة لأنها تتجسس الاخبار فتأتي بها الدجال [١] .

ويروى عن تميم هذا وكان نصرانياً فاسلم ، انه كان كثير التهجد ، وان روح ابن زنباع زاره مرة فوجده ينقي شعيراً لفرسه ، وحوله أهـله . فقال له روح : امـا كان في هؤلاء من يكفيك ؟ قال : بلى ولكني سمعت رسول الله ، ﷺ ، يقول : « ما من امرىء مسلم ينقي لفرسه شعيراً ثم يعلقه عليه الا كتب الله له بكل حبة حسنة [٢] » .

واهتم بعض الرجال المسؤولين من الدولة الاموية ، بالقصاص فكانوا يعينون بعضهم لوعظ الناس وسرد الحكايات الدينية عليهم في المساجد ، كما ان بعض القضاة كانوا يجمعون الى القضاء وظيفة القاص كسليم بن عتر النجيبي ، فقد روى الكندي في كتابه : « الولاة وكتاب القضاة » وهو يترجم لسُليم قال : « لقد ولي القضاء بها (أي بمصر) سليم بن عتر التُجيبي سنة أربعين من قبل معاوية وكان قبل القضاء قاصاً فجمعا له » . وسليم هو أول من قص بمصر ، كان يقص على الناس ، وهو قائم ، وكان يرفع يديه في قصصه ، ولقد بعث يزيد بن معاوية سليم ابن عتر هذا مع بعض أصحابه الى عبدالله بن عمرو ، وكان قد كره مبايعة يزيد بالخلافة ، ليعظوه في البيعة فقال عبدالله :

« ... وأما أنت يا سليم بن عتر فكنت قاصاً . فكان معك ملكان يفتيانك ويذكرانك. ثم صرت قاضياً فمعك شيطان [٣] يزيغانك عن الحق ويفتنانك[٤] » .

---

(١) احمد امين ـ فجر الاسلام : ١٩٠ و ١٩١ وراجع ايضاً تاج العروس مادة الجساسة .
(٢) ابن الاثير ـ اسد الغابة ص : ٢١٥ .
(٣) كذا في الاصل .
(٤) الكندي ـ كتاب الولاة والقضاة ص : ٣٠٣ ـ ٣١١ .

والمقول ان السبب في وجود مثل هذا النوع الرسمي من القصص ان علياً لما رجع من صفين قنت فدعا على من خالفه ، فبلغ ذلك معاوية فأمر من يقص بعد الصبح وبعد المغرب ان يدعو له ولأهل الشام ، وكتب بذلك الى الامصار[1] .

وقسّموا هذا القصص الى نوعين : قصص العامة وقصص الخاصة . وقصص العامة مكروه لمن سمعه ولمن فعله، وهو ان يجتمع القاص بنفر من الناس فيعظهم ويذكرهم .

اما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية : « ولى رجلاً على القصص ، فاذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله، عز وجل، وحمده ومجده وصلى على النبي، ﷺ ، ودعا للخليفة ولاهل ولايته ولحشمه وجنوده ودعا على اهل حربه وعلى المشركين كافة[2] » .

وكان القصاص أصنافاً وانواعاً . فمنهم الرواة الذين يخلطون بين الحقيقة والاسطورة ؛ ومنهم الذين يتحرون الحقيقة فيتحرجون عن رواية غير الحق والصواب . فمن الرواة الذين قرأوا الكتب الكثيرة ورووا الروايات المختلفة وشك المؤرخون في رواياتهم : وهب بن منبه وكعب الأحبار وسيأتي الكلام عنهما فيما بعد . ومن القصاص الذين كانوا يعتمدون على الآيات القرآنية وحث الناس على التوبة والموعظة الحسن البصري .

وكان للقصاص عادة في رفع ايديهم وهم يقصون وهي عادة مقتبسة عن عبد الملك بن مروان . فقد قيل ان هذا الخليفة شكا الى العلماء ما انتشر عليه من امور رعيته وتخوفه من كل وجه فاشار عليه ابو حبيب الحمصي القاضي بان يستنصر عليهم برفع يديه الى الله قال: فكان عبد الملك يدعو ويرفع يديه وكتب بذلك الى القصاص فكانوا يرفعون ايديهم بالغداة والعشي[3] .

---

(١) الكندي ـ كتاب الولاة والقضاة ص: ٣٠٤ الهامش عدد ١ كذلك المقريزي ـ الخطط ج ٢ : ٢٥٣ .

(٢) المقريزي – الخطط ج ٢ : ٢٥٣ .

(٣) المقريزي – الخطط ج ٢ : ٢٥٤

ولقد مر معنا ، ونحن نتحدث عن سليم بن عتر ، اول قاص في مصر ان هذا القاص كان يرفع يديه في قصصه وذلك في زمن يزيد بن معاوية قبل عبد الملك بن مروان . فكيف نستطيع التوفيق بين هذين القولين ؟

نرى من كل ما تقدم ذكره ان القصص نشأ في اول عهده حول الدين والرسل والانبياء ، روايات وحكايات ، واحاديث ووقائع ينشرها بين الناس جماعة من الناس وهبوا مقدرة على الكلام وزلاقة في اللسان فراحوا يبثون هذه الاحاديث ، تارة في سبيل الوعظ والارشاد وطوراً للتهديد والترغيب !

مادة القصص الديني

وارتقى القصص الديني وخطا خطوة كبيرة على يد المؤرخين والمحدثين وشرّاح القرآن الكريم . فذكر الطبري والزمخشري وغيرهما من الشراح عشرات الحكايات ومئات الروايات ليستعينوا بها على شرح الآيات القرآنية .

وقام من يجمع هذه الحكايات ، وهي تروى على السنة الرواة ، بين دفتي كتاب في العصر العباسي ، كما ان بعض الادباء العباسيين ، راح يقص حكايات الانبياء سارداً تاريخ حياتهم ، حاثاً على اقتفائهم والاقتداء بهم فكان لنا من كل ذلك الكتب التالية :

١ – كتاب قصص الانبياء المسمى بالعرائس للثعالبي سنة ٤٢٧هـ – ٤٣٧هـ ؟

٢ – كتاب قصص الانبياء للكسائي من مواليد القرن الخامس الهجري .

٣ – قصة اهل الكهف .

٤ – قصة شمشون النبي للنيسابوري سنة ٤٢٧هـ . وهي قصة تاريخية ضمن مجموعة طبعت في القاهرة سنة ١٢٩٩هـ .

٥ – قصة سيدنا عيسى وامه مريم . ضمن مجموعة مخطوطة .

٦ – قصة سيدنا موسى الكليم ابن عمران – مخطوطة .

٧ - قصة سيدنا يعقوب ابن سيدنا ابراهيم .

٨ - قصة سيدنا يوسف الصدّيق طبعت سنة ١٢٧٩هـ .

هذه بعض الكتب القصصية الدينية التي استطعنا ان نعثر عليها في بحثنا . ولسنا بحاجة الى القول اننا لم نستطع ان نراها جميعها لان بعضها ، كما يبدو ، لم يُطبع بعد ، ولان البعض الآخر ليس موجوداً في مكاتبنا العربية .

على ان اعظم هذه الكتب القصصية الدينية واطولها، والصقها بالفن القصصي الديني هما كتابان : كتاب الثعالبي وكتاب الكسائي . وسنحاول ان ندرس القصص الديني من خلال هذين الكتابين لانهما اجمع المصادر لهذا القصص واشملها.

قصص الانبياء - للكسائي : في المجلد الاول من قصص الانبياء يتحدث الكسائي عن اللوح والقلم وخلق الماء والعرش والارض والسماوات والشمس والقمر والجنة والنار . ويصف جهنم وكيف خُلق آدم وكيفية دخول الروح في جسده ، ويروي حديث الطاووس والحية مع ابليس وكيف اخرج آدم من الجنة . ثم يأخذ بسرد تاريخ حياة الانبياء الذين جاءوا بعد آدم كادريس ونوح وحام وهود وصالح وثمود وابراهيم واسماعيل ولوط واسحق ويعقوب وعيسو ويوسف مع اخوته ثم ايوب النبي وشعيب ومنشى .. الخ . وفي المجلد الثاني يتناول المؤلف حديث يوشع بن نون ويوسافس بن كالب ، ولعازار وشمويل وداؤد وابسالوم وسليمان ويونس وعيسى بن مريم الخ ..

ولقد ذكر المؤلف في مقدمة كتابه « انه جمع في هذا الكتاب المنبهات في خلق السماوات والارضين وخلق الجن والانس واحوال النبيين ، على قدر ما بلغنا من احوالهم واخبارهم بعد ما اجتهدت فيه وجربت ما قرب وما بعد مما وافق الحق، فهو الذي وضعته وما كان منها بخلاف الحق فأثمه على من وضعه[1] ».

العرائس - للثعلبي

ولا يختلف كتاب الثعلبي في جوهره عن كتاب الكسائي . فكلاهما ينهج

---

(١) الكسائي - قصص الانبياء ج ١ : ٦ .

نهجاً واحداً ويتناول موضوعاً واحداً وان اختلفا في الاسلوب وطريقة العرض. ويرى الثعلبي في مقدمة كتابه ان الحكماء ذكروا ان الله قصّ عــلى النبي محمد القصص لخمسة امور :

١ – لاظهار نبوته وللدلالة على رسالته .

٢ – للاقتداء بمكارم اخلاق الرسل والانبياء المتقدمين والاولياء الصالحين .

٣ - تثبيتاً للنبي محمد واعلاء شرفه وشرف امته .

٤ – تأديباً وتهذيباً لأمته – لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب .

٥ – احياء لذكرى الماضين وآثارهم (١) .

والمستنتج من اكثر هذه الحكايات الدينية انها وضعت لأعطاء العظة والحكمة. وهي تعتمد على القرآن واقوال المفسرين والمحدثين . وتعتمد ايضاً على اخبار الاولين من حكايات واساطير وروايات وخرافات واسرائيليات « لا يمكن ان تصدق ولا تكذّب » على حد تعبير ابن كثير (٢) .

وينقل مؤلفو هـــذا النوع من القصص عن اليهود والنصارى وعن العهدين القديم والجديد ، اخباراً وردت صحيحة في هذه الكتب واخرى لا صحة لها ولا اثر كما سنرى .

ولقد تناول هذا القصص ، فيما تناوله ، حياة الانبياء والاولياء والرسل ، معتمداً على المصادر التي مر ذكرها فجاء فنـــاً قصصياً قائماً بذاته ، تختلط فيه الحقيقة بالخيال ، ويمتزج فيه الدين بالاسطورة فيقف القارىء منه موقف المصدق تارة والمكذب تارة اخرى .

على اننا سنعرض لحياة بعض الانبياء والرسل والاولياء الذين وردت اسماؤهم في هذا القصص وسندرس بشيء من التروي والتعمق قيمة هذا القصص الادبية الفنية . فنلم بامور كثيرة اهمها : تأثر هذا القصص بالتوراة ، وما جاء فيه مــن

---

(١) الثعلبي – العرائس ص : ٢ و ٣ .

(٢) عبد الوهاب النجار – قصص الانبياء ص : ١١ ٤ الهامش .

روايات عجيبة وخوارق يصعب على العقل والمنطق هضمها وتصديقها . ثم نمر بالعبر والدروس الاخلاقية التي يمكن للدارس ان يستنتجها . ولنبدأ بآدم ابي البشر .

قصة آدم

قبل ان نذكر كيف خلق الله آدم لا بد لنا من ذكر كلمة عن الارض ومن كان يعيش عليها قبل آدم . قيل : « كانت السماء تفتخر على الارض وتقول لها : ربي رفعني فوقك ، فانا الخلق الاعلى ، واني مسكن الملائكة ؛ وفيّ العرش والكرسي ، والقلم والشمس والقمر والنجوم ، وفيّ خزائن الرحمة ومني ينزل الوحي اليك » .

وقالت الارض : « الهي بسطتني ارضاً واستودعتني بنبت الاشجار والنبات والعيون ، وارسيت على ظهري الجبال ، وخلقت عليّ انواع الثمار ، وهذه السماء تفتخر علي بما خلقت فيها من الملائكة يسبحونك . وقد اخذتني الوحشة اذ ليس علي خلق يذكرونك . فنوديت الارض : اسكني فانا خالق من اديمك صورة لا مثل لها في الحسن وارزقها العقل واللسان ، واعلمّها من علمي ، وانزل عليها من ملائكتي ، ثم املىء منها بطنك وظهرك وشرقك وغربك فافتخري يا ارض على سمائي بذلك . فاستقرت الارض وهي ، مع ذلك ، بيضاء نقية كأنها الفضة البيضاء . فاشرفت الجان والى ما فيها من الوحش والسباع والهوام. فسألت الله ان يهبطها اليها فاذن الله لهم في ذلك ، على ان يعبدوه ولا يعصوه . فاعطوه العهد على ذلك ، وهم سبعون الف قبيلة، فعبدوا الله تعالى حق عبادته دهراً طويلاً ثم اخذوا في المعاصي وسفك الدماء حتى استغاثت منهم الارض وقالت : الهي ، ان خلوّي احبّ الي من ان يكون على ظهري من يعصيك . فاوصى الله تعالى الى الارض : ان اسكني فانني باعث اليهم رسولاً [1] . وقد ارسل الله للجان ثمانمائة نبي في ثمانمائة سنة فقتلوهم جميعاً بعد ان كذبوا دعوتهم . فما كان من

---

(١) الكسائي – قصص الانبياء ج ١ : ٦ .

الله الا ان امر ابنـاء الجن الذين في السماء ، وعلى رأسهم إبليس ، بالنزول لمقاتلة جان الارض فقاتلوهم وكان الفوز لابليس . فرفعه الله اليه . وكان ابليس يتنقل من سماء الى سماء يقضي السبت في السماء الدنيا والاحد في السماء الثانية فالثالثة فالرابعة الى السابعة . حتى حسدته الملائكة على تقدير العلي له ، وفي مقدمتهم جبريل وميكائيل .

هكذا كانت الارض قبل آدم .

ويمر دهر طويل بعد ذلك ، فيأمر الله جبريل ان يهبط الى الارض ويقبض قبضة من شرقيها وغربيها وسهلها وجبالها ليخلق منها خلقاً جديداً يجعله افضل المخلوقات جميعها . ولكن ابليس العابد ، وهو رأس الزاهدين ، ينصح الارض لكي تقسم على جبريل الا يقبض منها شيئاًلئلا تكونسبباً في اعطاء الحياة لمخلوق يعصي الله فيعذب بالنار . ويرتعد جبريل من قسم الارض ويرجع الى الله دون ان يأخذ من الارض شيئاً فيرسل الله ميكائيل ليأتيه بالقبضة فتفعل الارض معه ما فعلته بجبرائيل فيطيعها . عندئذ بعث الله عزرائيل ملك الموت ، فلما هم ان يقبض من الارض قبضة اقسمت عليه مثلما اقسمت على جبرائيل وميكائيل فقال لها : « وعزة ربي وجلاله لا اعصيه امراً امرني به ثم قبض منها قبضة من جميع بقاعها ، عذبها وحلوها ، ومالحها ومرّها ، وطيبها وحمله الى الله بعد ان اخبره بما جرى له مع الارض . فقال الله : « وعزتي وجلالي لاخلقن مما جئت به خلقاً ولأسلطنك على قبض ارواحهم ، لقلة رحمتك . فجعل الله نصف تلك القبضة في الجنة ونصفها في النار [1] » .

وخلق الله آدم ، كما خلق كل بني البشر من تلك القبضة ، ورأس آدم من الارض الاولى، وعنقه من الثانية، وصدره من الثالثة ويداه من الرابعة، وبطنه وظهره من الخامسة ، وفخذاه وعجزه من السادسة ، وساقاه وقدمـاه من السابعة [2] .

---

(١) الكسائي – قصص الانبياء ج ١ : ٢٣ .

(٢) الكسائي – قصص الانبياء ج ١ : ٢٤ .

هذا ما حدث به وهب بن منبه . اما ابن عباس فقال : « خلق الله ادم من اقاليم الدنيا . فرأسه من تربة الكعبة ، وصدره من تربة الدهناء ، وبطنه وظهره من تربة الهند ، ويداه من تربة المشرق ، ورجلاه من تربة المغرب [1] .

صفة آدم

فآدم اذاً مخلوق عظيم لم يسبق ان شهدت الملائكة او اي المخلوقات قبله نظيراً له . وتنظر الملائكة الى هذا المخلوق الجديد « كأنه الفضة البيضاء [2] » كيف البسه الله من لباس الجنة وزينه بانواع الزينة ، ورفعه على سرير وحمله على اكتافهم وقال لهم : طوفوا به في سماواتي ليرى عجائبها وما فيها [3] .

ولم يستنكف جبريل ان يأخذ بلجام الميمون وهو الفرس الذي خلقه الله من المسك الاذفر بجناحين من الدر والجواهر ليركبه ادم في طوافه في السماء. كذلك كان ميكائيل عن يمينه واسرافيل عن شماله . بينما كان يطوف جميع السماوات . وقد اصطفت حوله الملائكة وضُربت له في الصفح الاعلى قباب من الياقوت الاحمر والزبرجد الاخضر . فكان يمر بالملائكة يحييهم وعليه ثياب سندس في رقاقة الهواء وله صفرتان مرصّعتان بالجواهر محشوّتان بالمسك والعنبر ، وعلى رأسه تاج من الذهب مرصع بالجواهر له اربعة اركان في كل ركن منها درّة عظيمة يغلب ضوءها ضوء الشمس والقمر وفي اصابعه خاتم الكرامة ، وفي وسطه منطقة الرضوان ، وله نور ساطع في كل غرفة في الجنة .

بهذه الزينة التي تدهش اهل الارض والسماء وقف آدم خطيباً في الملائكة فحمد الله وتحدّى الملائكة ليخبروه باسماء المخلوقات فما استطاعوا فجعل يخبرهم باسم كل شيء خلقه الله في البر والبحر حتى الذرة والبعوضة .

---

(١) الكسائي – قصص الانبياء ج ١ : ٢٤ .

(٢) الكسائي – قصص الانبياء ج ١ : ٢٧ .

(٣) الثعلبي – العرائس ص : ١٨ .

آدم في الجنة

وخلق الله حواء على طول آدم وعلى حسنه وجماله ولها سبعمائة ضفيرة مرصّعة باليواقيت ، محشوة بالمسك ، وزوّجه اياها بأبهة وعظمة . فوُضِع لآدم كرسي من جوهر وجلس عليه وكان الخاطب جبريل والشهود الملائكة فنثروا على العروسين نثار الجنة وقال الله تعالى لآدم :

« حواء أمتي وانت عبدي . يا آدم ! ما خلقت من هو أكرم عليّ منكما اذ انتما أطعتماني . وقد خلقت لكما داراً وسميتها جنتي . فمن دخلها كان وليي حقاً ومن لم يدخلها كان عدوي حقاً[1] » .

ويأمر الله جبريل ليأمر رضوان حارس الجنة باحضار ميمون فرس آدم الذي خلقه الله خمسمائة سنة قبل ان يخلق آدم ، ذلك الفرس المخلوق من مسك الجنة ممزوجاً بماء الحيوان ، ذلك الفرس الذي عرفه من المرجان وناصيته من الياقوت وحوافره من الزُبرجد وأجنحته من الجواهر . فيصدع رضوان بالامر ويفتح ابواب الجنان وينادي الميمون فيقبل بالتسبيح والتقديس والتهليل حتى يقف بين يدي جبريل فيوقفه بين يدي آدم فيستوي على ظهره ويأخذ جبريل بركابه وجيء لحواء بناقة فاستوت عليها ودخل الاثنان وحولهما الملائكة صفوفاً صفوفاً الى ان بلغوا باب الجنة .

ولما توسط آدم وحواء الجنة ، جنة عدن ، نظر فاذا هو بسرير من جوهر له سبعمائة قائمة من انواع الجواهر ، وله شرافات كثيرة ، وعلى السرير فرش من السندس والاستبرق . وبين الفرش كثبان المسك والعنبر ، وعلى السرير اربع قباب : قبة الرضوان ، وقبة الغفران ، وقبة الخلد ، وقبة الكرم . وكان عن يمين السرير جبل من مسك وعن يساره جبل من عنبر وشجرة طوبى . وبقي ادم مع حواء في الجنة خمسمائة عام من اعوام الدنيا في أتم سرور وأنعم الاحوال . وكان ادم يتمشى في ميادين الجنة وحواء خلفه تسحب سندسها ، وكلما تقدما من قصر الى قصر نثرت عليهما الملائكة من نثار الجنة حتى يرجعا الى سريرهما .

---

(١) الكسائي : قصص الانبياء ج١ : ٣١ و ٣٢

وقضى ادم مع حواء خمسمائة سنة في الجنة في أتم سرور وأنعم بال الى ان وقع في الخطيئة ، بعد ان طغاه ابليس بان احتال على الحيـــة ودخل معها الجنة وهو مختبىء بين انيابها .

وأُخرج ادم من الجنة . وحُجبت عنه حواء . وكانت الملائكة تخافه وهي تنظر اليه عريان. وأهبط الى بلاد الهند، على جبل من جبالها يقال له سرنديد[١] وأخذ في البكاء حتى بكى مئة عام ليلاً ونهـاراً ، وهو لا يرفع رأسه الى السماء حتى أنبت الله من دموعه العود الرطب والزنجبيل والصندل والـكافور والغرغر والقماري وانواع الطيب كله ، ولهذا السبب يعزون كثرة المسك الى بلاد الهند . وكانت الطيور والسباع والهوام والوحوش تشرب من دموع ادم لغزارتهـــا . وبكت حواء فأنبت الله من دموعها القرنفل والافارغة . ولقد استطاع ادم ان يتكلم وحواء عن بعد سحيق. كانت الريح تحمل كلام ادم الى حواء وكلام حواء الى ادم فيظن كل واحد منهما انه قريب من صاحبه . وبينهما البلاد البعيدة !

ولقد ألقى هبوط ادم الى الارض الرعب في روع الحيوانات من برية وبحرية . فالنسر يحمل الخبر الى الحوت ويستعيذان من هذا المخلوق الجديد قائلين : الويل لاهل البر والبحر من هذا الانسان !

توبة ادم

قيل ان ادم بكى على فراقه الجنة ، بكاء لو وضع في كفة ووضع في الكفة الاخرى بكاء يعقوب على يوسف وبكاء داود على خطيئته، مع جميع الخلق لرجح بكاء ادم على بكائهم !

وقيل انه قام على بكائه ثلاثمائة عـام لا يرفع رأسه الى السماء وهو يقول : اللهم بأي وجه انظر الى السماء وانا نزلت منها عريان عاصياً ؟

---

(١) كذا في الاصل وهو في جزيرة سرنديب . جاء في معجم البلدان ليانوت مج ٣ : ٨٢ ما يلي : « وفي سرنديب الجبـــل الذي هبط عليه آدم يقال له الرهون وهو ذاهب في السماء يراه البحريون من مسافات ايام كثيرة » .

وسمع الله نداء ادم وقبل توبته فأرسل ملاكه جبريل ليحييه وليمسح دموعة ويعلمه الكلمات ، فصدع جبريل بالامر وحمل الكلمات ونشر جناحيه فأمرّهما على وجه ادم فهدأ بكاؤه فقال له : يا ادم : لقد غفر الله خطيئتك وقبل توبتك ولقد أبكيت اهل السماوات والارض فاليك الكلمات وهي كلمات الرحمة والغفران . واما هذه الكلمات فسيأتي الحديث عنها . وشكر الله ادم وطلب المغفرة لنفسه ولأولاده من بعده . فانتشر صوته في الآفاق وضجت الارض والجبال والشجر من ذلك الصوت الرهيب. ثم رفع رأسه فرفع له حجاب النور وفتحت له ابواب السماوات وحاول ان يقوم فلم يقدر لان رجليه كانتا راسختين في الأرض كعروق الشجر فاقتلعه جبريل اقتلاعاً صاح ادم على اثره من شدة الالم . فقال له جبريل هكذا تفعل الخطيئة باهلها .

وأخذ ادم يعمل وامرأته حواء في الارض ، يحرث ويزرع ويحفر الابار . ولم تنقطع عنه الملائكة بل كانت تعلمه كيف يتصرف في شؤونه ويداري اموره ويداوي جوعه وعطشه . فكانت الكباش تأتيه من الجنة وهو يذبحها ليأكل لحمها ثم يجز صوفها ويغزله مع زوجته لينسجاه لهما ثياباً .

وفاة ادم

وبعد ان عمرت الارض كلها وذلك بفضل ادم وعمله المستمر واهتمامه الشديد بغرس الاشجار والحرث والزراعة استوفى مدته . فأوصى الله اليه : يا ادم قد قرب اجلك . فخاف آدم من الموت وخاصة عندما عرفه الله بان الموت « هو أشد مرارة من السم القاتل وانه يذهب بالنضارة من الوجه والكلام مع الحسن والجمال حتى يعود الجسم كما كان[1] » .

ولكن ادم عاد ففهم ان الموت هو الحتم الذي كتبه الله على جميع خلقه وان الملائكة قيام في السماء قد نشروا اجنحتهم وفي ايديهم ألوية الكرامة ينتظرونه ليستقبلوه استقبالاً عظيماً وان الله لو خلد احداً في الدنيا لكان خلد ادم . لذلك

(١) الكسائي : قصص الانبياء ج ١ : ٧٤

صدع بالامر أمر الخالق العظيم وأجـاب ملك الموت : « اني سميع مطيع لامر ربي » فناوله ملك الموت شراب الفراق فشربه وفارق الدنيا وعمره الف سنة . فلم يبق على وجـه الارض والسماوات شيء إلا بكى عـلى ادم . بكت عليـه الوحوش والسباع والطيور والهوام وكسفت الشمس . وعندمـــا علمت حواء بموت زوجها ، وكان ادم قد أمر بألا تخبر زوجته بوفاته الا بعد دفنه ، صاحت صيحة عظيمة ومزقت ثوبها ولطمت وجهها ودقت على صدرها ، ولزمت قبره لا تأكل ولا تشرب الى ان حان حينها ففارقت الدنيـا وكفنت كـآدم في كفن من الجنة ودفنت الى جنب زوجها ، رأسها على رأسه ورجلاها عند رجليه .

آدم في القرآن والتوراة

يرى القارىء مما تقدم ان هذا القصص الديني يتناول حيـاة ابي البشر بشيء كثير من التفصيل والتزويق اللـذين لا اثر لهما في القران او في التوراة . ولقد سبق القول ان هذا القصص وضع اول ما وضع ، في سبيل تفسير القران وخدمة لفهم اياته . ولكن واضعيه اشتطوا عن الطريق القويم واستسلموا لخيلاتهـــم فابتكروا الخوارق وابتدعوا العجائب فجاء قصصهم ملونـــاً بالف لون لا يمت بصلة الى اي كتاب من الكتب الدينية . وتصديقاً لادعائي هذا فقد راجعت حياة ادم في الكتاب المقدس وفي القران الكريم فلم أعثر عـــلى شيء من هذه الاخبار الخارقة التي مرت بنا والى القارىء نتفاً عن حيـــاة الانسان الاول كما وردت في القران .

هناك ايات تدل على ان الانسان خلق من طين[١] .

هو الذي خلقكم من طين . الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه اذ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من طين ، فـاذا سويته ونفخت فيه من

---

(١) سورة الانعـــام آية : ٢. سورة السجده آيات: ٧و٨و٩. سورة (ص) ايات: ٧١ و٧٢ . سورة المؤمنون ايات : ١٢و١٣و١٤ .

روحي فقعوا له ساجدين » . وليس في القرآن الكريم تفصيل لخلق آدم بل هو يزيد على ما تقدم قوله :

« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر . فتبارك الله احسن الخالقين » .

فانت ترى ان القرآن الكريم يوجز ايجازاً كلياً في خلق آدم ، كما انه لا يشير الى موته ، على ما نرى ، ولكنّ في هـذا الايجاز مجالاً كبيراً للتفكير وللشرح والتأويل. وقد استغل القصاص هذا الايجاز فجاءوا بقصصهم الذي نحن بصدده.

ولو رجعنا الى التوراة لوجدنا ان قصة آدم مذكورة في سفر التكوين في الاصحاحين الثاني والثالث، وهي لا تختلف عنها في القرآن اختلافاً جوهرياً وان جاءت اكثر تفصيلاً في بعض الأمور :

« وجبل الرب الإله ادم تراباً من الارض. ونفخ في انفه نسمة حياة . فصار آدم نفساً حية . وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً ووضع هناك ادم الذي جبله . وانبت الرب الاله من الارض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل . وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر [(١)] » .

ثم تشير التوراة الى وصف هذه الجنة والى وصية ادم ليأكل من جميع اشجار الجنة الا من شجرةمعرفة الخير والشر، ثم الى خلق حواء من اضلاع ادم وحياتهما معاً سعيدين هنيئين الى ان استطاعت الحية ان تحتال على حواء وتخدعها؛فتحملها على اكل الثمرة المحرمة وإطعام ادم منهـا فيقعان في الخطيئة ويبدو لهما عريهما فيختبئان من وجه الرب الاله في وسط الجنة . ثم تذكر التوراة مخاطبة الله لآدم وحواء وفرض القصاص عليهما . وتذكر ايضاً ان ادم توفي وله من العمر تسع مائة وثلاثون سنة [(٢)] » .

---

(١) الكتاب المقدس ـ سفر التكوين الاصحاح ٢ : ٧ و ٨ و ٩ .

(٢) الكتاب المقدس ـ سفر التكوين الاصحاح ٥ : ٥ .

وليس الاختلاف بيّناً في قصة آدم وحواء كما وردت في الكتابين الكريمين الا في بعض مسائل طفيفة :

اولاً: ان الذي اغرى آدم وحواء للوقوع في الخطيئة هو ابليس على حد قول القرآن وهو الحية على قول التوراة .

ثانياً: ان القرآن يذكر الحوار بين الله وبين ملائكته عن عزمه على خلق آدم وعن وجوب سجودهم له . وليس شيء مثل هذا في التوراة .

ونحن نلاحظ ان واضعي القصص الديني متأثرون الى حد بعيد بالتوراة ولكنهم وقعوا في اخطاء كثيرة، وهم ينقلون هذه الاخبار. وسنبرهن على خطئهم فيما بعد .

هذه هي حكاية خلق آدم كما رواها رواة القصص الديني مستندين على القرآن تارة وعلى الاسرائيليات طوراً ؛ وها اننا موردون هنا نتفاً من حكايات بعض الرسل والانبياء لاعطاء القارىء صورة صحيحة عن هذا القصص ، متوخين من ذلك دراسة هذا القصص واستجلاء ما فيه من عناصر التشويق واللذة والفن .

وسنتناول ، بايجاز كلي بعض النقاط في حياة كل من نوح وابراهيم ويوسف وعيسى ومحمد .

نوح

هبط جبريل بأمر الله وبشر نوحاً بالنبوة والرسالة وارسله لينذر قومه الكفرة اولئك القوم الذين كانوا يخرجون في يوم عيدهم، جميع اصنامهم ينصبونها على اسرتها وكراسيها ويقربون القرابين بين ايديها ويشربون الخمور ويضربون بالصنوج ويرقصون ويأتون الفواحش على احط انواعها . وكان نوح يقف بين هؤلاء الناس الفجار واعظاً ويدعوهم الى عبادة الله الواحد القهار فلا يسمع له احد منهم الا امرأة اسمها عمورة وهي التي تزوج منها واولدها ثلاثة بنين : سام

وحام ويافت وثلاث بنات : حصورة وميشورة وبحبورة . واتهم نوح بالجنون والكذب وكانوا يجرونه برجله فيلقونه على المزابل فيغشى عليه وهو صابر على اعمالهم المنكرة يذكر لهم عجائب الله فلا يسمعون له بل يضعون اصابعهم في اذانهم ولا يزدادون الا عتواً .

ومضى على نوح ستة قرون (والقرن مئة سنة) وهو يعظهم فلا يتعظون ويأتي اصنامهم في الليل ويسفهها منادياً باعلى صوته : « يا قوم قولوا لا اله الا الله واني نوح نبي الله ورسوله ». فيتهمونه بالجنون ويضربونه ضرباً مبرحاً ويدوسون في بطنه الى ان اوصى الله اليه ان اصنع الفلك فعلم نوح ان الله سيغرق القوم الفجّار بالطوفان .

سفينة نوح

وصنع نوح السفينة بمساعدة اولاده « فجعل رأسها كرأس الطاووس وعنقها كعنق النسر ووجهها كوجه الحمامة وكوثلها كذنب الديك ومنقارها كمنقار الباز واجنحتها كأجنحة العقاب [١] » .

اما طولها فيبلغ الف ذراع وعرضها خمسمائة وسمكها ثلاثمائة . هذا على رواية الكسائي [١]. اما في العرائس فيبلغ طولها ١٢٠٠ ذراع وعرضها ستماية[٢].

ووضع نوح في السفينة طبقات طبقات خص بعضها بالدواب والوحوش وبعضها بالطير واجناسها والهوام الطائرة وغير الطائرة . ووضع في الباب الاول الرجال وجسد ادم وهو غض لم يتغير منه الا أظافره .

وامر الله السفينة ان تطوف بنوح اقطار الارض والدنيا فطافت بأهلها الأرض كلها في ستة أشهر لا تستقر على شيء حتى بلغت بيت المقدس فوقفت

---

(١) الكسائي - قصص الانبياء ج ١ : ٩٢ .

(٢) الثعلبي - العرائس ص ٣٧ .

ونطقت واخبرت نوح بان هذا المكان هو الذي ستسكنه الانبياء من بعد نوح . ثم سارت الى الكعبة ونطقت بالتلبية !

واستوت السفينة بعد هذا التطواف الطويل على جبل الجودي « وهو جبل حصين من أرض الموصل [1] » . فخرج نوح ومن معه من السفينة واتخذ من الجزيرة موضعاً وابتنى هناك قرية سموها سوق ثمانين لأنه كان ابتنى فيها لمن آمن معه وهم ثمانون . وتوفي نوح وله من العمر تسعماية وخمسون سنة . قيل له : كيف وجدت الدنيا ؟ قال : كبيت له بابان دخلت من احدهما وخرجت من الآخر .

قصة نوح في القصص الدينية

ولا حاجة بي الى القول بان حكاية نوح ، كغيرها من القصص الديني الذي نحن بصدده ، مبنية على بعض الآيات القرآنية . ولكنها تخالف القرآن مخالفة كبيرة في هذه التفاصيل الخرافية وهذه الحوادث الخارقة التي تشوه وجه الحقيقة تشويهاً ظاهراً .

نوح في القرآن

لقد ورد ذكر النبي نوح في القرآن في اكثر من أربعين موضعاً وذكرت قصته مفصلة في عدة سور « كالاعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر ونوح » . ومفادها ان الله ارسل نوحاً الى قومه ليعظهم ويرشدهم بعد ان تمادوا في غيهم

---

(١) العرائس ص : ٣٧ جاء في معجم البلدان مج ٢ : ١٤٤ ما يلي : الجودي هو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من اعمال الموصل ، عليه استوت سفينة نوح .

وضلالهم فكفروا بدعوته ورذلوه ولم يصدقوه . فيئس نوح من هداية قومه ودعا ربه عليهم قائلاً :

« رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً [١] » .

نوح في التوراة

وذُكرت قصة نوح في التوراة بشيء من الاختلاف عما هي عليه في القرآن وذلك في بعض امور نبيّنها فيما يلي :

ذكرت التوراة انه في سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر، في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفجرت طاقات السماء وكان المطر على الارض أربعين يوماً وأربعين ليلة . في ذلك اليوم عينه دخل نوح واولاده سام وحام ويافت وامرأته وثلاث نساء بنيه الى الفلك . . وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً ... واستقر الفلك في السابع عشر من الشهر على جبال اراراط ... وكلم الله نوحاً قائلاً : أخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك [٢] .

وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة . فكانت كل ايامه تسعمائة وخمسين سنة ومات .

وجاء في سفر التكوين عن حجم السفينة ما يلي :

« اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر تجعل الفلك مساكن وتطليه من

---

(١) القرآن – سورة نوح آية ٢٥ و ٢٦ .

(٢) الكتاب المقدس – سفر التكوين اصحاح ٧ و ٨ و ٩ .

خارج وداخل بالقار. وهكذا تصنعه ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك، وخمسون ذراعا عرضه ، وثلاثون ذراعاً ارتفاعه [١] » .

وهناك اشارة واضحة في التوراة الى اغراق جميع من كان على وجه البسيطة من الاحياء حتى الحيوانات :

« وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الارض. فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء . خمس عشرة ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الجبال فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش . وكل الزحافات التي كانت تزحف على الارض وجميع الناس ، كل ما في انفه نسمة روح حيوة من كل ما في اليابسة مات . فمحا الله كل قائم كان على وجه الارض : الناس والبهائم والدبان وطيور السماء فانمحت من الارض وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط [٢] .

فنحن نرى ان قصة نوح كما رويت في هذا القصص الديني فيها الشيء الكثير مما لم يروَ لا في التوراة ولا في القرآن وفيها المبالغات الفاحشة في كل شيء وهذه التفاصيل التي اوحت بها مخيلة الرواة .

ولعلنا لو قارنا بين حجم سفينة نوح كما ورد في القصص الديني وهو يبلغ الف ذراع طولاً وخمسمائة ذراع عرضاً وثلاثمائة ذراع سمكاً وبين حجمها كما ورد في التوراة، لاتضحت أمامنا هذه المبالغات الفاحشة ولاستطاع القارىء ان يكوّن لنفسه فكرة عن هؤلاء الرواة .

اما القرآن فلم يذكر شيئاً عن حجم السفينة ولكنه ذكر عن ابن لنوح عصى

---

(١) الكتاب المقدس - سفر التكوين اصحاح ١٤ و ١٥ .

(٢) الكتاب المقدس - سفر التكوين اصحاح ٧ .

أباه ولم يشأ أن يدخل السفينة فهلك مع الهالكين مع ان التوراة لا تذكر شيئاً من ذلك .

كذلك هناك مسألة زوج نوح وقد ذكرت في التوراة انها رافقت زوجها الى السفينة وكانت بجانبه هي وبنوها ونساء بنيها . امــا في القرآن فامرأة نوح كانت كافرة وهلكت مع القوم الهالكين . وليس شيء من جميع هذه الامور مذكوراً في هذا القصص الديني الذي بين ايدينا وان ذكر شيء فبطريقة خيالية بعيدة كل البعد عن العلم والحقيقة المجردة .

هذه هي حكاية نوح وهذا ما عنّ لنا ان نعلّق عليها . ولا بد من الرجوع الى بعض تفاصيلها عندما نبحث في بعض مزايا هــذا القصص الديني . والى القارىء قصة ابراهيم .

ولادته

ولد ابراهيم بالسوس[1] من ارض الاهواز بعرف البعض ، وفي بابل من ارض السواد[2] بناحية يقال لها كوثا بعرف البعض الآخر . وهناك من يقول انه ولد بالوركاء[3] في حدود كسكر او في بحران[4] . هذا ما جاء في القصص الديني اما في الكتب المقدسة فلم يذكر شيء من ذلك . وترافق ولادته اسطورة مفادها ان الكعبة عند ولادته ، خرّت ساجدة وقالت : لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له . والاصنام كلها اصبحت منكوسة وضربت السباع باذنابها الارض لحمل ابراهيم وطلع نجمه وله طرفان احدهما بالمشرق والآخر بالمغرب . وكان له ضياء كضوء الشمس والقمر[5] .

وكان ابراهيم ، وهو لا يزال طفلاً ، يمص اصابعه الخمس فتدر له الابهام عسلاً والسبابة خمراً والوسطى لبناً والبنصر زبداً والخنصر ماء !.

ابراهيم والاصنام

وكان ابو ابراهيم تارح يصنع الاصنام ويعطيها لابنه ليبيعها فيذهب

---

(١) جاء في معجم البلدان لياقوت مج ٣ : ١٨٨ - ١٨٩ ما يلي : السوس بلدة بخوزستان فيها قبر دانيال النبي . والسوس ايضاً بلد بالمغرب كانت الروم تسميها قونية . وفتحت الاهواز في ايام عمر بن الخطاب على يد ابي موسى الاشعري وكان آخر ما فتح منها السوس .

(٢) « السواد موضعان ، احدهما نواحي قرب البلقاء ؛ والثاني يراد بها رستاق العراق وضياعها التي افتتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطاب » معجم البلدان مج ٣ : ١٧٤

(٣) « الوركاء بالفتح ثم السكون . موضع بناحية الرواني ولد به ابراهيم الخليل ، وهو من حدود كسكر » معجم البلدان مج ٤ : ٩٢٢ .

(٤) الثعلبي - العرائس ص: ٤٦ .

(٥) الكسائي - قصص الانبياء ص : ١٢٩ .

بها ابراهيم وينادي : من يشتري ما يضر ولا ينفع ؟ فلا يشتري احد منه . فاذا بارت عليه ذهب بهـا الى نهر وضرب رؤوسها وقال لها : اشربي .. كسدتِ .

ابراهيم والنمرود

ويذكر هذا القصص ان النمرود كان الملك الحاكم في زمن إبراهيم وانه كان معبود الشعب وإلههم وله مملكته الارض ، شرقها وغربهـا . وكان نمرود هذا اسود ، احول ، افطس يهابه الشعب ويرتعد منه فرقاً عند ذكر اسمه ويسجدون له بكرة وعشياً إلا إبراهيم فقد خالف الجميع وعصى اوامر النمرود وكذبه بين جمهور الناس وسفهه وهزىء منه ومن اصنامه واخذ يعظه قـائلاً : « من اياتي ان ادعو الاسود والافيـلة والكلاب واسلّطها عليك وآمر سريرك فيسقطك عنه وآمر تاجك ويطير عن رأسك ، وآمر قصرك ويقع عليك ، انمـا الله لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير[1] » .

فكان النمرود يغتـاظ لمثل هذه الاقوال واخذ يعذب ابراهيم . فامر به فقيدوه وادخلوه الحبس تحت الارض . فكانت الملائكة تأتيه بطعام وشراب من الجنة . واجترح ابراهيم العجـائب الغريبة ليحمل النمرود على الايمان فلم يؤمن . لقد استطاع ان يجمع بين اربعة اخوة من ابناء العرب ، كان الملك قـد غضب عليهم فحبسهم واحداً في السجن وكان مع ابراهيم ، وواحداً بالمشرق والثالث بالمغرب ، والرابع باليمن . فعل ابراهيم كل ذلك بعد ان صلى ركعتين مع ان السحرة عجزوا ، رغم كل ما اوتوا من مهارة ، ان يقوموا بشيء مما قام به نبي الله[2] !

ومن الطريف حقاً ان نذكر باختصار هذه الحرب الشعواء التي شنها

---

(١) الكسائي – قصص الانبياء ص : ١٣٤ .
(٢) الكسائي – قصص الانبياء ص : ١٣٥ .

النمرود على نبي الله إبراهيم وعلى اتباعه الذين رأوا أعماله فآمنوا بعجائبه . ساء النمرود ان يتجبر ابراهيم عليه وان يعصي اوامره وينفر قلوب الشعب من حوله فأمر بحفر حفرة واسعة ، وامر بجمع الحطب الكثير على الدواب والبغال مدة اربع سنين . ثم أضرمت هذه النار فالتهبت وعلا دخانها حتى انتهى مقدار اربعمائة ذراع ورموا بابراهيم في هذه النار وهو عريان فلم يصبه أذىً من حرها . واتاه جبريل بسرير من ذهب وألبسه لباساً اخضر من الجنة واحاطت به الملائكة بمقدار مئة الف !

النمرود يحاول الانتقام من إله إبراهيم

وتبلغ الحماقة بالنمرود وقد رأى ان النار لا تؤثر في ابراهيم ان يتخذ له تابوتاً مربعاً يكون له بابان ، باب الى السماء ، وباب الى الارض . ويسمر في اركان التابوت عمودين من حديد يربط اليهما اوساط اربعة من النسور . فتطير بالتابوت في الجو وفيه النمرود يحمل قوساً ونشاباً وهو يصعد الى مقاتلة إله ابراهيم !

الملاك ينصح النمرود .

ويتلقاه ملك في الهواء ويقول له : ويلك يا نمرود الى اين تريد ؟ فيقول : انا اريد إله ابراهيم لاحاربه . فكم بقي بيني وبينه ؟ وعندما سمع النمرود ان بين الارض والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام وان سمك السماء كذلك ، وهي سبع سماوات ، وبين كل سماء كما بين السماء والارض ، غضب واخذ القوس ووضع فيه سهماً ورمى به في الفضاء محاولاً ان يقتل إله ابراهيم . فارتد اليه السهم ملطوخاً بالدماء على ما يقال[1] . ولكن جبريل لم يطق صبراً على مثل هذه التهجمات تصدر عن ملك عات متمرد نحو العزة الالهية فضرب بريشة من ريشه التابوت

---

(١) الكسائي – قصص الانبياء ص : ١٤٠ .

وألقاه في البحر بمن فيه ولكن الامواج قذفته الى الساحل فخرج النمرود منه وقد ابيضت لحيته ورأسه . وانتهت حياة النمرود انتهاء مفجعاً إذ اقبلت اليه بعوضة فقعدت على لحيته ، فهمّ بقتلها ، فدخلت في احد منخريه ، وصعدت الى دماغه واكلت اللحم والمخ والدم وجعلت تسبح الله حتى مرّ اربعون يوماً والنمرود لا ينام ولا يأكل ولا يشرب . واخيراً اتخذ له عصاً من حديد وامر اعوانه ان يضربوا بها رأسه لكي تسكن البعوضة في الداخل . واخيراً ضربه احد وزرائه ، وكان ذا بأس شديد فشق رأسه نصفين وخرجت البعوضة ، وهي «كفرخ الحمام» وهي تقول : لا إله الا الله ، ابراهيم رسول الله وخليله ! وكان من الطبيعي ان يموت النمرود بعد كل هذا .

والحقيقة ان هذه الاسطورة تلفت نظر القارىء وتستوقفه وتستدعيه الى التساؤل : من اين اتى جامعو هذا القصص بها ؟ وعلى ماذا استندوا في سردها ؟ وللجواب عن ذلك رجعنا الى القرآن الكريم نستعرض جميع الآيات التي ورد فيها ذكر لابراهيم فلم نجد ذكراً للنمرود ولكن في بعض الآيات اشارة الى ملك تجري بينه وبين ابراهيم محاورة شبيهة بالمحاورة التي جرت بين ابراهيم والنمرود .

« ألم ترَ الى الذي حاجّ ابراهيم في ربه ان آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم : ربيَ الذي يحيي ويميت . قال . انا أُحيي وأُميت . قال ابراهيم : فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب ، فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين[1] » والذي حاج ابراهيم في ربه واتي الملك ليس غير النمرود في عرف جامعي هذا القصص . فهم يذكرون ذلك بوضوح وجلاء ، لا يقبلان الشك ، عندما يسردون حياة ابراهيم في تفاصيلها ، وعندما يحاولون ان يروا اصولها في القرآن .

ومن المرجح ان يكون اصل هذه الاسطورة قد نقل عن اليهود ،

---

(١) القرآن – سورة البقرة اية ٢٦٠ .

فلو اجرينا مقـــابلة بسيطة بين هذه الحكاية كما جاءت في هذا القصص العربي وبين طريقة سردها كما وردت في الفصل السادس عشر من كتاب : Midràsh Rabbà . وهو تعليق على التلمود ، لاتضح لنا التشابه ولظهر لنا النقل ظهوراً واضحاً . هذا ما يقول به القس تيسدال في كتابه « مصادر القرآن الاساسية[1] » .

ويذكر المؤرخ المعروف ابو الفدا (٦٧٢هـ) هـــذه الحكاية باختصار كلي مؤكداً اتصال ابراهيم « بالنمرود بن كوش الذي كان ملك تلك البلاد » . ويحاول القس تيسدال المذكور ، بعد ان يقارن بين مختلف هذه الروايات ان يؤكد ان قصة النمرود ووضعه ابراهيم في النار ليست إلا من مخترعات الخيال ومبتكرات القصاص اليهود الاقدمين . وان المؤرخين العرب وقصاصيهم قد نقلوهـــا الى اللغة العربية دون فهم او تمحيص . لاسيما وان التوراة تذكر النمرود وتذكر انه عاش قبل ابراهيم بزمن طويل .

هذا ما خطر لنا حول هذه الاسطورة . بقي ان نقول ان ابراهيم ، امتثالاً لاوامر الله ، اخذ ابنه اسحق ليقدمه قرباناً « فقال الرب يكلم عبده ابراهيم : خـــذ ابنك وحيدك الذي تحبه (اسحق) واذهب الى ارض الموريا[2] واصعد محرقة على احد الجبال الذي اقول لك[3] » . هذا ما جاء في التوراة . ويتصدى الى تكذيب هذا القول شيخ من شيوخ الاسلام في كتاب ضخم هو كتاب : قصص الانبياء لعبد الوهاب النجار . فيقول معلقاً على قول التوراة المار ذكره : « وفي رأيي ان مسئلة الذبح كانت قبل ولادة اسحق وان ابراهيم اسكن اسماعيل وامه مكان مكة قبل مسئلة الذبح وانها حصلت بنواحي مكة لا في جبل الموريا[4] » .

---

(١) Tisdall, W. St. Clair - The Original Sources of the Qur'an P: 66

(٢) جبل الموريا هو الذي عليه مدينة اورشليم .

(٣) الكتاب المقدس – سفر التكوين الاصحاح ٢٢ .

(٤) عبد الوهاب النجار – قصص الانبياء ص : ١٣٥ .

ثم يتهم اهل التوراة بتحريف كتابهم وبأنهم مشهورون بذلك ومن شاء شيئاً من ذلك فليراجع ما كتبه كتّاب المسلمين في هذا الشأن . يفعل النجار كل ذلك ليجعل الذبيح اسماعيل بدل اسحق اذ كيف يكون اسحق هو الذبيح وهو ابو اليهود ولا يكون اسماعيل وهو ابو العرب ؟ ويتكلف عبد الوهاب النجار بحثاً طويلاً محـــاولاً ان يؤكد ادعاءه ، مستنداً على التوراة نفسها مع ان نص التوراة اوضح من ان يقبل شرحاً او تأويلاً .

ولسنا في موقف الدفـــاع عن التوراة . وليس في مقدور من كان مثلي ، ولا من رأيه ، ان يثير مثل هذه البحوث وان يرد على القسس والمشايخ ، ولكني اعيذ الحقائق من ان تصبح تحت اقلام بعض الكتّاب عرضة للذم والتحقير ، خاصة متى كانت هذه الحقائق واردة في الكتب الدينية اياً كان نوعها .

هذه هي تعليقاتنا على قصة ابراهيم كما جاءت في الكتب الدينية وكما زوقتها مخيلة القصاص . وليس قصدنا ان ندرس جميع الانبياء وان نحلل حياتهم واحداً واحداً كما يظهرون في هذا القصص . انما نكتفي بدراسة حكاية يوسف الصديق من انبياء التوراة ففيها امور غريبة كثيرة وهي قصة مشهورة ذكرت في جميع الكتب المقدسة حتى قيل فيها : « ما بعث الله نبياً إلا وقصّ عليه قصة يوسف كما قصها على النبي محمد[1] » .

على انه لا بد من التعرض لحيـــاة عيسى ومحمد كما وردت في هذا القصص الذي ندرسه لاسيما وان لهما شأناً كبيراً يختلف في تأثيره واهميته عن اي نبي من الانبياء الذين مرّ ذكرهم .

---

(١) الكسائي - قصص الانبياء ص ١٧٠ .

قصة يوسف

قصة يوسف اطرف الحكايات الدينية واشدها انتشاراً بين العامة والخاصة . زد على ذلك انها كانت نواة صالحة للأدباء رأوا فيها مادة غزيرة للقول والشرح والتأليف . ولن احاول ان اسرد هذه الحكاية في تفاصيلها كما وصلتنا من مصادرها المختلفة لان ذلك باستطاعة من يشاء الرجوع الى تلك المصادر والاطلاع عليها ، ولكني ذاكر بعض حوادثها الرئيسية كما وردت في الكتب الدينية ثم موقف هذا القصص الديني من تلك الحوادث . وهل يتفق معها ؟ والى اي حد؟

من هو يوسف ؟

هو يوسف بن يعقوب ، اسرائيل الله بن اسحق بن ابراهيم ، وكان جميل الصورة، فطناً ذكياً ، يفضله ابوه على سائر اخوته .

رؤيا يوسف

رأى يوسف ، يوماً، في منامه ان احد عشر كوكباً سجدوا له . كذلك حلم حلماً آخر وقصه على اخوته قائلاً : « ها نحن حازمون حزماً في الحقل ، واذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي [١] » . فابغضه اخوته وأضمروا له الشر حتى اذا سنحت لهم الفرصة واجتمعوا به في البرية، وهم يرعون المواشي تآمروا عليه ورموه في الجب . ثم مرت قافلة من الاسماعيليين تقصد مصر وقافلة أخرى من المديانيين ؛ فسحبوا يوسف من الجب وباعوه للاسماعيليين. وأشاع اخوة يوسف ان وحشاً قد افترسه وحملوا الى والدهم قميص أخيهم ملطخاً بالدم . فمزق الوالد الحزين ثيابه وأبى ان يتعزى لهذه المصيبة الفادحة تحلّ بابنه الحبيب وقال : « إني أنزل الى ابني نائحاً الى الهاوية[٢] » .

---

(١) الكتاب المقدس — سفر التكوين الاصحاح ٣٧ .
(٢) الكتاب المقدس — سفر التكوين الاصحاح ٣٧ .

ولنقف هنا لنقابل ما قدمناه ، وهو مستقى من التوراة والقرآن معاً ، بما جاء في القصص الديني الذي ندرسه فنرى « ان الله كان قد أهدى ابراهيم خمسة اشياء صارت كلها الى يوسف . وهن : عمامة أهديت اليه يوم بعث الى نمرود . وقميص الخلّة أهدي اليه يوم اتخذه الله خليلاً ، ومنطقة النصر والرضوان تمنطق بها يوم القي في النار ، وخاتم النبوة ، وقضيب النار الذي كان له خمس شعب مكتوب على الاولى : ابراهيم خليل الله وعلى الثانية اسحق ذبيح الله ، وعلى الثالثة اسماعيل صفي الله ، وعلى الرابعة يعقوب اسرائيل الله ، وعلى الخامسة يوسف صديق الله[1] » .

ونرى كذلك ان الله ما سمح ان يجري ليوسف بما سمح به الا لان يعقوب اباه جاءه يوماً فقير وشم رائحة طعامه فلم يطعمه !

ونلاحظ ان الرواة همهم التأثير في القارىء لذلك فلا يتركون سانحة تسنح دون ان يستغلوها ويقصوها بطريقة محزنة ، مؤثرة . فهم يذكرون ان اخوة يوسف عذبوه قبل ان رموه بالجب . ولم يسقوه بعد ان أجهده العطش والتعب بل كسر اخوه شمعون الكوز وقال له : « قل لاحلامك الكاذبة تسقيك[2] » ثم تقدم منه ولطمه على وجهه .

ونرى ان الجب في نظر هؤلاء ضيق ولكنه عميق وهو على قارعة الطريق ، وان ماءه مالح . وقد حفره سام بن نوح وقد كتب عليه : هذا جب الاحزان !

حتى طريقة انزال يوسف في الجب طريقة تسترعي الانتباه ويلعب فيها خيال القصاص دوراً . فبعد ان نزع الاخوة ثياب اخيهم ، وشدوا وسطه بالحبل وأدلوه . ولما قرب من وسط البئر أطلقوا الحبل من ايديهم كي يقع ويموت . ولكن جبريل كان هناك فأخذه بين يديه قبل ان يصل الى قعر الجب . وبسط على وجه الماء صخرة عظيمة كانت في قعر الجب[3] فأجلس يوسف عليها وأتاه

---

(١) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٥٦ و١٥٧

(٢) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٥٨

(٣) مر معنا القول في التوراة ان البئر كان فارغاً من الماء .

بطعام وشراب من الجنة ، فأكل وشرب . وعندما يعلم يعقوب ابو يوسف بفقد والده يحرم الضحك والفرح على نفسه وعلى السباع الضارية والوحوش الشاردة . ويبقى يوسف في الجب ثلاثة ايام ! امـــا الذي انتشله منه فهو مالك بن دعر الخزاعي . هذا ما يقوله القصص الديني .

يوسف وامرأة العزيز

ولنعد الى سياق القصة كما جاءت في التوراة وفي القرآن، ثم نقارنها بما جاء في هذا القصص .

قيل ان يوسف بيع الى فوطيفار في مصر وهو خصي فرعون ورئيس الشرط. فأكرمه اكراماً عظيماً ورأى على وجهه الخير والسعادة والبركة ؛ فلم يمنعه عن شيء مما كان يملكه . وكان يوسف ، كما مر معنا ، جميـل الخلقة ، حسن الصورة والمنظر، فأحبته امرأة سيده وجاءت تلاطفه وتراوده عن نفسه؛ فامتنع يوسف عن اجابتها الى طلبها وهو المؤمن الذي يحفظ الجميل .

اما في القصص الذي ندرسه فالقصاص يتوسعون في شرح الآية: « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت : هيت لك . قال معاذ الله . انه ربي أحسن مثواي ، انه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهمَّ بهـا لولا ان رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين ، واستبق الباب وقدت قميصه من دُبرٍ والفيا سيدها لدى الباب[1] » .

فيقولون ان امرأة العزيز بنت لنفسها بيتاً حسناً مزيناً بكل زينة، سمته بيت الفرح والسرور وزينت نفسهـــا وقعدت عـــلى سريرها ودعت بيوسف اليها وأجلسته على الكرسي وغلقت الابواب وأرخت الستور . ثم قالت : يا يوسف، هيت لك معناه انا لك .. وأخذت تحـــاوره بأعذب الاحاديث وتحثه عـلى

---

(١) القران : سورة يوسف آية ٢٥

ارتكاب الاثم والمنكر، حتى اذا بقي مصراً على امتناعه، هددته بقتل نفسها إذ أخذت سكيناً وهمت ان تضرب بها نفسها ؛ فاقترب يوسف منها ليأخذ السكين من يدها وليرميها جانباً فألقت نفسها عليه. وكاد يوسف ان يقع في الخطيئة، لولا ان هبط جبريل وتمثل له بصورة ابيه يعقوب وهو عاض على انامله. وهذا تفسير لقول الآية المار ذكرها :

« وهمت به وهمّ بها ، لولا ان رأى برهان ربه » .

يوسف يسجن ثم يطلق سراحه

ليس في ادخال يوسف السجن وإخراجه منه ما يلفت النظر من حيث الاختلاف سواء كان في التوراة او في القرآن او في اقوال المفسرين ، اللهم الا بعض ذيول وحواش لا تخلو منها حكايات المفسرين . من ذلك ان فرعون عندما أناب يوسف خليفة عنه وولاه على اهل مملكته ، أخذ يوسف ، بما له من حكمة وحنكة ، يجمع الغلال ويخزنها مدة السنين السبع الخصبة ، حتى اذا وافت سنو الجوع السبع أخذ يبيع الشعب « في السنة الاولى بالدنانير ، وفي السنة الثانية بالحلي والجواهر ، وفي السنة الثالثة بالبعير والخيل ، وفي السنة الرابعة بالدور والمنازل ، وفي السنة الخامسة بالبساتين والازراع ، وفي السنة السادسة بانفسهم حتى صاروا عبيداً له . ثم أطعمهم في السنة السابعة لانهم كانوا عبيده [1] » .

وهناك اشارة الى ان يوسف ، رأى بين الجموع التي كانت تتزاحم في طلب الغلال امرأة العزيز فلم يعرفها ، بعد ان هزلت من الجوع . فسألها عن نفسها فأخبرته وذكرت حاجتها الى الطعام . فبكى يوسف وأرجعها الى ماضي عزها سيدة مصونة محترمة . ثم تزوج منها بشهادة الملك ريان بن الوليد ، وبحضرة ملوك مصر . ودخل بها فوجدها لا تزال بكراً فولدت له ولدين افرائم ومنشا !

وليس لي ان أعلّق على مثل هذه الروايات وقد مر القارىء بالكثير مثلها ،

---

(١) الكسائي – قصص الانبياء ص : ١٦٧

فهي ضعيفة الثقة لا تقوم على شيء من الحقيقة . ولا بد من الاشارة هنا الى ماجاء في الاصحاح الحادي والاربعين من التوراة بهذا الشأن فيرى القارىء الفرق ويحكم:

« ودعــا فرعون اسم يوسف (صفنات فَعْنيح) وأعطاه بنتَ فوطيْ فارَعْ كاهن أون زوجته. وولد ليوسف ابنان قبل ان تأتي سنة الجوع . ولدتهما اسنات بنت فوطي فارع كاهن اون . ودعى يوسف اسم البكر منسى قائلاً لان الله أنساني كل تعبي وكل بيت ابي ودعا اسم الثاني افرايم قائــلاً لان الله جعلني مثمراً في ارض مذلتي[1] » .

اما كيف تتحول اسنات ابنة فوطيفارع كاهن اون وزوجة يوسف الى زليخا امرأة العزيز ويتحول ابوها فوطيفارع الى فوطِيفار زوج زليخا فهذا ما لا نعرفه ولا نستطيع ان نجيب عليه . فالقصاص وحدهم هم المسؤولون عن ذلك !

وليس في ما تبقى من هذه الحكاية ما يهمنا درسه لان سياقها واحد في جميع المصادر سوى بعض المحاورات الطريفة الــتي يذكرها الكسائي وغــيره من القصاص ، وقد جرت بين يوسف واخوته عندما أقبلوا مع المقبلين يطلبــون من فرعون مصر ، غلة لهم ولعيالهم . قال لهم يوسف :

« يا اولاد يعقوب ! ان من العجب ان يأكل الذئب اخاكم وفيكم من يصيح بالاسد فيخر ميتاً ، وفيكم من يأخذ برجل الذئب فيشقه نصفين ، وفيــكم من اذا صاح وضعت الحوامل ما في بطنها ، وفيكم من يقلع الشجرة من أصلها ، وفيكم من يعدو مع الفرس فيسبقها » . قالوا :

« نعم ايها العزيز وفينا من يفعل اكثر من ذلك ، لكن اذا جاء القضاء عمي البصر وضعفت القوة[2] » .

ويتحادث يوسف مع اخيه الصغير بنيامين وهما يأكلان معــاً على مائدة واحدة فيقول يوسف لاخيه :

---

(١) الكتاب المقدس : سفر التكوين اصحاح ٤١

(٢) الكسائي – قصص الانبياء ص : ١٧٠ و ١٧١ .

« هل تزوجت؟ قال : نعم ورزقت ثلاثة اولاد ذكور. قال : وما اسماؤهم؟ فقال : اسم اكبرهم ذئب لان إخوتي زعموا ان اخي يوسف أكله الذئب . واسم الثاني دم لان إخوتي جاءوا بقميص أخي يوسف ملطخاً بالدم واسم الثالث يوسف كاسم أخي » .

وأمثال هذه المحاورات كثير لا أثر له لا في التوراة ولا في القرآن .

أما يوسف فقد مات وعمره مئة وعشر سنوات بحسب قول التوراة ، فحنطوه ووضعوه في تابوت بمصر .

قصة عيسى

كنت أود لو تناولت بالبحث قصة سليمان ، لولا ضيق المقام . ففي هذه القصة يتسع مجال القول وينفسح المدى امام خيال الرواة والقصاص . فتعليم الله نبيّه سليمان منطق الطير ، وتسخير الرياح له ، وانتقال العرش من مكان الى مكان ، وتسخير الجن . وبلقيس ملكة سبا وزيارتها لسليمان وأسئلتها العديدة بصورة الأحاجي ، كل ذلك يجعل هذه القصة فريدة في بابها من حيث الادب والفن . ولكننا نرى ان الرسالة قد طالت والموضوع قد تشعب وتنوع . وليس بمستبعد ان نعود ، عاجلاً او آجلاً ، الى كثير من هذه الموسوعات التي حملنا على اختصارها حملاً فندرسها درساً عميقاً ونحللها تحليلاً أدبياً ما وسعنا الحظ الى ذلك سبيلاً . اما الان فنحن مضطرون الى تناول حياة السيد المسيح كما رواها هؤلاء القصاص وكما وردت في القرآن الكريم ثم نختم البحث بذكر نتف عن النبي محمد نذيّلها ببعض الآراء الخاصة في هذا القصص .

عيسى في القصص الديني

يظهر ان عيسى القصاص هو غير عيسى الانجيل لان امه مريم دامت مدة حبلها به ثمانية اشهر على قول البعض ، وستة اشهر على قول البعض الآخر وثلاث ساعات او ساعة واحدة على قول البعض الثالث[1] .

---

(١) العرائس – الثعلبي ص : ٢٢٧

ويولد عيسى من غير أبٍ إذ ينفخ الملاك جبريل في جيب درع مريم. وولادته كانت حدثاً تاريخياً عظيماً أقام الشياطين وأقعدهم فعقدوا الاجتماع تلو الاجتماع وتشاوروا مع ابليس (وهو على عرشه في لجة خضراء) وأخبروه ان امراً عظيماً حلَّ بالاصنام فنكس رؤوسها الى الارض . وهمَّ إبليس ان يكتشف الامر فطار (وأحصى الارض كلها في ثلاث ساعات مشرقها ومغربها ، برها وبحرها ، والخافقين والجو) حتى مر بالمكان الذي ولد فيه عيسى واذا بـه يجد محاطاً بالملائكة يسهرون عليه من كل حدب وصوب . فرجع خائباً وأخبر [illegible] بالأمر قائلاً : « ما اشتمل رحِمُ انثى على ولد إلا بعلمي ولا وضعته إلا وانا حاضرها. وما كان نبي أشد عليَّ وعليكم من هذا المولود[1] .

ويشاء القصاص ان يذهب عيسى الى الكتّاب ليتعلم، وكان عمره تسعة اشهر، فاذا بالمؤدب يسأله ان يقول : « باسم الله الرحمن الرحيم » وإذ بعيسى يردد هذه الجملة كلمة كلمة . ويتشجع المؤدب ويسأله ان يقول (أبجد) فيرفع عيسى رأسه ويقول لاستاذه : هل تدري ما أبجد ؟ ولما لم يستطع المؤدب ان يعرف الجواب الصحيح أخذ عيسى يشرح له كلمة أبجد هكذا :

« اما أبجد : فانها اربعة احرف : الالف الله (أو لا إله إلا الله) والباء : بهاء الله (او بهجة الله) والجيم : جلال الله ، والدال دين الله .

هوّز : الهاء هو الله (او جهنم وهي الهاوية) والواو : ويل للمكذبين (او ويل لاهل النار) والزاي : زبانية الكافرين (او زفير اهل جهنم) .

حطّي: الحطّة للخاطئين (او حطة الخطايا عن المستغفرين) والطاء شجرة طوبى للمؤمنين . والياء : يد الله على خلقه اجمعين .

كلمن : الكاف كلام الله (او كلام الله غير مخلوق ولا مبدل لكلماته) واللام : لقاء الله ، والميم : مالك يوم الدين ، والنون : نور الله .

سعفص : السين : سنة الله (او صاع بصاع والجزاء بالجزاء) والعين : علم الله . والفاء : فعل الله . والصاد : صدق الله في وعده .

---

(١) الثعلبي – العرائس : ص ٢٢٨

قرشت : القاف : قدرة الله (او تقرشهم حـــين تحشرهم اي تجمعهم) . والراء : ربوبية الله . والشين : مشيئة الله. والتاء : تعالى الله عما يشركون[1] » .

فما كاد المؤدب يسمع بهذا الشرح العجيب الغريب حتى أخذته الدهشة من علم عيسى وسعة اطلاعه فأخذه لامه وقال لها : خذي ولدك انه لا يحتاج الى معلم . وفي هذه القصة وغيرهـــا كثير ، تظهر سذاجة القصاص وفقرهم الشديد الى التمحيص العلمي التاريخي وميلهم لكل عجيب غريب ، حتى ولو كان مما لا يقبله العقل ولا يقرُّ به المنطق .

عجائب السيد المسيح في القصص الديني

لقد قال القران الكريم بعجائب المسيح او ببعضها كاجاءت في الاناجيل[2] . فلمَ لا يقول بهذه العجائب رواة القصص ؟ بل لماذا لا يعمدون الى اكثر من ذلك فينسبون الى السيد المسيح عجائب ومعجزات غير مذكورة لا في الاناجيل ولا في القرآن ؟ من ذلك ان عيسى استطاع ان يعرف صفات ابن الملك قبل ان ولد فقال لابيه : « ان في بطن زوجتك غلاماً جميلا احدى أذنيه أطول من الاخرى وعلى صدره خال اسود ، وعلى بطنه شامة بيضاء[3] » .. الخ .

وهو يستطيع ان يحول الوان الاصباغ ساعة يشاء ، الى ما يشاء . كالسحرة تمامـــاً !

وتصديقاً الى انه يحيي الموتى فلقد أحيا سام بن نوح فوثب من قبره وكان قد مضى على موته اربعة الاف سنة . ولقد تكلم سام بعد قيامه من الموت وقال: لمـــا سمعت صيحة عيسى ظننت انها صيحة القيامة فابيضت لحيـــتي ورأسي من هولها .

---

(١) الكسائي - ص : ٣٠٦ والثعلبي ص : ٢٢٩ - ما بين الهلالين للثعلبي .
(٢) القرآن - سورة آل عمران اية ٤٨ و٤٩ و ٥٠ . وسورة المائدة اية ١٠٩ وسورة الزخرف اية ٦٢ و٦٣ .
(٣) الكسائي - قصص الانبياء ص : ٣٠٥

ويذكر الثعلبي في كتاب العرائس كثيراً من مثل هذه الحكايات والاخبار لا نرى فائدة في سردها وتعدادها وكلها على نمط واحد واسلوب واحد .

وهذه العجائب والمعجزات ، يأتي بها القصاص ، مقتبسة في اكثرها ، عن الاناجيل او عن الرواة اليهود الذين أسلموا ولهم المام بالدين المسيحي واليهودي . وها اننا موردون معجزة اقامة لعازر من القبر كما وردت في هذا القصص وفي الانجيل لنرى وجه التشابه ومقدار الاقتباس . جاء في العرائس ما يلي :

وأحيى (اي عيسى) امواتاً منهم لعازر ، وكان صديقاً له . فأرسلت اخته الى عيسى ان اخاك يموت فأتاه ، وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة ايام . فأتاه هو واصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة ايام، فقالوا لاخته : انطلقي بنا الى قبره ، فانطلقت معهم الى قبره ، وهو في صخرة مطبقة . فقال عيسى : اللهم ! رب السماوات السبع انك أرسلتني الى بني اسرائيل أدعوهم الى دينك وأخبرتهم أني أحيي الموتى باذنك فأحي العازر . فقام العازر وخرج من قبره وبقي ، وو ُلد له[1] » .

وجاء في انجيل يوحنا في الاصحاح الحادي عشر :

« وكان انسان مريضاً وهو لعازر من بيت عنيا من قرية مريم ومرتا اختها . وكانت مريم ، التي كان لعازر اخوها مريضاً ، هي التي دهنت الرب بطيب ومسحت رجليه بشعرها . فارسلت الاختان اليه قائلتين : يا سيد ، هو الذي تحبه مريض .

« فلما سمع انه مريض مكث حينئذ في الموضع الذي كان فيه يومين . ثم بعد ذلك قال لتلاميذه: .. لعازر حبيبنا قد نام لكني اذهب لاوقظه. فقال تلاميذه يا سيد ان كان قد نام فهو يشفى . وكان يسوع يقول عن موته . وهم ظنوا انه يقول عن رقاد النوم . فقال لهم يسوع حينئذٍ علانية : لعازر مات ! .

«وذهب يسوع مع تلاميذه فوجدوا انه قد مضى على مدته اربعة ايام. فجاء

(١) الثعلبي — العرائس ص : ٢٣٣ .

يسوع الى القبر وكان مغارة وقد وضع عليه حجر . قال يسوع : ارفعوا الحجر. قالت له مرتا اخت الميت : يا سيد ، قد انتن لانه له اربعة ايام . قال لها يسوع : الم اقل لـــك ان امنت ترين مجد الله . فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعاً ورفع يسوع عينيه الى فوق وقال: ايها الآب اشكرك لانك سمعت لي وانا اعلمك انك في كل حين تسمع لي . ولكن لاجل هذا الجمع الواقف قلت ، ليؤمنوا انك ارسلتني . ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم : لعازر هلم خارجاً . فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات باقمطة ووجهه ملفوف بمنديل . فقال لهم يسوع: حلوه ودعوه يذهب [١] . »

فلو قارنا ولو مقارنة بسيطة بين الروايتين لرأينا شبهاً كبيراً . اولاً في سياق الحادثتين وثانياً في اتفاقهما حتى في بعض التعابير والكلمات ممـــا يدل على ان الاقتباس موجود . وقل كذلك في كثير من الروايات والحكايات .

ونحن نرى ان المسيح في القصص الديني الذي ندرسه يجترح العجائب ، صغيرها وكبيرها ، فهو يخلق الطير من الطين ، ويبرىء الاكمه والابرص ، ويشفي العمي ويحيي الموتى ، ويعلم الغيب ، ويخبر الناس بما يأكلون وما يشربون وما يدخرون في بيوتهم ، وهو يمشي على الماء ، يفعل كل ذلك بأمر من الله وبأذن منه .

« يروى ان عيسى خرج في بعض سياحته ومعه رجل من اصحابه قصير ، وكان كثير اللزوم لعيسى ، فلما انتهى عيسى الى البحر قال : باسم الله بصحة ويقين ، فمشى على وجه الماء ، فداخله العجب فقال : هذا عيسى روح الله يمشي على الماء . وانا امشي على الماء ، قال : فانغمس في الماء فاستغاث بعيسى فتناوله عيسى من الماء واخرجه وقال له : ما قلت يا قصير ؟ فأخبره بما خامر خاطره فقال عيسى : لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله فيه . فمقتك الله على ما قلت فتب الى الله مما قلت . فتاب الرجل وعاد الى مرتبته التي وضعه الله فيها [٢] » .

---

(١) الكتاب المقدس – يوحنا اصحاح ١١ .
(٢) الثعلبي ـ العرائس ص : ٢٣٤ .

فهذه الرواية ليست الا صدى لما جاء في إنجيل متّى في الاصحاح الرابع عشر :

« وللوقت الزم يسوع تلاميذه ان يدخلوا السفينة ويسبقوه الى العبر حتى يصرف الجموع ، وبعد ما صرف الجموع صعد الى الجبل منفرداً ليصلي ، ولما صار ، كان هناك وحده ، واما السفينة فكانت قد صارت في وسط البحر ، معذبة من الامواج ، لان الريح مضادة ، وفي الهزيع الرابع من الليل مضى اليهم يسوع ماشياً على البحر فلما ابصره التلاميذ ماشياً على البحر اضطربوا قائلين : انــه خيال ، ومن الخوف صرخوا ، فللوقت كلمهم يسوع قائلاً : تشجعوا انا هو لا تخافوا ، فاجابه بطرس وقال : يا سيد ان كنت انت فمرني ان اتي اليك على الماء وذهب ليأتي الى يسوع ، ولكن لما رأى الريح شديدة خاف واذ ابتدأ يغرق صرخ قائلاً : يا رب نجني . ففي الحال مدّ يسوع يــده وامسك به وقــال له : يا قليل الايمان لماذا شككت؟ ولما دخلا السفينة سكنت الريح والذين في السفينة جاءوا وسجدوا له قائلين : بالحقيقة انت ابن الله [1] » .

والذي يظهر بارزاً في هذه المعجزة ، وهو الذي حمل القصاص على نقلهـــا في زعمنـــا ، هو عنصر الشك الذي لمجرد تسربه الى ضمير المؤمن يفسد ايمانه . نقول ذلك خاصة بعد ان نقرأ لواضعي هذا القصص مثل هذا الحديث عن النبي . قيل :

« حدثنا ابو منصور الحمشاوي باسناده الامام ، عن معاذ بن جبل ان رسول الله ﷺ ، قــال : لو عرفتم الله حق معرفته لعلمتم العلم الذي ليس بعده جهل . وما بلغ ذلك احد قط . قالوا : ولا انت يا رسول الله ؟ قال : ولا انا . قالوا : يا رسول الله قد بلغنا ان عيسى بن مريم مشى على الماء . قال نعم ولو ازداد خوفاً ويقيناً لمشى على الهوى . قالوا : يا رسول الله ما كنا نرى ان الرسل تقصر فقال: ان الله تعالى ابلغ شأناً من ان يبلغ احد شأنه [2] » .

---

(١) الكتاب المقدس ـ متى الاصحاح الرابع عشر .

(٢) الثعلبي ـ العرائس ص : ٢٣٤ .

والحقيقة ان عيسى في هذا القصص فيه من كل شيء . فيه من لون الانجيل وفيه من لون القرآن وفيه فوق هـذا وذاك من لون القصاص الذين اغرموا بكل طريف غريب وكل اسطورة وخرافة . فبينما ترى خبراً من اخبار السيد المسيح يسرد كما هو معروف في الانجيل يدل على حنو المسيح وحبه للبشر وعطفه عليهم اذا بك تقرأ أنه يقوم بغزوة يغزو بها بني اسرائيل ويقتل منهم خلقاً كثيراً !

وعيسى ألبسه الله ثوب الهيبة واعطاه ما رجاه وطهره ورفعه اليه وكساه الريش وألبسه النور وقطع منه شهوة المطعم والمشرب فهو يطير مع الملائكة حول العرش لانه انسي وملكي ، وارضي وسماوي .

وعيسى هو كلمة الله « لان الله قال له : من غير اب كن فكان ، فوقع عليه اسم الكلمة لانه بها وجد[1] » . اما مدلول « الكلمة » والمقصود منها ، او تفسيرها الديني ، فليس شيء من ذلك مذكوراً في كل هذا القصص .

واراد القصاص ان يزيدوا في هيبة المسيح وتكريمه ؛ فجاءوا باحاديث نسبوها الى النبي العربي الكريم تؤيد نظريتهم . قالوا : « حدث الحسين بن احمد بن محمد بن علي باسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ، ﷺ : « كيف يهلك الله امة انا في اولها ، وعيسى في اخرها . والمهدي من اهل بيتي في وسطها » !

وقيل : اخبر محمد بن القاسم الفارسي باسناده عن ابي هريرة قال : قال رسول الله ، ﷺ : « اذا اهبط الله المسيح عيسى يعيش في هذه الامة ما يعيش ، ثم يموت فيمدينتي هذه ويدفن الى جنب قبر عمر ؛ فطوبى لابي بكر وعمر يحشران بين نبيين » .

---

(١) الثعلبي ـ العرائس ص : ٢٢١ .

وايضاً : اخبرنا ابو صالح شعيب . قال رسول الله : الانبياء اخوة لعلّات[1] امهاتهم شتى ودينهم واحد . ورائي اولى النـاس بعيسى بن مريم عليهما السلام لانه لم يكن بيني وبينه نبي . ويوشك ان ينزل فيكم ابن مريم حكماً عادلاً وانه نازل على امتي وخليفتي عليهم فاذا رأيتموه فاعرفوه فـانه رجل مربوع الخلق ، الى الحمرة والبيـاض سبط الشعر كأن رأسه يقطر ولم يصبه بلل ، ينزل بين مخصرتين فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال، ويهل من الروحاء حاجاً او معتمراً او ملبياً بهما جميعاً ، ويقـاتل الناس على الاسلام حتى يهلك في زمانه الملل كلهـا غير الاسلام وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال، وتقع الآمنة في الارض حتى ترتع الاسود مع الابـل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم وتلعب الصبيان بالحيات فلا يضر بعضهم بعضاً . ثم يلبث في الارض اربعين سنة ويتزوج ويولد ، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه في المدينة بجنب عمر[2] » .

وكان هذا الحديث كافياً ليستغله الرواة ويكتبوا عنه ما شاء لهم خيالهم ان يفعلوا فيقول الكسائي متكلماً عن السيد المسيح :

« ... ثم رفعه الله اليه وهو باق حياً في السماء ، الى ان يأذن له بالنزول لقتال الدجّال فيقتـله فتملأ الارض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، ثم يتزوج بامرأة من العرب وتولد له ويحجّ ويعمر ثم يموت ، ثم يخرج يأجوج ومـأجوج وهي من كل حدب ينسلون فتتملأ الارض منهم حتى لم يبق للوحوش والهوام موضع تستقر فيه

---

(١) جاء في الحديث : « الانبيـاء بنو علات » اي انهم لامهات مختلفة ودينهم واحد . (المعاجم) وجاء في كتاب النهاية في غريب الحديث والاثر لابن الاثير ج ٣ : ١٢٤ ما يلي :

الانبياء اولاد علات ، اولاد العلات الذين امهاتهم مختلفة وابوهم واحـد . اراد ان ايمانهم واحد وشرائعهم مختلفة .

النهاية في غريب الحديث والأثر مجد الدين ابي السعادات المبارك بن محمد بن محمد الجزري المعروف بابن الاثير سنة ١٢١١ .

(٢) الثعلبي ـ العرائس ص : ٢٤٠ .

ثم يتوجهون الى بيت المقدس لقتال عيسى .. الخ الخ[1] » . وهنا يرخي القاص لخياله العنان فيصنّف هذه الخلائق التي تقاتل عيسى الى اصناف : منهم من هم كالنخل الشاهق بطولهم وعرضهم يأكلون الاشجار والاثمار ؛ ومنهم من طولهم ذراع واحد وعرضهم ذراع واحد وهم يأكلون النبات ؛ ومنهم من طوله شبر واذنه ذراع ، يفرشون اذناً تحتهم واخرى فوقهم ، ويشربون جميع المياه ! ولكن عيسى يدعو عليهم فيرسل الله عليهم عفاريت الجن فيهلكونهم عن آخرهم حتى اذا اكمل عيسى اربعين عاماً ارسل الله اليه ملك الموت ليقبض روحه فاتى جبريل ومعه مسك من الجنة ليرفعه الى عيسى ، فأخذه عيسى وشمه فطارت روحه فيه ثم نزلت الملائكة اليه يغسلونه ويحنطونه ويدفنونه الى جانب قبر النبي محمد .

هذه هي الصورة التي تعلق بذهن القارىء عن السيد المسيح في هذا القصص ، وهي صورة سوداء مشوهة الى اخر حدود التشويه . ومن المضحك حقاً ان يعتقد القارىء ان باستطاعة هؤلاء القصاص ان يرسموا صورة صحيحة للسيد المسيح ، خاصة وان المؤهلات لذلك تعوزهم اشد العوز . فلقد رأينا قلة اعتمادهم على التاريخ عامة وعلى تاريخ المسيحية بصورة خاصة . فهذه المعلومات التي وصلتهم عن الدين المسيحي وعن انبياء التوراة لم تصلهم إلا على يد بعض اليهود الذين اشتهروا بالكذب وقلة التمحيص العلمي .

وهناك فقر هؤلاء القصاص في العلوم الفلسفية والفقهية التي يحتاجها كل من اراد ان يدرس نبياً وان يحلل تعاليمه تحليلاً فلسفياً . خاصة وان هذه التعاليم مبنية في اساسها على الروح كتعاليم الديانة المسيحية .

ونحن نظلم هؤلاء الرواة في بحثنا هذا ونحرج موقفهم احراجاً كبيراً . فليس هناك من يدعي انهم قاموا بشيء من كل ما ذكرناه ، او أنهم ، وقد احاطت بهم الظروف التي مر ذكرها ، كانوا اهلاً لحمل مثل هذا العبء الثقيل ، وليس

(١) الكسائي – قصص الانبياء ص ٣٠٧ و ٣٠٨ .

لمؤمن ، مسلماً كان ام مسيحياً ، ان يرى في هذا القصص حقيقة دينية ، دون الرجوع الى الكتب الدينيـــة و كتب التفسير المعروفة . ورب معترض يقول : ولكن هذه الحكايات وضعت اول وضعها لتفسير آيات القرآن واسهبت في شرح حياة الرسل والانبياء مستندة على القران وانها تحمل لوناً قرانياً وتصطبـغ بالصبغة الاسلامية فكيف تحذّر المسلمين من الاخذ بها واعتبار حقائقها ؟ جواباً على هذا سأعرض امام القارىء صورة للنبي محمد كما يظهر في هذا القصص، ثم اشفعها ببعض الامثلة التي تلون هذه الحكايات بالروح الاسلامية فيرى القــارىء في ذلك ما لا يطمئن اليه عقل العالم ولا روح المؤمن !.

النبي محمد في القصص الديني

يقسم هذا القصص الديني من حيث مـادة الموضوع الى قسمين رئيسيين : في القسم الاول يتناول حياة النبيين والمرسلين الذين جاؤوا قبل النبي محمـد . وفي القسم الثاني يتناول حياة النبي محمد ويتوسع في شرح الآيات القرانية كما مر معنا الحديث . فمن الطبيعي ان يذكر محمد في القسم الثاني لانه هو النواة الـتي يدور القصص عليها في هذا القسم . اما الذي يلفت النظر حقاً فهو ورود ذكر النبي محمد في سياق الحـكايات حول الانبياء الاقدمين . مثلاً على ذلك حديثه عن آدم بعد طرده من الجنة وكيف ان الله وعده بولد اسمه شيت ولما وضعته حواء رأته على صورة هابيل وكان على وجهه نور النبي محمد[١] .

ولادة محمد

امتاز الاسلام بمزايا كثيرة جعلته ديناً سماوياً خاصاً له مزاياه الخاصةوتقاليده الخاصة ككل دين سماوي اخر . وأبرز هذه الصفات في نظري هي البساطـة والوضوح . فكلنا نعرف ان محمداً ولد كما يولد كل طفل اخر ، وانه نشأ وترعرع بطريقة معلومة ندرسها في كتب التاريخ وهي هي لا تتغير ولا تتبدل . امـا ولادة محمد في نظر القصاص فليست كذلك والى القارىء شيئاً من ذلك :

« لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ارتجس (ارتجف) ايوان كسرى ، وسقطت منه اربع عشرة شرفة ، وخمدت نار فارس ، ولم تخمد قبل ذلك بالف عام ، وغاضت بحيرة ساوه[٢] ، ورأى الموبذان[٣] ابلاً صعاباً (غير منقادة) تقود خيلاً عراباً (عربية منسوبة الى العرب) قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها[٤] » .

---

(١) الكسائي – قصص الانبياء ص : ٧٣

(٢) مدينة بين الري وهمذان – راجع ياقوت – معجم البلدان ج ٣ : ٢٤

(٣) الموبذان للمجوس كقاضي القضاة للمسلمين .

(٤) ابن عبد ربه – العقد الفريد ج ٢ : ١٠٨ والطبري – تاريخ الامم ٢ : ١٣١

وفي سياق الحديث عن خلق الله لآدم ان الله أمر ملاكه جبريل ليأخذ قبضة من الارض ، فصدع جبريل بالأمر وصعد بالتراب الى الله تعالى فأمره ان يجعل التراب طيناً وان يخمره ويعجنه بالماء المر والعذب والملح . ثم أمر الله ملاكه جبريل ان يأتيه بالقبضة البيضاء التي هي قلب الارض وبهاؤها ونورها ليخلق منها محمداً . فهبط جبريل في ملائكة الفردوس المقربين وقبض قبضة من موضع قبر النبي وهي ، يومئذ بيضاء نقية فعجنت بماء التسنيم[١] ورعرعت حتى صارت كالدرة البيضاء ، ثم غمست في انهار الجنة كلها . فلما أخرجت من الانهار نظر الحق سبحانه وتعالى ، الى تلك الدرة الطاهرة ، فانتفضت من خشية الله ، فقطر منها مائة الف قطرة ، واربعة وعشرون الف قطرة . فخلق الله من كل قطرة نبياً ، فكل الانبياء من نور محمد خلقوا. ثم طيف بالقبضة في السماوات والارض فعرفت الملائكة حينئذ محمداً قبل ان تعرف ادم[٢] .

محمد وسائر الانبياء

يلاحظ اذن ان النبي محمد يختلف عن جميع الانبياء . فاذا كان جميع الانبياء قد خافوا من الموت فمحمد أقبل عليه هاشاً باشاً . ومحمد قد رأى الملك جبريل وتحدثا معاً اكثر من مرة . ولقد رأى الملاك جبريل محمداً يبكي فبكى معه الى ان ناداهما الله من السماء قائلاً : « يا جبريل ويا محمد ! ان الله تعالى قد أمنكما من غضبه فلا يعذبكما[٣] » .

اما فضل النبي محمد على سائر الانبياء فكفضل جبريل على سائر الملائكة . وهو اول نبي جاء في الميثاق والوحي. ولقد جاء نوح بعده ونوح سينتظره ليدخل الجنة قبله وهو يدعوه : حبيبي محمد . ويوم البعث هو اول من تنشق عنه الارض[٤] .

---

(١) التسنيم هو ماء في الجنة يجري فوق الغرف والقصور وقيل : هو ارفع شراب اهل الجنة (المعاجم) .

(٢) الثعلبي - العرائس ص : ١٧

(٣) الكسائي – قصص الانبياء ص : ٢٨٥

(٤) الثعلبي – العرائس ص : ٣٨

ولقد تنبأ بمجيء النبي محمد كثير من الانبيـاء الذين ذكرهم القرآن . فموسى يمشي على البحر ويجد الواحاً من الذهب مكتوباً عليها : باسم الله الرحمن الرحيم لا إله الا الله ، محمد رسول الله[1] .

وسليمان يركب الهواء ويمر بمدينة النبي محمد ويقول عنها : هذه دار هجرة نبي ، وهو سيد المرسلين . فطوبى لمن رآه وآمن به ! ويمر بمكة ويقول : هـذا مولد ذلك النبي ، وفضل هذا البلد (اي مكة) على سائر البلدان كفضل محمد على سائر الانبياء[2] .

وشيث يبني المدن والمنائر ينادي عليهـا : لا اله الا الله ، ادم صفوة الله ، ومحمد حبيب الله[3] .

اما آدم والجنة والنار فلم تخلق لولا محمد. عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قـال : « أوصى الله تعـالى الى عيسى عليه السلام : يا عيسى : آمن بمحمد وأمر امتك ان يؤمنوا به ، فلولا محمد ما خلقت ادم ولا الجنة ولا النار. ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه : لا اله الا الله محمد رسول الله[4] فسكن » .

كذلك سفينة نوح التي مر ذكرها ، لم تصح ولم تستطع ان تقـاوم الامواج وصخب المياه الا بعد ان سمّر نوح فيها اربعة مسامير ، عليهـا اسماء اصحاب محمد[5] .

وهناك في موضع سيرة « الحماليق » حيث يقطر من الورق ماء كحمرة الدم يوجد قبر هود ، دخله احد الناس ورأى هود ولمس بدنه . ولم يعد يعمل فيـه البلاء بعدُ شيئاً ورأى عند رأسه صخرة مثل اللوح مكتوباً عليها بالهندية ثلاثة اسطر :

---

(١) الكسائي – قصص الانبياء ص : ٢٣٣
(٢) الكسائي – قصص الانبياء ص : ٢٨٥
(٣) الكسائي – قصص الانبياء ص : ٨٠
(٤) الثعلبي – العرائس ص : ١٦
(٥) الكسائي – ص : ٩٣

اولها : لا اله الا الله - محمد رسول الله .

الثاني : وقضى الله ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا[1]

موت النبي محمد

وكما قبض الله روح نبيه ادم هكذا فعل بمحمد . لقد هبط ملك الموت لقبض روح آدم بامر من الخالق العظيم ، بصورة لا ينزل بها على احد الا على محمد[2] .

فنحن نرى ان في جميع هذه الاوصاف شيئاً من النبي محمد ولكنها جميعها لا تعطينا صورة النبي كما ترتسم امامنا من كتب التاريخ او كتب السير . ذلك ان الرواة لم يقصدوا الى تحري الحقائق بقدر اهتمامهم في اثارة فضول القارىء وذلك بعرضهم امامه حوادث عديدة ومفاجآت مدهشة ونوادر مضحكة ساذجة ، ان استلذتها العاطفة وقتاً، فلا يستسيغها العقل ولايقبلها المنطق السليم .

---

(١) الكسائي - قصص الانبياء ص : ١٠٩ و ١١٠

(٢) الكسائي : قصص الانبياء ص : ٧٧

مزايا القصص الديني

١ – الصبغة الاسلامية:
- ا – تمجيد نبوة محمد
- ب – تقديس يوم الجمعة
- ج – تفسير آيات القرآن

٢ – الخوارق

٣ – روعة الوصف وغرابته

٤ – العظة:
- ا – الدينية
- ب – الاجتماعية .

واخيراً نرى ان لهـذا القصص مزايا خاصة به ، وهي تظهر بارزة كما هي مدوّنة أعلاه واليك بعض الامثلة :

الصبغة الاسلامية

تبدو الصبغة الاسلامية في هذه الحكايات بوجوه متعددة اهمهـا تمجيد نبوة محمد وتقديمه على جميع الانبياء وذكره بين انبياء التوراة وقد مر معنا امثلة كثيرة تؤيد ما ذهبنا اليه من ان هذا القصص وضع لرفع شأن النبي العربي وآله ودينه . وليس لي ان اضيف الى الامثلة السابقة الا اسطورة حمل الرياح للنبي وذهابه لزيارة اهل الكهف[1] .

وتبدو الصبغة الاسلامية واضحة في ذكر الآيات التي يستدعي وجودها سياق الحكاية ممـا يدل على ان الحكاية وُضعت خاصة لتفسير الآيات القرانية . وهي كثيرة تملأ تضاعيف الحكايات ، لا نرى فائدة من ذكر الامثلة عليها .

تقديس يوم الجمعة

وللصبغة الاسلامية ، في القصص الديني ، لون بارز في ذكر يوم الجمعة كأنه اعظم الايام لان فيه تجري اعظم الامور واهم الاحداث .

ففي يوم الجمعة استتمت الروح في جسد ادم خمسمائة عام عند زوال الشمس[2] .

وسجد جميع الملائكة لآدم في يوم الجمعة . وبقوا في سجودهم الى العصر فجعل الله ذلك اليوم عيداً لآدم ولأولاده الى يوم القيامة[2] وكما يخلق الله ادم يوم الجمعة فهو يقبض روحه في يوم جمعة ايضاً[3] .

ويأمر الله الملائكة ان تحمـل البيت الحرام الى السماء وذلك في يوم الجمعة . وفي يوم الجمعة يولد اكثر الانبياء كابراهيم واسحق وغيرهما .

---

(١) الثعلبي ـ العرائس ص : ٢٤١ .

(٢) الكسائي ـ قصص الانبياء ص : ٢٧ .

(٣) الكسائي ـ قصص الانبياء ص : ٧٧ .

ويرى يوسف رؤياه في ليلة الجمعة ، وعندما يعلم ابوه يعقوب بوجود ابنه يوسف في ارض مصر يأتي اليه مع كل آله ويدخلون ارض مصر يوم الجمعة[1] .

وموسى يتأفف من الموت ، ثم يعود فيرضى به على ان يطلعه ربه على الساعة التي يقبض فيها روحه فيخبره بأنه متوفاه في يوم جمعة[2] .

ويدخل يشوع بن نون مدينة اريحا مع جيشه يوم الجمعة[2] . وبكلمة واحدة تقوم الساعة وقت الضحى يوم الجمعة[3] .

فأنت ترى ان العالم كله وُجد يوم الجمعه ، وان العالم كله سيزول في يوم جمعه !

وهناك تفاصيل كثيرة غير التي مر ذكرها تبين ، بجلاء ووضوح ، اصطباغ هذا القصص بالروح الاسلامي ، حتى ولو كان الحديث عن الزمن الذي سبق ظهور الاسلام .

فزيد بن عمرو يتلمّس الدين الصحيح فلا يجده لا في اليهودية ولا في النصرانية بل في الدين الحنيف ، دين ابراهيم . مع ان زيداً يموت سنة ١٧ ق. هـ. [4] .

وعندما قبل الله توبة آدم ارسل الملاك جبريل قائلاً : اذهب وحيه مني بالاسلام. ويحمل جبريل الكلمات من الله لآدم فاذا هي بعض الآيات القرآنية[5].

اما انبياء العهد القديم كابراهيم واسحق وداود وسليمان فهم كلهم مسلمون . كذلك هي امرأة ايوب ابنة افرائم بن يوسف كان اسمها رحمة وكانت مسلمة [6] .

والنبي اسحق يخرّ ساجداً لله ويرفع يديه الى السماء باشارة التوحيد وهي اشارة الاسلام [7] .

---

(١) الكسائي ـ قصص الانبياء ص : ١٥٧ .
(٢) الكسائي ـ قصص الانبياء ص : ٢٤٠ .
(٣) الكسائي ـ قصص الانبياء ص : ٣٠٩ .
(٤) ابو الفرج الاصفهاني ـ الاغاني ٣ : ١٢٦ .
(٥) الكسائي ـ ص : ٥٥ .
(٦) الكسائي ـ قصص الانبياء ص : ١٧٩ .
(٧) الكسائي ـ قصص الانبياء ص : ١٥٠ .

وعندما رفع عيسى الى السماء حُجبَ ابليس عن اربع شهوات امـا عندما رُفع محمد فحجب عن جميعها [١] .

وعندما أمر فرعون بقتل امرأته الصالحة هبط الملاك جبريل ليبشرها بالجنة وان الله قد زوجها بالبشير النذير ، السراج المنير محمد [٢] .

ومكة هي بيت الله الخاص زارها ادم وفيها قبره .

امـا الكعبة فلقد تم بناؤها على زمن ادم ! وهي مبنية من خمسة اجبل : طورسينا وطورزينا ولبنان والجودي [٣] والحجر الاسود وجد مقدساً منذ كانت الخليقة . فلقد رفع الله البيت الذي كان يحج اليه آدم صيانة له من الغرق في الطوفان كما ان جبريل خبـأ الحجر الاسود في جبل ابي قبيس صيانة له من الطوفان ايضاً [٤] .

وقد وردت قصة اهل الكهف ضمن هذه الحكايات الدينية وفيهـا تعزيز للاسلام حتى ان الرواة جعلوا بعض شخصياتها شخصيات مسلمة ، مع ان المعروف ان هذه القصة حدثت لفتية مسيحيين على زمن الملك داقيوس والقصة شائعة في الآداب السريانية [٥] .

والحقيقة التي تبدو لنا من كل ما تقدم ان كلمة مسلم تفيد معنى خاصاً في هذه الروايات المذكورة وفي القران الكريم . فعندما جاء يوسف يشكر الله تعالى ، معلناً نعمته عليه ، دعى الله تعالى ان يتولاه في الدنيا والآخرة وان يتوفاه مسلماً اي مطيعاً لله ، غير عاصٍ ولا آثم [٦] .

---

(١) الكسائي – قصص الانبياء ص : ١٨٠ .
(٢) الكسائي – قصص الانبياء ص : ٢١٧ .
(٣) الثعلبي – العرائس ص : ٥٢ .
(٤) الثعلبي – ص : ٣٥ و ٥٢ .
(٥) انيس فريحة – مجلة الابحاث السنة ١ ج ٣ .
(٦) النجار – قصص الانبياء ص : ١٧٣ .

كذلك هم الحواريون ، اصحاب المسيح الذين اختارهم ليكونوا تلاميذه وهم: سمعان بطرس ، اندراوس ، يعقوب بن زبدي ، يوحنا اخو يعقوب ، فيلبس ، برتولماوس ، توما ، متى العشار ، يعقوب بن حلفى ، لباوس ، سمعان ، يهوذا الاسخريوطي كل هؤلاء كانوا مسلمين !

اقرأ هذه الآية :

« فلما احس عيسى منهم الكفر قال : من انصاري الى الله؟ قال الحواريون: نحن انصار الله ، آمنا بالله واشهد بانا مسلمون [١] .

وهذه :

« واذ اوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا : آمنا واشهد باننا مسلمون [٢] .

فيتضح من هذه الآيات ومن كثير غيرها ان رواة القصص كانوا ، وهم يتحدثون عن اسلام الانبياء الأقدمين ، يستندون الى مثل هذه الآيات الواردة في القرآن الكريم ويعتمدون على الفكرة العامة التي تقول بان الاسلام انما يبتدىء بالنبي ابراهيم .

الخوارق في القصص الديني

قلنا ان مزايا هذا القصص كثرة الخوارق التي يصعب تصديقها حتى على انسذج من الناس .

فمن وصفه للملائكة جبريل واسرافيل وعزرائيل ،

الى وصف السماء والجحيم ، الى خلق الارض بطريقة خارقة ، الى خلق الجن ، الى صفة النار ، الى صفة ابليس العابد ، وابليس المتمرد ، الى ذكر اساطير بلقيس ملكة سبأ ، الى كيفية دخول الروح في آدم وعدد السنين التي تقضيها في

---

(١) القرآن – سورة آل عمران آية ٥١ .
(٢) القرآن – سورة المائدة آية ١١٠ .

هذا الدخول، الى الطاووس العجيب الذي له جناحان يغطي بهما سدرة المنتهى،
الى نوم صالح مدة اربعين سنة ،

الى اغراق ابليس نفسه في البحر الاعظم سبعين يوماً ، الى مركبة سليمان الهوائية يطير عليها من مكان الى مكان ، الى ولادة ابراهيم وكيف درّت له اصابعه اللبن والعسل والزبدة والخمرة والماء ،
الى البقرة الحسناء الجميلة التي تحاول ان تنطح نمرود لعتوه وعبادته الاوثان فيذبحها ثم يعيدها الله الى الحياة وينبت لها جناحين لتطير في الهواء ،
الى نمرود يغزو الله في تابوت تحمله النسور فينطلق في سفرة خيالية يخر على اثرها مصعوقاً ويبقى مختبئاً في قعر البحر اياماً طويلة ،
الى كبش المذبحة الذي يحسن الكلام ويدعي انه رعى في مروج الجنة اربعين خريفاً ، الى عصا موسى السحرية ، الى حية مثل الجمل ، تقطع الصخور وتبتلع كل شيء وتتكلم بأعلى صوتها مع فرعون ،
الى الحجارة والعواميد التي تتكلم ،
الى الاطفال الذين ينطقون بالحق وهم لا يتجاوزون الأشهر الستة ،
الى الريح التي تحمل رائحة قميص يوسف الى ابيه يعقوب من مسيرة عشرة ايام ،
الى تفسير أبجد هوز تفسيراً عجيباً غريباً مرّ ذكره ،
الى النار التي تكلم آدم ،
الى هذه السبعمائة لغة التي يتكلمها آدم ،
الى قابيل الذي يتزوج بجنية وهابيل الذي يتزوج بحوراء ،
الى الزهرة المرأة الفاتنة الجميلة التي طغت هاروت وماروت فمسخت كوكباً !
الى ... الى ما شاء القارىء من مثل هذه الروايات وفيها الطريف المسلي وفيها الساحر الفتان ، وفيها الساذج السخيف !

ولن أقف طويلاً عند هذه الروايات الخارقة ، والخرافات الكثيرة ، والمبالغات الخيالية ، بعد ان أبديت رأياً فيها[1] على انني أسرع فأضيف الى ما

(١) راجع هذا الكتاب ص : ١٣١ - ١٣٤ .

قلته سابقاً ان هذه المبالغات وهذه الخرافات ليست وقفاً على أمة دون أخرى بل هي ، على الأرجح ، وليدة العصور القديمة ، يتساوى في ذلك العرب وغير العرب من الشعوب القديمة . وهذه الياذة هوميروس ومثلها جحيم دانتي وكثير غيرها من الملاحم القديمة ، كلها مشحون بالحوادث العجيبة والاقاصيص الغريبة . وقد نقل المؤرخ جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية رسوماً عن اصول خطية ترجع الى القرن الثالث عشر للميلاد ، وهي تمثل الاسكندر المقدوني يحارب اقواماً رؤوسهم وحشية واقواماً آخرين متوحشين لكل منهم ست ايدٍ[1] .

وهذه المبالغات لا تلفت النظر لمخالفتها العقل والمنطق فحسب ، بل في انها تخالف النواميس الطبيعية ايضاً . وهي كما ذكرنا سابقاً ، وليدة البيئة والعصر اكثر مما هي خاصة بشعب معين من الشعوب .

والذي يثير العجب في هذه الخوارق ويدعو الى التساؤل حقاً هو اعمار بعض الانبياء وعدد السنين التي يعيشها كل منهم .. فآدم عمّر نحو الف سنة ونوح ٩٥٠ سنة وشيث ٩٢٠ سنة وعوج بلغ ٢٠٠ سنة وكان طوله نحو ٣٣٠٠ ذراع ! وهارون بلغ ١٢٧ سنة وابراهيم ١٧٥ سنة واسحق ١٠٠ سنة وموسى ١٦٠ سنة . وهكذا قل في بقية الرسل والانبياء . فما معنى هذه السنين ؟ وهل كانت تعني لهم ما تعنيه لنا اليوم ؟ واذا كان كذلك فكيف نفسر هذه الاعمار الطويلة في ذلك الزمن بينما اكثر اعمار ابناء اليوم لا تبلغ الثمانين او التسعين ؟

والحقيقة انه ليس لدينا جواب قاطع عن هذا السؤال ولن نتعدى في ردنا ما قاله بعض الذين حاولوا ان يدرسوا هذه الظاهرة وهاك بعض آرائهم :

ان الانبياء الاولين والذين عاشوا في زمنهم استطاعوا ان يعمروا طويلاً لخلوّ اجسامهم من الامراض الفتاكة والمتاعب ، والصعوبات التي تنهك الجسم البشري في الوقت الحاضر . فلا يستطيع جيلنا ان يعمّر كالاجيال الغابرة .

---

(١) زيدان — تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ : ٢٩٧ .

ولولا هذه الحياة الضنكة ، تستنفد قوانا وجميع مـــا ندخره من عناصر الحيـاة والنشاط لاستطاع الواحد منا ان يعيش نحو المئتي والثلاثمائة سنة . هذا هو رأي بعض العلماء الغربيين .

وهناك رأي آخر وهو ان العام في نظر ابناء الماضي لم يكن يعتبر اكثر من شهر من شهورنا . فالف سنة من سنيهم تساوي الف شهر من شهورنا . وهذا ما عناه ابو العلاء في قوله :

وروَوا للمعمِّـــرين امـــوراً لستُ ادري ما هنَّ في المشهورِ
اتراهم ، فيما تقضَّى مِنَ الايامِ عـدُّوا سنيَّهم بالشهـورِ ؟
كلما لاحَ للعيونِ هِـلالٌ كان عاماً لديهم في الدهورِ
هكذا ينبغي والا فإنَّ العقلَ يثني في حـالةِ المبهورِ[1]

وهناك من يشير الى ان المغالاة ظاهرة في هذه الروايات ، لانه يستحيل على الانسان ان يعيش خمسة قرون واحياناً عشرة ، اذا صدقنا هذه الروايات ، مهما خــلا جسمه من الامراض ومهما ابتعدت عنه الهموم والهواجس ! ويستشهد اصحاب هذا القول ببعض المعمرين في وقتنا الحاضر . فاذا ما سألت احدهم عن عمره الحقيقي اجـابك فوراً : عمري طويل ، طويل جداً يبلغ المئة فما فوق . وتكون الحقيقة دون ذلك بكثير . وربما كان القصاص يتبعون هذه الطريقة فلا يأبهون للارقام ولا يهتمون بالاعداد[2] . ولكن اذا صح هذا القول على رواية الرواة وقصص القصاص ، فهل يصح اطلاقه وتعبيره على التوراة والقرآن ، وفي كليهما ذكر لهذه الارقام الضخمة ؟ بقي ان نعود الى كتب التفسير المختلفة عن اسفار التوراة .

---

(١) عبد القادر النجار – قصص الانبياء ص : ٦٨ .

(٢) الهمذاني – كتاب الاكليل ج ٨ : ٢٥٣ رأي لنـاشر الكتاب الاب انستاس ماري الكرملي البغدادي .

والحقيقة ان في بعض تلك الكتب محاولات لشرح هذه الارقام ولكنها محاولات تبقى في حيز التخمين لا يطمئن اليها الباحث اطمئناناً علمياً[1] .

اثر التوراة في القصص الديني

لقد بيّنا اثر التوراة، وهو بارز واضح ، في هذا القصص الديني ، وهنا نشير الى مقدار هذا الاثر والطرق التي تسرب منها الى هذا القصص .

يرجع ذكر التوراة الى القرآن الكريم ككتاب من الكتب المنزلة « إنـّا انزلنا التوراة فيها هدىً ونور[2] » . فكان من الطبيعي ان ينظر اليهـا علماء المسلمين نظرة إجلال واحترام وان يتأثر بها الرواة والمؤرخون وخاصة في بحثهم حياة الرسل والانبياء .

والمظنون ان التوراة ترجمت الى اللغة العربية قبل الاسلام وقد شاعت بين الادباء العرب يومذاك ولكنها فقدت . امـا الترجمة العربية للتوراة فقد ظهرت في العصر العباسي الثاني[3] . ويذكر ابن النديم ان احد علماء اليهود المتمكنين من اللغة العربية واسمه سعيد الفيومي ، قد ترجم التوراة وله عدة مؤلفات دينية اخرى[4] . ويذكر ابن النديم ترجمة اخرى لاحمد بن عبدالله بن سلام .

ولقد تأثر كثير من ادباء العرب ورواتهم في الاعصر العباسية بالتوراة وغيرها من كتب اليهود الدينية . ولكن معلوماتهم تلك كثيراً مـا كان يشوبها الخلط التـاريخي فتأتي مشوّهة ، مليئة بالاساطير والخرافات ، بعيدة عن الحقيقة والمنطق . ذلك انهم كانوا يستقون من منبع واحد ، لا يصح الاعتماد عليه ولا يركن اليه ألا وهو : كعب الاحبار ووهب بن منبه .

---

(١) S. R. Driver - The Book of Genesis - London p: 79

(٢) J. Skinner - Genesis - Edinburgh, 1910 p: 127

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية – زيدان ج ٢ : ١٥٥ .

(٤) ابن النديم – الفهرست ص : ٢٣ .

كعب الاحبار

اما كعب فهو اقدم إخباري في الاسرائيليات وقصص الانبيـــاء ، يهودي الاصل من اليمن، اعتنق الاسلام في خلافة ابي بكر او عمر على الاغلب. عاصر النبي ولكنه لم يره .

وهب بن منبه

اما وهب فقاصّ من اليمن ، مشهور في اخباره عن اهل الكتاب ، فارسي الاصل ، يذكر الفهرست انه من اهل الكتاب ويزعم ابن خـــلدون انه يهودي والاغلب انه ولد مسلماً .

اخباره عن اهل الكتاب منتشرة في اكثر المصادر العربية، وتزعم هذه المصادر انه قرأ نحو سبعين كتاباً من كتبهم المقدسة ممـــا لا يستطاع تصديقه لان اكثر اخباره منقولة شفاهاً عن اهل الكتاب .

وهناك غير هذين الاخبـاريين ممن كان يهودياً فاسلم، فحمل معه إلى الاسلام هذه الاخبـــار الكثيرة منقولة عن التوراة ، وهذه المنقولات هي التي سميت بالاسرائيليـــات . ولقد شاعت هذه الروايات وانتشرت انتشاراً كبيراً حتى مُلئتْ بها كتب القصص الديني واهمها الكتابان اللذان ندرسهما وهما كتابا الثعلبي والكسائي .

ولم يقف تأثير هؤلاء الرواة على القصص الديني الذي ندرسه بل تأثر الاسلام بنظريات عديدة تسربت اليه عن طريق هؤلاء الرواة منهـــا : اهتمام مؤرخي المسلمين كالطبري وابن الاثير وابن قتيبة بنقل تاريخ بني اسرائيل ومحاولة البحث في جواز نسخ القرآن ، جرياً عـلى بحثُ اليهود في نسخ التوراة ، والقول بخلق القرآن كما قال بعض اليهود بخلق التوراة من قبل ، وكثير من الامور الكلامية التي تسربت عن طرق متعددة اهمها الرواة اليهود .

فجميع هذه الروايات وجميع هذه الاحاديث كوّنت ثقافة يهودية كان لها

اثرها البيّن في الثقافة الاسلامية العربية في العصر العباسي عامة وفي القصص الديني بصورة خاصة .

والذي لا بد من ذكره هنا هو ان هذه الثقافة لم تكن كلها صحيحة علمياً لانها لم تؤخذ كلها عن مصادرها الصحيحة كما ذكرنا سابقاً . فبعضها وصل الى المسلمين عن العلماء الموثوق بكلامهم ، وبعضها اخذ عن الرواة الذين لم يتورعوا عن ذكر روايات كثيرة هي بالاساطير اشبه منها بالحقائق الدينية .

وما قلناه عن تأثير هذا القصص الديني بالثقافة اليهودية عامة وببعض اقوال التوراة خاصة نقوله عن تأثره بالثقافة المسيحية . فلقد رأينا هذا القصص يتعرض لحياة السيد المسيح ويرويها كما فهمها هؤلاء الرواة . كذلك هو يتعرض لحياة زكريا ويحيي ابنه (ابو يوحنا) ومريم وغيرهم كثيرين .

قيمة القصص الديني

١) العبرة : سبق القول ان الغاية الاساسية التي وضع هذا القصص من اجلها هي دينية ، اخلاقية ، اجتماعية . وانه ليبدو من السهولة بمكان ان يستجلي القارىء العبرة الاخلاقية والعظة الدينية من كل حكاية يقرؤها .

فلقد ادعى رواة هذا القصص ان الله سبحانه وتعالى ، ابتلى حواء وبنات جنسها بخمس عشرة خصلة لانها خالفت وصية الله فأكلت من شجرة الخير والشر واطعمت زوجها آدم . وهذه الخصال تؤلف دستور المرأة الاجتماعي بعرف هؤلاء الرواة[١] .

وفي جواب إبليس عن سؤال وجهه اليه سليمان الحكيم : « اي الاعمال احب اليك ؟ » عظة ودرسٌ اجتماعي . قال إبليس مجيباً سليمان :

لولا منزلتك عند الله تعالى ما أخبرتك أني لستُ أعلم شيئاً أحب إليّ وأبغض الى الله تعالى من استغناء الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة[٢] .

---

(١) الثعلبي – العرائس ص : ٢١ و٢٢ .
(٢) المصدر نفسه ص : ٢٧

وقيل ان آدم وهب من عمره ستين سنة لابن له اسمه داود ، فلما حان أجل آدم جاء ملاك الموت لقبض روحه ، فطالبه آدم بالاربعين سنة ، فذكره الملاك بانه وهبها لابنه داود فأنكر آدم ذلك ، فأنزل الله عند ذاك الكتاب وأقام الملائكة شهوداً[1] .

وهناك كثير من الصفات الحميدة التي يمكن اكتسابها من هذا القصص منها : سعة الصدر ، وعدم مقابلة الشر بالشر ، وعمل الخير لوجه الله تعالى ؛ والايمان القوي بالله وبملائكته ، ورقة القلب ، ورسوخ العقيدة واستهانة الصعائب في سبيل خدمة الحق ودحض الباطل ، والصدق في الوعد ، والاخلاص في الاعمال وما شاكل هذه الصفات التي تحلى بها جميع الرسل والانبياء .

ويكفي ان نذكر ابراهيم وما قام به من رائع الاعمال في سبيل الاله الحق ، وابنه اسحق وقبوله ، دون أقل تأفف او جدل ، ان يقدم ذبيحة الى الرب ويوسف وما لاقاه من عذاب شديد وآلام مبرحة من إخوته وصبره عن كل ذلك ثم عفوه عنهم ، وموسى وما قابله به بنو اسرائيل من اضطهاد وجحود ونكران جميل واحتماله كل ذلك ، يكفي ان نذكر كل هذا لنتذكر قول القرآن الكريم :

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب[2] » .

٢) الوصف الغريب : ولهذا القصص جماله الخاص ولونه الخاص وهما يظهران في الوصف الغريب الذي يحمل القارىء الى عوالم فوق هذا العالم ودنياوات غير هذه الدنيا . وليس لي ان أخص هذا الوصف بمدح او استهجان لما فيه من روعة الخيال وسذاجة التفكير ولكنني عارض بعض النموذجات امام القارىء ليكوّن حكمه الخاص بعد ان يطلع عليها .

ان الباحث في هذا القصص ليحتار في الاختيار ، اختيار الامثلة التي قد

---

(١) الثعلبي – العرائس ص : ٣٠
(٢) سورة يوسف – الآية ١١١

تسترعي انتباه القارىء . أيضع امام عينيه وصف ناقة صالح وكيفية ولادتها من الصخرة ؟ أم وصف نمرود الطاغية الجبـار وقتله النساء والاطفال ؟ أم وصف السماء والجحيم ؟ ام خلق الجن من النار وصفة النار ؟ أم كيف أهلك الملائكة مدائن لوط عندما قالت له امرأته : يا لوط ! الى أين تخرج ؟ هل لربك قدرة على ان يهلك هذه المدائن كلها ؟ فأتاها حجر من حجارة السجيل ووقع على رأسها وأهلكها . فقيل إنها بقيت ممسوخـة حجراً اسود عشرين سنة ، ثم خسفت بها بطن الارض ، ثم بسط جبريل جناح الغضب واسرافيل جمع اطراف المدن ، وميكائيل جعل جناحه تحت تخوم الارض السابعة السفلى ، وعزرائيل تهيأ لقبض ارواحهم بكلاليب من نار . فلما برق عمود الصبح ، قلع جبريل هذه المدن من آخرها حتى بلغ الى الماء الاسود ، ثم رفعها بجبالها ودورها واشجارها وانهارها! حتى انتهى الى البحر الذي في الهواء ، ثم قلبها وجعل عاليها سافلهـا . فسمعت الملائكة الذين في السماء الدنيا لتسبيح الديوك ونباح الكلاب فقالوا : من هؤلاء المغضوب عليهم ؟ فقيل لهم : هؤلاء قوم لوط ، فضجت بالتسبيح والتقديس لله ! فنودي: جبريل يا جبريل، اضرب المدائن التي على جناحك بعضها ببعض وأمطر عليها حجارة من سجيل، فاستيقظ القوم وهم يهوون في الهواء والنار من تحتهم، والملائكة يرجمونهم بالحجارة المسومة ، فجعل يخرج من تحت تلك المدن دخـان اسود منتن ، لا يقدر احـــد ان يشمه . وبقيت آثار المدائن ليعتبر بها كل من رآها[1] .

وتبدو سذاجة هذا القصص في الحوار التالي يجري بين ذي القرنين وجبـل قاف : « وخلق الله تعالى جبلاً عظيماً من زبرجدة خضراء خضرة السماء منـه يقال له جبل قاف . وهو الذي أقسم الله بـــه فقال ق والقرآن المجيد . وقال وهب : ان ذا القرنين أتى على جبل قاف فرأى حوله جبالا صغاراً. فقال له من انت ؟ قال انا قاف . قال : فاخبرني ما هذه الجبال التي حولك ؟ فقـال : هي عروقي . فاذا أراد الله ان يزلزل ارضاً أمرني فحركت عرقاً من عروقي فتتزلزل

(١) الكسائي – قصص الانبياء ص : ١٤٩

الارض المتصلة به . فقال : يا قاف ، أخبرني بشيء من عظمة الله تعالى . فقال : ان شأن ربنا لعظيم تقصر عنه الصفات وتنقضي دونه الاوهام . قال : فاخبرني بأدنى ما يوصف منها ؟ قال : ان ورائي لارضاً مسيرة خمسمائة عام من جبال الثلج يحطم بعضها بعضاً . ومن وراء ذلك جبال من البرد مثلها ، لولا ذلك الثلج والبرد لاحترقت الدنيا من حر جهنم[١] .

واليك صفة داود النبي وصفة صوته الذي لم يسمع السامعون مثله :

« روي ان بني اسرائيل تفرقوا واشتغلوا بملاهي الشيطان . فمنهم من لها بالعيدان ومنهم من لها بالطنابير والمزامير والزنوج[٢] وما يشبه ذلك،حتى بعث الله داود نبياً وأنزل عليه ستين سطراً من الزبور وأعطاه من الصوت ما كان يزيد على سبعين لحناً يترسل ويترتل، لم يسمع السامعون مثله خفضاً ورفعاً. وكان يحكي في مزاميره اصوات الرعد وصفير الطيور وحنين الوحوش . وكان يأتي في المزامير بكل صوت طيب في الدنيا فتركوا (كذا) بنو اسرائيل لهوهم ولعبهم وأقبلوا نحو محرابه يسمعون منه اصواته . وكان اذا سبح سبحت الجبال معه والطيور والوحوش . وكان داود يوم عبادته، يذهب الى الهيكل ويدعو باسفار الزبور ، ويأخذ في ترجيع الحانه ، فكان لا يتلو شيئاً من مزاميره الا كانت الوحوش والطيور تجيبه (كذا) عند ترجيعه ، واستأذنت الملائكة ربها في زيارة داود فنزلت حتى أحاطت حول محرابه . فكانوا ينقلون عنه وترفرف عليه الطيور وتسبح معه الجبال وتقدس معه الوحوش والسباع الخ[٣] .

ولعله من المستحسن ان نختار بعض المقاطع من قصة سليمان وما منحه اللـّه من خصائص جعلته فوق البشر . قيل : « لما توفي داود هبط جبريل على سليمان وقال له : ان اللـّه يقول لك : أيّما أحب اليك ؟ الملك او العلم ؟ فخر سليمان ساجداً للـّه وقال : يا رب ، العلم أحب اليّ من الملك . فأوحى اللـّه الى سليمان اني أعطيتك الملك والعلم والعقل وكمال الخلق »

---

(١) الثعلبي — العرائس ص : ٤ .

(٢) لعلها الصنوج .

(٣) الكسائي -- قصص الانبياء ص : ٢٥٨ و٢٥٩

ثم أقبلت الرياح الاربع ووقفت بين يديه وقالت : يا نبي اللّه ! ان اللّه قد سخّرنا لك فاركبنا الى اي موضع أردت. ثم أقبلت الوحوش والسباع والطيور وقالت : ان اللّه قد أمرنا بطاعتك لتصنع بنا ما شئت .

ثم أقبل جبريل ومعه خاتم الخلافة الذي أخذه من الجنة يضيء كالكوكب الدري وله لمعان واربعة اركان . مكتوب على الركن الاول : لا إله الا اللّه ! ومكتوب على الثاني : كل شيء هالك الا وجهه ! وعلى الركن الثالث : له الملك والكبرياء والسلطان ، وعلى الركن الرابع : تبارك اللّه أحسن الخالقين[1] .

وأمر سليمان بني اسرائيل باتخاذ السلاح والسيوف . وكان عنده اثنا عشر الف درع من عمل ابيه داود . فأجابوه الى ذلك باجمعهم .

ثم ان جبريل نشر احد جناحيه بالمشرق والآخر بالمغرب فحشر الجن والشياطين من كل فج وجانب يسوقها سوق الراعي لغنمه ، حتى صارت بين يدي سليمان ، وهم يومئذ اربعمائة وعشرون فرقة ، كل فرقة على غير دين الاخرى. ثم أمر اللّه سليمان ان يبني بيت المقدس عند صخرة المعراج . فجمع سليمان مردة الشياطين وعفاريت الجن وحكماء الانس ، وفرّق الشياطين في قطع الصخور ونشر الرخام وغير ذلك . فأمر بحفر الاساس حتى بلغ الماء وأمر ببنيانه فغلب الماء على الاساس . فصنع الجن افلاكاً من نحاس ورصاص وكتبوا عليها : لا اله الا اللّه فثبت الاساس وارتفع البنيان !

وبنى سليمان البيت المقدس بانواع الجواهر ووضع فيه الف عمود من الرخام ووضع على كل عامود مناراً من الذهب الاحمر ، حتى اذا فرغ من بنائه في مدة اربعين يوماً ، لانه كان يعمل فيه كل يوم الف عفريت والف شيطان والف بنّاء من الانس ، علّق فيه الف قنديل من الذهب الاحمر ، سلاسلها من الفضة البيضاء . ثم قرّب فيه قرباناً عظيماً وقال : إلهي وسيدي ! انك ألبستني لباس

---

(١) الكسائي - قصص الانبياء ج ٢ : ٢٧٨

النبوة وأعطيتني الملك العظيم . أسألك ان تعطيني في بناء بيتك المقدس ما أعطيت ابراهيم الخليل في بناء الكعبة !.

واستأذنت الملائكة ربها في زيارة البيت فأذن لها . وسمعت الملوك بالبيت المقدس من اطراف الاقاليم فجاؤوا لزيارته فتعجبوا من حسنه وصنعته. ثم اتخذ سليمان اثني عشر الف كرسي من العاج والابنوس . واتخذ لنفسه كرسياً من عظام الفيلة ، قوائمه من الذهب ، وضع فيه تماثيل الوحوش والسباع والطيور . وكان مرصّعاً باللؤلؤ ، كل لؤلؤة على قدر بيض النعام . وكان في الدرجة الاولى منه كرمة الذهب ، اوراقها من الزبرجد ، وعناقيدها من الجواهر على مثال العنب .

وركّب على يمين الكرسي وشماله نخلاً من الذهب وعلى النخل طواويس وطيوراً وعقباناً مجوفة مرصعة بالجواهر تدخل الرياح في اجوافها فتصفر صفيراً لم يسمع السامعون مثله !.

وركّب على الدرجة الثانية اسدين عظيمين ! وعلى الدرجة الثالثة طيوراً وطواويس ونسوراً !

فكان سليمان اذا صعد الدرجة الاولى ترفرف العقبان والطيور اجنحتها وتنشر عليه المسك .

وإذا صعد الدرجة الثانية تصيح الوحوش والسباع ، ويسمع صوتاً وراءه : يا ابن داود ! اشكر الله على ما اعطاك من هذا الملك العظيم . واذا صعد الدرجة الخامسة سمع نداء يقول : انه بما تعمل بصير . واذا صعد الدرجة السابعة دار الكرسي بما عليه ثم سكن فيجلس عليه فتنشر الطيور عليه المسك والعنبر[١] .

رأي خاص

وليس لي ان ازيد على ما ذكرته من امثلة، فكلها تكاد تتشابه معنىً ومبنىً .

---

(١) الكسائي – قصص الانبياء ص : ٢٨٧ – ٢٨٣

على اننا نلاحظ على هذا القصص بعض ملاحظات لا بد من ذكرها اتماماً للفائدة :

نرى ان هؤلاء القصاص قد حكموا خيالهم في هذا القصص الى حد بعيد وأرخوا له العنان فما وقفوا عند حد ولم يوفقوا ان يصوروا ما يلذ للعين والاذن والقلب معاً . ورب معترض يقول : ان الخيال من مزايا الاديب القاص التي يحتاجها حاجته الى اي عنصر آخر من عناصر الكتابة ، فنجيب بان خيال الرواة في هذا القصص كان من نوع خاص . هو خيال مكبوت ، محدود لا يسمو بك الى فوق حتى يصدمك بالمحسوس الملموس ! وهو خيال واحد ، لا يتغير ولا يتنوع ، يقودك ابداً ودائماً الى هدف واحد وغاية واحدة : هي المادة المجسمة ! وهنا لا بد من الوقوف لنشير الى هذه المادية تجابهك في هذا القصص . فالمسك والعنبر ينشران عليك من كل حدب وصوب .

وبيت المقدس ، كما رأيت ، يبنيه الجن والعفاريت بامر سليمان بانواع الجواهر والرخام والذهب .

والكراسي التي يجلس عليها الانبياء هي من العاج والابنوس وعظام الفيلة .

واللؤلؤ والزبرجد ، على ألوانه الجميلة ، المختلفة ، هي الحجارة الكريمة التي منها تكون الارض والجبال وغير ذلك .

وليس في هذا القصص شيء من التحليل النفساني او التعليل المنطقي . فلقد رأينا الامثلة العديدة التي لا علاقة بين مختلف اجزائها ولا ارتباط . فقد تجابهك حكاية قائمة بنفسها ، بينما انت تقرأ حكاية ثانية اخرى ، دون ان يكون للواحدة علاقة بالاخرى .

اما الاخبار العجيبة والمفاجآت الغريبة البعيدة عن التصديق ، الخالية من كل منطق فهي اكثر من ان تحصى ؛ ولقد مر معنا امثلة كثيرة عنها .

ونرى ان التسلسل الفكري غير منسجم ، بل يكاد يكون مفقوداً في بعض الحكايات . وبكلمة لم ينظر الراوية او القاص الى الاحداث التي وصفها والحكايات التي قصها ككل يبحثه او يعلله ويحلله كما يفعل العالم النفساني ، بل كان يطوف هنا وهناك ، فيرى هنا زهرة وهناك وردة ، ويعثر ، وهو يتخبط ، بدرة او

بلؤلؤة ، فيجمع كل ذلك ، ويحمله بين يديه ، فرحاً به ، تمـــاماً كما يحمل الطفل ألعابه الجميلة ، وهو لا يستطيـع ان يجمع بعضها الى بعض او ان يصيـغ منهـــا وحدة تلذ للقلب والروح ، كما تلذ للعين والنظر .

ولقد وصل الينا هذا القصص ، كغيره من الالوان القصصية التي مر ذكرها ، على ألسنة الرواة ففقدت القصة الواحدة بذلك كثيراً من الترابط والتماسك بين اجزائها المختلفة وضاعت الغاية التي وضع من اجلها او كادت .

ولعل ابرز ميزة في هذا القصص ، انك لا تجد فيه شخصية لمؤلف او راوية مهما كان هذا المؤلف شهيراً في عالم الادب .

الفصل السّابع

القصص اللغويّ

١ ـ تعريفه

٢ ـ تسميته

٣ ـ مادته

٤ ـ المقامات :

أ ـ مقامات الهمذاني

ب ـ مقامات الحريريّ

القصص اللغوي

١ – تعريفه ٢ – تسميته ٣ – مادّته

تعريفه

عنينا بالقصص اللغويّ الحكايات التي ألفها أصحابها بأسلوبٍ قصصي وهم يرمون فيها الى غايةٍ لغويةٍ اكثر مما يهدفون إلى كتابة القصة .

ظهر هذا اللون من القَصص ، اكثر ما ظهر ، في العصر العباسي ، أنشأه أصحابُهُ وغرضهم من وضعه ، تبيـــان مقدرتهم اللغوّية قبل اي شيءٍ آخر . فجاءت الحكاياتُ اللغوية مشحونة بالمحسّنات اللفظية من جناس ، وطباق ، وتورية ، واستعارات وغير ذلك من انواع البديع التي طغت على الفن القصصي والعنصر الفني في هذا اللون من القَصص؛ فجاء في مجمله ، قصَصاً باهتاً يختـــال بديباجة لغوّية انيقة ، وإنما تنقصه أهم مزايا القصة كما سنرى .

تسميته :

هو قصَصٌ لأن اصحابه استخدموا القصّة مركباً لأفكارهم ، لقد قالوا ما قالوه ، وصبّوا آراءهم وأفكارهم في قالبٍ قصصيٍّ ، قد يكون هزيلاً ، لا بل هو هزيل ، إنما هو ، على كل حال ، قصّة .

وهو قصصٌ **لغوي** لأن مواضيعه ، مهما تعدّدت ومهما تنوّعت ، تبقى اللغة سداها ولحمتهـــا . وهو قصصٌ لغويٌ لأن الحكاية الواحدة تجمع من اساليب الكلام ، وانواع القول ، وضروب اللغة اشكالاً وألواناً .

مادته :

خيرُ مثالٍ على القَصص اللغويّ **المقامات** : مقامات الهمذاني (٣٩٨ هـ)

ومقامات الحريري (٥١٦ هـ) . وقد يكون هناك حكايات لغويّة غير المقامات تدخل في هذا الباب ، ولكنها تبقى حكاياتٍ مشتّتة لا يجمعها كتابٌ واحد معين من كتب الاصول العربية ، إنمــا هي منتشرة ، هنا وهناك ، في كتبٍ مختلفة ، وهي غيرُ معروفة المؤلف ، لذلك هي أقربُ الى القصص الإخباري[١] منها الى القصص اللغوي .

فالمقامات هي المعوّل عليها في دراستنا القصص اللغويّ ، وهي وحدها مصدرُنا الغزير لهذا اللون من القصّة . والمقامات ، بما فيها من مواضيع لغويّةٍ كثيرة ، وبما تحملهُ من عباراتٍ حسنةِ الرّصف ، وتراكيبَ أدبيّةٍ منمّقة ، هي خير نموذجٍ لدراسة القصص اللغويّ ، وتبيان مزاياه الأدبيّة والفنيّة .

فما هي المقامات ؟ ومن هم أشهر أصحابها ؟ ومتى نشأت ؟ وكيف ؟ ولماذا دُعيت بالمقامات ؟ ولماذا تدخل في باب القصص اللغويّ ؟ وإلى أيّ حدٍ تتّفق والقصّة بمعناها الفني الأدبي ، وإلى أيّ حدٍّ تختلفُ عنها ؟

مثلُ هذه الاسئلة جديرة أن تثير اهتمام دارسي الحكايات اللغويّة عــلى الأخصّ . ونحن في هذا الفصل ، وقد خصصناه بالقَصص اللغويّ ، سنعرّف بالمقامات تعريفاً واضحاً ، وسنبيّن نشأتها وأنواعها المختلفة ، كما واننا سندرسها من حيثُ الفنُّ القصصي فيها ، متوقفين عند اشهر اصحابها : الهمذاني والحريري ، بعد ان نمرّ باصحاب المقامات عامة .

ما هي المقامات ؟!

لن ندخل في بحثٍ مستفيض في دراسة المقامات وأصلها وأوّل من وضعها وغير ذلك من امور تهمّ دارس المقامة اكثر مما تهمّنا نحن في هذا الفصل الذي عقدناه لدراسة العنصر القصصي في المقامة اكثر من دراسة المقــامة نفسها . فالمقامات تهمنا من ناحيتها القصصية ومن هنا كان أن خصصناها بلونٍ من ألوان القصة قائم بنفسه هو **القصص اللغوي** .

---

(١) راجع تعريفنا : القصص الاخباري ص : ٣٣

فالمقامات أحاديث أدبيّة لغوية يلقيها راوية من الرواة في جماعة من الناس، بقالبٍ قصصي يقصد فيه الى التسلية والتشويق، لا الى تأليف القصة والتحليل.

ويمكن تقسيم المقامات، جميع المقامات التي وصلتنا، الى اقسامٍ مختلفةٍ طبقاً لموضوعها. فمنها المقامة الادبية اللغوية، ومنها الفقهية، ومنها الطبيّة، ومنها المجونية، ومنها الخيالية، ومنها الاخلاقية، الى ما هنالك من مواضيع خطرت في بال الهمذاني والحريري أشهر كتّاب المقامات في العصر العباسي.

ويصعب الجزم في نسبة المقامات من حيث إنشاؤها واختراعها، الى شخص واحد، فهي، كما يرى، اكثر الباحثين، وكما يتفق مع منطق العلم والتاريخ، « نتيجة لتطور طبيعي طرأ على النثر المسجوع والكلام المرصّع الذي كان يمثله ابن دريد[1] وسواه من المنشئين المتقدمين[2]. »

وانتشرت المقامات في الادب العربي انتشاراً كبيراً وكان لها خطرها الأدبي وأثرها في كثيرٍ من كتّاب العربية وأدبائها فأخذ الكثيرون ينشئون المقامات نذكر منهم:

ابن نُباتة السعدي ابو نصر عبد العزيز بن عمر، المتوفى ٤٠٥ هـ.

ابن ناقيا، ابو القاسم عبيدالله بن محمد المتوفى ٤٨٥ هـ.

الزمخشري، ابو القاسم جارالله بن عمر المتوفى ٥٣٨هـ وله خمسون مقامة تمتاز بقصرها وفي أنها في موضوعٍ واحد هو الحث على الخير واعمال البر.

ابن الاشترقوني، نسبة الى اشترقونة في المغرب، ابو طاهر محمد بن يوسف السرقسطي المتوفى ٥٣٨هـ. وله خمسون مقامة سمّاها المقامات السرقسطيّة.

---

(١) توفي ابن دريد سنة ٣٢١هـ ويرى بعض الباحثين شبهاً بين احاديثه (احاديث ابن دريد) وبين المقامات.

(٢) حتي، جرجي، جبور، تاريخ العرب (مطوّل). بيروت دار الكشاف. ج١ سنة ١٩٤٩ ص: ٤٩٠.

يحيى بن سعيد الطبيب النصراني ، المتوفى ٥٨٩هـ وتعرف مقاماته بالمقامات المسيحية .

ابو المنصور البغدادي المتوفى ٥٧٧هـ .

احمد بن الأعظم الرّازي ، ابو العلاء احمد بن ابي بكر المتوفى في نهاية القرن السادس ، وله ثلاثون مقامة .

ابن الصيقل الجزري ، زين الدين المتوفى ٧٠١هـ .

محمد بن ابراهيم الدمشقي المتوفى ٧٢٧هـ . له خمسون مقامة وتعرف بالمقامات الفلسفية .

عمر بن الوردي المتوفى ٧٤٩هـ .

جلال الدين السيوطي المتوفى ٩١٩هـ .

شهاب الدين الخفاجي المتوفى ١٠٦٩هـ .

وغيرهم ممن أخذوا بروعة المقامات الهمذانية والحريرية فكتبوا يعارضونها ويقلدونها ، فجاءت اكثر مقاماتهم تقليداً باهتاً لا حياة فيها ولا نشاط .

والغريب ان جميع هؤلاء وغيرهم كثيرين ممّن تصدى لكتابة المقامات ، نسجوا في انشائهم نسجاً واحداً واتجهوا اتجاهاً واحداً : فلكل كاتبٍ في مقاماته راوية يروي الاخبار ، ولكل مقامةٍ بطلٌ تدور حوله الحوادث ، وجميعها تستهدف هدفاً واحداً ، وتدور حول موضوعٍ يكاد يكون واحداً ، وتشترك كلها في هذا الاسلوب اللغوي الذي يتمسك به جميع مؤلفيها مما يجعلها حافلةً بأساليب اللغة والوان البيان والمحسنات اللفظية المختلفة .

والجدير بالذكر ان اثر المقامات لم يقتصر على الادب العربي في الشرق بل تعدّاه الى بلاد المغرب ، بلاد الاندلس .

يحدّثنا الاستاذ انخيل جنثالث بالنثيا[١] في كتابه : تاريخ الفكر الاندلسي عن المقامات حديثاً قصيراً فيقول في سياق بحثه عن الحريري :

---

(١) Angel Gonzalez Palencia -
Historia de la Literatura Arabigo - Espanola.

« وجعل الكتاب خمسين فصلاً سمّى كل واحدٍ منها « مقامة » إشارة الى اجتماعات العلماء والادباء في قصور الملوك والحكام . وكانت هذه المجالس تسمّى المقامات ، وكانت الاحاديث فيها تدور حول النحو والادب ، وكان المجتمعون يتنافسون في إظهار ما لديهم من براعة وعلم[1] ...

وانه لممّا يستلفت الذهن ، ويدعو الى الدهشة ، ذلك الشبه العظيم بين هذا الاثر الادبي وذلك الطراز المعروف في ادبنا الاسبـــاني باسم قصص الصعاليك.
La novela picaresca »[2]

بين المقامة والقصة :

قلنا في مطلع هذا الفصل إنّ أهم ما يهمنا من المقامة هو عنصرها القصصيّ . فإلى أي حدٍّ تلتقي المقامة بالقصّة؟ والى أيّ حدّ تفترقان الواحدة عن الأخرى؟ هل يصح لنا أن نحشر المقامة في باب القصّة ، فنضعها في باب القَصص اللغويّ ، كما فعلنا في هذا الكتاب ، وعلى ماذا كان اعتمادنا في ذلك ؟

للاجابة عن هذه الأسئلة لا بدّ لنـــا من مقارنة سريعة بين ميزات القصّة وميزات المقامة فنجد أنّ المقامات ليست قصصاً بالمعنى الفنيّ المفهوم من القصّة. ذلك أنّ حوادث القصّة تجري بطريقة بارزة ، واضحة ، تفرض نفسها عـــلى القارىء فرضاً مما لا نجد له أثراً في المقامات .

وتتوافر في القصّة الكاملة عناصرُ فنيّة أدبيّة لا يمكن القصّة أن تكون قصّة بدونها ، هي ما يسمّيه النقّاد بالحركة الفنيّة ، والذروة (أي الأزمة التي يخلقها تشابك الحوادث في القصّة) ، وعنصر التشويق ، والحبكة ، والحوار ، والهدف الذي تستهدفه القصّة مما لا نراه أو نرى شيئاً مثيلاً له في أي مقامة من المقامـات . فالمفاجآت في المقامات بسيطة عاديّة إن وجدت ، والحبكة

---

(١) أ. ج. بالنثيا . تاريخ الفكر الاندلسي . نقله عن الاسبانيـــة حسين مؤنس . القاهرة مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥ م ص : ١٨ .
(٢) المصدر نفسه .

القصصيّة أثرها ضعيف لأنّ الحادثة يسيطر عليها عنصر السّرد ، وليس فيهـــا تشابك ولا تعقيد .

والقصّة الصحيحة ليست وعظاً ولا إرشاداً ، والبطل فيها أو الأبطال لا يقيمون من انفسهم معلّمين ولا وعّاظاً يستخدمهم المؤلف كما يشاء ويقوّلهم ما يريد ساعة يريد دون أن يكون لهم رأيهم واتجاههم ، كما هي الحال في أبطـــال المقامات . ففي جميع المقامات همّ المؤلّف أن يعظ وأن يكرز . هو يرمي ، في الدرجة الاولى ، إلى إعطاء العبرة والعظة . وهذا شيء جميل ومستحبّ ، على ألاّ يقصد لذاته ، وألاّ يكون على حساب الفن القصصيّ ، والعقدة القصصية .

وأخيراً تتّجه القصة ، فيما تتجه اليه ، إلى دراسة نفسية أبطالهـــا دراسةً عميقة ، تحليلية فتسبر أعماقها لتصل الى فهم النفسيّة الانسانية عامة ، وما يحيط بهـــا من اسرار وألغاز . وليست المقامات على شيءٍ كبيرٍ من الدراسة النفسيّة والتحليل . فهي ، في الاجمال ، سردٌ لوقـــائع بسيطة ، معروفة ، بأسلوب مزخرف ، متحلٍّ بالسّجع والغريب ، تعتمد اكثر ما تعتمد ، على الامثـــال والاشعار ، والآيات القرآنية والاحاديث ، مما يجعل منهـــا مقالاتٍ أدبيّة لغوية ، أنيقةً في لغتهـــا ، متينةً في صياغتها ، جميلةً في روحها وظرف راويتها .

ولعلّنا نكون بجانب الصواب إذا قرّرنا أنّ المقامة ليست قصّة بالمعنى المعروف للقصّة وأن أصحاب المقامات لم يرموا في مقاماتهم إلى تأليف القصّة ، ولم يسمّوا هذه المقامات حكايات ، وإن استعانوا بالاسلوب القصصي في سردها ، وكل ما أرادوه هو كتابة هذه الاحاديث الادبيّة اللغوية بأسلوب قصصي يُقصد به الى التشويق والترغيب .

فاذا ما دعونا المقامات قصصاً ، فذلك من باب التجوّز والتسامح ، واذا قلنا إن المقامات تدخل في باب القصص اللغويّ فعلى اعتبار شكلها القصصيّ ، وأسلوبها ، وطريقة قصّها ، لا على اعتبارها حكاياتٍ أدبيّةً فنيةً قائمة بنفسها .

أشهر المقامات :

أشهر المقامات مقامات الهمذاني والحريري . فما هي هذه المقامات ? وعلى ماذا تدور ? ما ميزاتها الادبيّة ? وإلى أيّ حدٍ تعتبر قصّة ?

مقامات الهمذاني :

عاش بديع الزمان الهمذاني في القرن الرابع الهجري (٣٥٧هـ - ٣٩٨هـ) العاشر الميلادي (٩٦٧م - ١٠٠٧م) وألّف خمسين مقامة اعتبرت أساساً لكل ما كتب بعدها من هذا الفن الأدبي .

موضوعها :

تجري مقامات الهمذاني في مواضيع شتى وإن كانت في أكثرها تدور حول الكُدية والشحاذة « الصّناعة » التي اشتهر فيها كثيرون من رجال الاحتيال في المجتمع العبّاسي .

فأبو الفتح الاسكندري ، وهو بطل المقامات الهمذانية ، كثيراً ما يظهر في شكل أديب شحّاذ ، يحاول بكلّ ما أُوتي من قوّة لسان ، وفصاحة بيان ، أن يؤثر في الجماهير ليستدرّ عطفهم ويحصل على المال منهم .

ففي المقامة الفزاريّة يلتقي عيسى بن هشام ، راوية المقامات ، بالاسكندري فيسأله عن حرفته وكيف يعيش فيجيبه :

« أجوبُ جيوبَ البلاد ، حتى أقعَ على جفنةِ جواد ولي فؤاد يخدمه لسان ، وبيان يرقمه بنَان . وقُصاراي[1] كريمٌ يخفضُ لي جنيبته[2] وينفُضُ إليّ حقيبته ، كابن حرّ طلعَ عليّ بالأمس ، طلوعَ الشمس ، وغرُبَ عني بغروبها ، لكنه غاب ولم يغب تذكاره ، وودّع وشيعتني آثاره ، ولا ينبئك عنها ، أقربُ منها ، وأومأ إلى ما كان لبسُه . »

---

(١) قصاراي : أي اقصى مطلبي .
(٢) الجنيبة : فردة الحمل .

فعرفه عيسى بن هشام من هذه الاوصاف وصرخ قائلاً : « شحّاذ وربِّ الكعبة أخّاذ ، له في الصَّنعةِ نَفاذ ، بل هو فيها أُستاذ ، ولا بدَّ من أن ترشَحَ له وتسِحَّ عليه[1] »

وقد سيطر جوّ التسوّل والكُدية على المقامات، حتى أن البديع عقد مقامةً قائمةً بنفسها هي المقامة الساسانية، نسبة الى بني ساسان أحد ملوك الفرس الذي تروي الاساطير أن دارا اغتصب الملك منه ، « فهام على وجهه محترفاً للكدية[2] ... » ووصف فيها هذه الطائفة من أصحاب الكُدية وكانوا يُعرفون بالساسانيين . والمقامة الساسانية طُرفة أدبيّة تصوّر لنا بدقة ووضوح طائفة الشحّاذين والمُكْدين الذين تفشّوا في عصر البديع واحترفوا الشحاذة حرفةً يبتزّون بها الأموال بأية طريقة كانت ، كما تطلعنا على البراعة اللغويّة التي امتازت بها هذه الطائفة من الناس ، تستعملها ، عند الحاجة ، للتأثير في الجمهور لتستدرّ كرمه وعطاياه . جاء في المقامة الساسانية ما يلي :

« حدّثنا عيسى بن هشام قال : أحلّتني دمشقَ بعضُ أسفاري . فبينا أنا يوماً على باب داري ، اذ طلعَ عليّ من بني ساسان كتيبةٌ قد لفّوا رؤوسهم ، وطلَوْا بالمَغْرةِ[3] لَبُوسَهم . وتأبّطَ كلٌّ واحدٍ منهم حجراً يدقُّ به صدره ، وفيهم زعيم لهم يقول وهم يراسلونَهُ ، ويدعو ويُجاوبونه ، فلمّا رآني قال :

أُريدُ منكَ رغيفا يعلو خِواناً نظيفا
أُريدُ مِلحاً جريشاً[4] أُريدُ بقلاً قطيفا

---

(١) اي تدر عليه المال وتعطيه .

(٢) شوقي ضيف . المقامة . دار المعارف . القاهرة ١٩٥٤ ص : ٢٠ .

(٣) المغرة : طين احمر .

(٤) الملح الجريش : الملح الخشن .

أُريدُ لحماً غريضاً[١] أُريدُ خلاًّ ثقيفا[٢]
أُريدُ جدياً رضيعاً أُريدُ سخلاً[٣] خرُوفا
أُريد ماءً بثلجٍ يغشى إناءً طريفا
أُريد دنّ مُدامٍ أقومُ عنه نزيفا[٤]
وساقياً مُسْتَهشّاً على القلوبِ خفيفا
أُريد منكَ قميصاً وجُبَّةً ونَصِيفا[٥]
أُريد مشطاً وموسى أُريدُ سطلاً وليفا
يا حبّذا أنا ضيفاً لكم، وأنتَ مضيفا!
رضيتُ منكَ بهذا ولم أُرِدْ أن أُحِيفا[٦]

قال عيسى بن هشام: فنُلْتُهُ درهماً وقلتُ له: قد آذنتُ بالدّعوة، وسنعُدُّ ونستَعِدّ، ونجتهد ونجدّ، ولك علينا الوعدُ من بعد. وهذا الدّرهم تذكرة معك، فخذ المنقود، وانتظر الموعود، فأخذه وصار الى رجلٍ آخر ظننتُ أنّه يلقاه بمثل ما لقيني، فقال:

يا فاضلا قد تبدّى كأنّهُ الغصنُ قدّا
قد اشتهى اللحمَ ضِرسي فاجلِدْهُ بالخبزِ جَلدا

(١) الغريض : الطري .
(٢) الثقيف : الحامض .
(٣) السخل : ولد الضأن .
(٤) النزيف : السكران .
(٥) النصيف : العمامة .
(٦) أحيف : أظلم .

وامنُنْ عليَّ بشيء واجعَلْهُ للوقتِ نقدا
أطلِقْ من اليد خصراً واحلُلْ منَ الكيس عقدا
واضمُمْ يديكَ لاجلي إلى جناحكَ عمدا

قال عيسى بن هشام : فلمّا فتق سمعي منه هذا الكلام علمتُ أنّ وراء ذلك فضلاً، فتبعتُهُ حتى صار الى أمّ مثواه[1] ووقفتُ منه بحيثُ لا يراني وأراه . وأماط السّادةُ لثُمَهم ، فاذا زعيمُهُم أبو الفتح الاسكندريّ ، فنظرت إليه وقلت : ما هذه الحيلةُ ويحك ؟ فأنشأ يقول :

هذا الزمانُ مشُومُ كما تراهُ غشُومُ
الحُمقُ فيه مليحٌ والعقلُ عيبٌ ولُومُ
والمالُ طيفٌ ولكنْ حول اللئامِ يحومُ

فأنت ترى أنّ الصّورة الاجتماعيّة التي صوّر بها جانباً من المجتمع العبّاسيّ بارزة الوضوح وأنّ هذه الطائفة من الناس الذين ابتلي بهم المجتمع كانوا على شيءٍ كبيرٍ من البراعة في تشقيق الكلام وتفنيد القول وتنميق اللغة أو هكذا أرادهم الهمذاني على الأقلّ .

قلنا إن المقامات لا تلتزم موضوعاً واحداً بل تعالج مواضيع شتّى . فهي لا تقتصر على الكُدية وإن كانت الكدية من مواضيعها البارزة؛ فهناك مقامات أنشأها البديع وغايتُهُ منها المدح ، مدح الذين أحسنوا إليه بأموالهم فأحسن فيهم القول . والمدح التكسُّبي عرفه النثر العبّاسيّ كما عرفه الشعر ؛ ففي المقامة الملوكيّة التي يوشّحها البديع بالشعر يقول على لسان أبي الفتح :

---

(١) ام مثواه : صاحبة المنزل الذي يسكنه .

من أبصرَ الدرَّ لم يعدِلْ به حجراً
ومن رأى «خَلفاً» لم يذكُرِ البشرا

زرْهُ تزُرْ ملكاً يُعطي بأربعةٍ
لم يحوِها أحدٌ، وانظُرْ اليهِ ترى:

ايامَهُ غرراً، ووجهَهُ قمراً
وعزمَهُ قدراً، وسَيْبَهُ مطرا

ما زلتُ امدحُ اقواماً اظنهُمُ
صفوَ الزّمانِ فكانوا عندَهُ كدَرا

قال عيسى بن هشام: فقلت: من هذا الملكُ الرّحيم الكريم؟

فقال: كيف يكون، ما لم تبلغهُ الظنون؟

وكيف أقول ما لم تقبلْهُ العقول؟

ومتى كان ملكٌ يأنفُ [1] الأكارمَ، إن بعثت بالدّراهم؟ والذهبُ، أيسرُ ما يَهبُ. والألفُ لا يَعُمُّهُ إلاّ الخَلْفُ [2]، وهذا جبلُ الكحل قد أضرَّ به الميل [3]، فكيف لا يؤثر ذلك العطاء الجزيل؟ وهل يجوز أن يكون ملكٌ يُرجَعُ من البذلِ إلى سرفه، ومن الخُلُقِ الى شرفه، ومن الدّين الى كلَفِه، ومن المُلكِ الى كنَفِه، ومن الأصل الى سَلَفِهِ، ومن النسل الى خَلَفه؟

---

(١) يأنف بمعنى يضربهم على انوفهم حين يبعثون بدراهمهم لانه يفوقهم كرماً.
(٢) معنى هذا التعبير انه يتلف الالف لكرمه.
(٣) الميل: ما يكتحل به وهو يأخذ القليل من الكحل ومع ذلك يضر بالجبل، فكيف لا يضر ذلك العطاء وذلك البذل بالممدوح؟

فليتَ شعريَ مَنْ هـــذي مآثرُهُ

ما ذا الذي يبلوغِ النجمِ ينتظرُ ؟ »

والملك المشار اليه لم يكن سوى خلف بن احمد ملك كرمان وكان يجزلُ العطاء للبديع فخصّهُ بالمديح الكثير في اكثر من مقامةٍ من مقاماته واكثر من رسالةٍ من رسائله .

وهناك المقـــامات التي رمى فيها الهمذاني الى النكتة المرحة ، والفُكاهة المحبَّبة ، والرُّوح الخفيفة . وتجيء المقـــامة المضيرّية في رأس هذا النوع من المقامات . فهي قطعة أدبيّة فنية رائعة خلّـد فيهـــا الهمذاني بروحه الخفيفة ، ودعابته المرحة ، الرّجل الثرثار ، المهذار الذي يحاول أن يُلهي ضيفه عن الاكل والوصول الى غرضه ، بثرثرته وفيضان من كلامه المعسول !

ونحنُ مع مارون عبود أديبنا النقادة في قوله عن المقامة المضيرّية انها: «قصة عصرّية قـــد تنوء عن مضارعتهـــا اليوم قصة في تحليل الشخصيات ودرس النفسيات »[1] وان كان في هذا القول شيءٌ من التعميم والمغـــالاة ! فهي قصة مثيرة ، مضحكة ، تحليلية ، عميقة. ولكنها ، من ناحيةٍ ثانية ، يَضيع الكثير من معالمهـــا القصصية ، وروحها الفنية في غزارة الوصف ورصف المفردات والمرادفات بعضها الى بعض .

وملخص هذه المقـــامة أن بعض تجار البصرة دعا أبا الفتح الاسكندري وعيسى بن هشام الى أكل المضيرة[2] فأخذ ابو الفتح يلعنها وتنحّى عن الاكل فلم يقترب من الخِوان . وعندما سأله رفاُقهُ قال :

« قصّتي معها أطولُ من مصيبتي فيهـــا ، ولو حدثتكم بهـــا لم آمنِ المَقت ، واضاعةَ الوقت . »

---

(١) مارون عبود ، بديع الزمان الهمذاني . بيروت . دار المعارف ١٩٥٤م ص : ٣٦ .
(٢) المضيرة : هي لحم يطبخ باللبن المضير اي الحامض .

وأخذ يَقصُّ عليهم حديثاً طويلاً جداً خلاصتُهُ أنه دُعي من قبل احـــد تجّار بغداد لأكل المضيرة في منزله ، فلبّى الدعوة وذهبا معاً الى المنزل . ولكن التاجر بدلاً من أن يسير بضيفه رأساً الى البيت أخذ ، وهما ما زالا على الطريق ، يضيّع الوقت في وصف زوجته وحبّه لها ، وبراعتها في طبخ المضيرة حتى ضجر ابو الفتح ، ولكنه تصبّر بعد ان وصلا الى محلّة التاجر آملاً ان وقت الاكل قد قرب. ولكن التاجر يأخذ بوصف المحلّة التي هي اشرفُ محالّ بغداد ، يتنافسُ الاخيارُ في نزولها ، ويتغايرُ الكبارُ في حلولها ، ثم لا تسكنها غيرُ التجار . » ومن المحلّة ينتقل التاجر الى وصف داره ومقدار مـــا انفق في سبيل الحصول عليها. ومن وصف الدّار الى وصف الطاقة والباب وهو بابٌ مصنوع من احسن الخشب ، « من قطعة واحدة لا مأروض ولا عَفِن ، اذا حُــــرِّك انّ ، واذا نُقر طنّ ... »

وبعد وصف الباب يأخذ بوصف الحلقة التي « تدور بلولب ... » كلُّ ذلك وأبو الفتح متصبّر يعلّل نفسه بأكل المضيرة . ولكنّ التاجر لم يكد ينتهي من أوصاف داره حتى أخذ في حديثٍ طويل يقصّ فيه كيفيّة حصوله على الدّار رهينةً من جاره أبي سليمان ، ثم أخذ يخبره كيف حصل على عقدٍ من اللؤلؤ من امرأةٍ فقيرةٍ بثمنٍ بخس لأن حظه في التجارة حظٌّ سعيد كبير !

وتبرّم ابو الفتح بالتاجر وأوصافه وفكّر ملياً في الامر فوجد أنه ما زالت هناك اشياء كثيرة لم يصفها التاجر ففكر في الهرب قال :

« وخرجتُ نحو البـــاب ، وأسرعتُ في الذّهاب ، وجعلتُ أعدو وهو يتبعني ويصيح : « يا أبا الفتح المضيرة ! » وظنّ الصبيان أن المضيرة لقبٌ لي ، فصاحوا صياحه ، فرميتُ أحدهم بحجر ، من فرط الضجر ، فلقي رجلٌ الحجر بعمامته ، فغاص في هامته . فأخذتُ من النّعال بما قدُم وحدُث ، ومن الصّفع بمـــا طابَ وخبُث . وحُشرتُ إلى الحبس ، فأقمتُ عامين في ذلك النحس ، فنذرتُ أن لا آكل مضيرةً ما عشتُ . فهل أنا في ذا ، يا آلَ همذان ، ظالم ؟

قال عيسى بنُ هشام : فقبلنـــا عذره ، ونَذَرْنا نذره ، وقلنا : قديماً جنتِ المضيرةُ على الاحرار ، وقدّمتِ الاراذلَ على الاخيارْ . »

ولعلّ المقامة البغداديّة هي من اكثر المقامات فكاهةً واظرفها نكتةً بهذا السَّرد البسيط الذي يملك على القارىء انفاسه حتى إذا انتهى عيسى بن هشام من قصّته مع القرويّ المسكين لا يتمالك القارىء من الضحك ملء رئتيه من ابي عُبَيد الذي يُصرُّ ابن هشام على تسميته بأبي زيد . قال البديع :

حدّثنا عيسى بن هشام قال :

اشتهيتُ الازاذَ [١] وانا ببغداذَ ، وليس معي عَقدٌ على نقد [٢] فخرجتُ انتهز محـــالـّهُ حتى احلـّني الكرخ[٣] ؛ فاذا انا بسواديٍّ[٤] يسوقُ بالجُهد حمارَهُ ، ويُطرّفُ[٥] بالعَقد إزارَه . فقلت : ظفِرنا ، واللهِ ، بصيدٍ ، وحيّاك اللهُ ابا زيد ! من اين أقبلتَ ؟ واين نزلتَ ؟ ومتى وافيتَ ؟ وهلمَّ الى البيت . فقال السواديُّ : لستُ بأبي زيد ، ولكني أبو عُبيد . فقلتُ : نعم . لعنَ اللهُ الشيطان ، وأبعدَ النسيانَ ، أنسانيكَ طولُ العهدِ واتصالُ البُعد . فكيف حالُ أبيك ، اشابٌ كعهدي ، ام شابَ بعدي ؟ فقال : قد نبتَ الربيعُ عـلى دمنته [٦] ، وارجو اللهَ ان يصيِّرَهُ الى جنّته . فقلت : انـّا لله وانـّا إليـــه راجعون ، ولا حول ولا قوّة الاّ بالله العليّ العظيم ! ومددتُ يدَ البدار[٧] الى الصُّدار ، أريدُ تمزيقَهُ ، فقبضَ السواديُّ على خصري بجُمَعِه[٨] وقال :

ناشدتـُكَ اللهَ لا مزّقـْتهُ . فقلت :

هــلمّ الى البيتِ نُصِبْ غـــداءً ، أو الى السُّوقِ نشترِ شِواءً ، والسوقُ

---

(١) الازاذ : نوع من التمر .
(٢) اي لا املك مالاً لشرائه .
(٣) الكرخ : الجانب الغربي من بغداد .
(٤) السوادي : نسبة الى السواد . وهو من قرى العراق .
(٥) يطرف الازار : يعقد احد طرفيه على الآخر .
(٦) اي مات .
(٧) البدار : المسارعة .
(٨) الجمع : قبضة الكف .

أقرب ، وطعامُهُ أطيبُ . فاستفزّتْهُ حُمَةُ[١] القَرَمِ[٢] ، وعطفتْهُ عاطفة اللّقم . وطمِعَ ولم يعلم أنّهُ وقع . ثم أتينا شوّاءً يتقاطرُ شِواؤُهُ عَرَقاً وتتسايلُ جوذاباتُهُ[٣] مَرَقاً . فقلت :

افرِزْ لابي زيدٍ من هذا الشّواء ، ثم زِنْ له من تلك الحلواء . واخترْ له من تلك الاطباق ، وانضِدْ عليها أوراقَ الرُقاقْ . ورشَّ عليه شيئاً من ماءِ السُّمّاقْ ، ليأكلَهُ أبو زيدٍ هنياً .

فانحنى الشّوّاءُ بساطورِهِ ، على زُبدةِ تنّورِهِ ، فجعلها كالكُحل سحقاً، وكالصّحنِ دقّاً . ثم جلسَ وجلستُ، ولا يئس ولا يئستُ . حتى استوفينا[٤] وقلتُ لصاحب الحلوى : زِنْ لابي زيدٍ من اللّوزينج[٥] رطلين فهو أجرى في الحلوق ، وأمضى في العُروق . وليكن ليليَّ العمر ، يوميَّ النشر[٦] ، رقيقَ القشر ، كثيف الحشو ، لؤلؤيَّ الدُهن ، كوكبيّ اللون ، يذوبُ كالصمغ قبل المضغِ ، ليأكلهُ أبو زيدٍ هنياً . قال :

فوزنَهُ ثم قعَدَ وقعدتُ ، وجرّدَ وجرّدتُ حتى استوفيناه . ثم قلت :

يا أبا زيدٍ ما أحوجنا الى ماءٍ يشَعشعُ بالثلجِ ليقمَعَ هذه الصّارّةَ[٧] ويفثأ هذه اللقمَ الحارّة . اجلس يا أبا زيدٍ حتى نأتيك بسقّاءٍ ، يأتيكَ بشربةِ ماء .

ثم خرجتُ وجلستُ بحيثُ أراهُ ولا يراني أنظرُ ما يصنعُ . فلما أبطأتُ عليه قام السواديُّ الى حماره ، فاعتلقَ الشوّاءُ بإزاره . وقال :

---

(١) حمة الشيء : شدته .
(٢) القرم : اشتداد الشهوة الى اللحم .
(٣) الجوذابات : جمع الجوذابة وهي خبز يخبز مع اللحم .
(٤) استوفينا : انتهينا .
(٥) نوع من الحلوى .
(٦) اي مضى على صنعة ليلة ونهار ليشرب الحلاوة .
(٧) الصارة : العطش .

اين ثمنُ ما أكلتَ ؟ فقال أبو زيد : أكلته ضيفاً . فلكمهُ لكمةً ، وثنّى عليه بلطمة ثم قال الشوّاء :

هاك[١] ، ومتى دعوناك ؟ زِنْ يا أخا القِحةِ عشرين[٢] فجعلَ السواديُّ يبكي ويحلُّ عقدَهُ بأسنانِهِ ويقول : كم قلتُ لذاك القُرَيد ، أنا أبو عبيد ، وهو يقول : أنت ابو زيد ! ...»

ولم تخلُ مقامات البديع من الوعظ والارشاد والتعليم فانت واجدٌ في اكثر من مقامة اقوالاً حكميّة، وامثالاً ادبيّة تعليميّة ، ونوادر واختبارات كقوله في المقامة الصيمريّة[٣] :

« كنتُ عندهم اعقل من عبدالله بن عبّاس ، واظرف من ابي نواس ، واسخى من حاتم ، واشجع من عمرو ، وابلغ من سحبان وائل ، وادهى من قصير ، واشعر من جرير وأعذبَ من ماءِ الفرات ، واطيبَ من العافية... »
وكقوله على لسان أبي الفتح الاسكندري وهو يوصي ولده :

« إنّ الكرم أسرعُ في المال من السّوس ، وإنّ القرَمَ[٤] اشأم من البسوس[٥] . ودعني من قولهم : ان الله كريم . انها خدعة الصبيّ عن اللبن . بل ان الله كريم ، ولكن كرمُ الله يزيدنا ولا ينقصه ، وينفعنا ولا يضرُّه ، ومن كانت هذه حاله فلتكرَّم خصاله .

... إنه المالُ ، عافاك الله ! فلا تنفقنَّ إلا من الرِّبح ، وعليك بالخبز والملح ، ولك في الخلِّ والبصل رخصة ما لم تُذِمَّها ، ولم تجمع بينهما. واللحمُ لحمُك وما أراك تأكلهُ ، والحلو طعام من لا يبالي على أيّ جنبيه يقع ، والوجبات عيش

(١) هاك : اسم فعل بمعنى خذ . اي خذ من اللكم واللطم .
(٢) اي عشرين درهماً .
(٣) نسبة الى محمد بن اسحق الصيمري توفي ٢٧٥هـ .
(٤) القرم : شدة الشهوة الى اكل اللحم .
(٥) البسوس : اسم المرأة التي تنسب اليها حرب البسوس ويضرب بها المثل في الشؤم .

الصالحين ، والاكل على الجوع واقية الفوت، وعلى الشبَع داعيةُ الموت ، ثم كنْ مع الناس كلاعب الشطرنج ، خذ كلَّ ما معهم واحفظ كلَّ ما معك ! »

والوعـظ في مقامات الهمذاني أشكال والوان فهناك الوعظ الديني وفيـه يبشّرُ ويحذّرُ، وهناك الوعظ الاجتماعيّ وقد ذكرنا عليه الامثلة، وهناك الوعظ التعليميّ ويبدو واضحاً في مقامته العلميّة التي يخطُّ فيهـا لطالب العلم الطريق التي يجب أن يسلك للوصول الى غايته .

والملاحظ ان هذه الحكَم التي تتخللُ مقامات البديـع ، وهذه العظات التي تجبه القارىء في اكثر من مقامة ، إنما تجيء وكأنها في غير موضعها ، فكأن المؤلف أقحمها إقحاماً ليزيد في ثروة المقامات اللغوية فقضى بذلك على العنصر القصصيّ وقد سيطرت عليه رغبة المؤلف الملحّة في الوعظ والارشاد .

ومن أبرز غايات المقامات الهمذانيّة ، الادبُ واللغة . فإن البديـع كان يرمي ، كما تقدم بنـا القول ، الى ان يقول كلمته في الأدب والأدباء والشعر والشعراء الذين تقدّموه والذين فرضوا نفسهم على الأدب العربي فكانوا على كل شفة وعلى كلِّ لسان . ففي المقامة القريضيّة حيث يتذاكر القريض جماعة ممن يحسنون فنّ الكلام وبينهم عيسى بن هشام ، يتصدّى لهم شاب يفتنهم بحسن اجوبته في بعض الشعراء من قدامى ومُحدثين . قال الشاب :

« سلوني أُجبْكمْ ، واسمعوا أُعجبكم . فقلنا : ما تقولُ في امرىء القيس ؟ قال :

هو اولُ من وقف بالدّيار وعرَصاتها . واغتدى ، والطيرُ في وكناتها ، ووصف الخيل بصفاتها . ولم يقل الشعر كاسباً ، ولم يُجدِ القولَ راغباً ، ففَضَلَ من تفتـّق للحيلة لسانه ، وانتجعَ للرّغبةِ بنانُهُ . قلنا : فما تقول في النابغة ؟ قال :

يثلبُ إذا حنِقَ ، ويمدَح إذا رغِبَ ، ويعتذرُ إذا رهِبَ[1] ، ولا يرمي إلاّ صائباً .

---

(١) اشارة الى قصائده الاعتذاريات التي يعتذر فيها الى النعمان الثالث ابي قابوس .

قلنا : فما تقولُ في طَرَفة ؟ قال :

هو ماءُ الأشعار وطينتُها، وكنزُ القوافي ومدينتُها ، مات ولم تظهر اسرارُ دقائنه ، ولم تُفتَحْ اغلاقُ خزائنه .

قلنا : فما تقول في جرير والفرزدق ، وايهما اسبق ؟ فقال : جرير ارقُّ شعراً ، وأغزرُ غزراً ، والفرزدق أمتنُ صخراً ، واكثر فخراً . وجرير أوجعُ هجواً ، وأشرقُ يوماً ، والفرزدقُ اكثرُ رَوْماً ، واكرمُ قوماً . وجرير إذا نسبَ اشجى ، وإذا ثَلَبَ اردى ، وإذا مدحَ أسنى ، والفرزدق إذا افتخر اجزى ، واذا احتقر أزرى ، واذا وصف أوفى .

قلنا : فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدّمين منهم ؟ قال :

المتقدّمون اشرفُ لفظاً ، واكثرُ من المعاني حظّاً ، والمتأخرون ألطفُ صنعاً وأرقُّ نسجاً ...

فجميع هذه الأحكام صحيحة على قصرها واقتضابها، تدلّ مع كثير غيرها، على ما كان يتحلّى به البديع من ثاقبٍ في النقد واضطلاعٍ واسعٍ على الشعر .

والهمذاني شاعر يضمّن بعض مقاماته الكثير من شعره . ففي المقامة البشريّة[1] قصيدة رائعة في وصف الأسد ، نظمها بديع الزمان على لسان بطله بشر بن عَوانة فجاءت قصيدةً من عيون الشعر العربيّ القديم لا تقلّ ، بوصفها الدقيق ، وصورها الجميلة ، وقوّة سبكها ، عن قصيدتي البحتري والمتنبي في وصف الأسد .

نصحتُك فالتمسْ يا ليثُ غيري

طعاماً ، إنّ لحمي كان مُرّا

* * *

(١) نسبة الى بشر بن عوانة شخصية من ابتكار بديع الزمان .

مشى ومشيتُ من أسدين راما
مراماً كان اذ طلباهُ وعْرا

هززْتُ له الحسامَ فخلتُ أني
شققْتُ به لدى الظَّلماء فجرا

واطلقتُ المهنّدَ من يميني
فقدَّ له من الأَضلاع عشرا

فخرَّ مُجَنْدلاً بدمٍ كأني
هدمتُ به بناءً مشمخرا

وقلتُ له : « يعزُّ عليّ أني
قتلتُ مناسبي جَلَداً وقهرا

ولكن رمتَ شيئاً لم يرُمْهُ
سواكَ ، فلم أُطِقْ يا ليثُ صبرا

تحاولُ أن تعلّمني فراراً
لعمرُ أبيكَ قد حاولت نكرا

فلا تجزعْ فقد لاقيتَ حرًّا
يُحاذرُ أن يُعابَ فمتَّ حُرّا

فإن تكُ قد قُتلتَ فليس عاراً
فقــد لاقيتَ ذا طَرَفينِ حرّا

والحقيقة أنّ في المقامات دروساً كثيرةً مختلفة ، منها الدروسُ الاجتماعية والعظاتُ الانسانية التي جاءت واضحةً في سياق الكلام ، ومنهـــا الدروس الأدبية واللغوية التي رأينا البديع يقصدها قصداً ويجريها على لسان أبي الفتح في كثيرٍ من المقامات وفي اكثر من مناسبة ، ومنها تفكهة القارىء وتسليتُه بالأقوال الطريفة ، والنكات المستملحة .

« والبحوث كثيرة في مقامات بديع الزمان . منها الجدّي الذي يعرض لمشاكل المجتمع ولمسائل الفقه والأدب . ومنها الهزليّ الذي لا يرمي الى أبعدَ من تسلية القارىء وإطرابه[1] » .

ولا يخفى أنّ مقامات البديع ، على ما فيها من مواضيع أدبية ، اجتماعية ، ونكات هزلية مضحكة ، تبقى ، قبل كل شيء ، معرضاً بديعاً لأنواع الكلام المنمّق المسجّع ، الذي عرف بديع الزمان كيف يصوغُهُ وكيف يعرضه حتى تستسيغه الأذواق ولا تمجُّهُ وتتأبّاه !

أمّا فنّ المقامات فقد بلغ درجةً سامية من التقدّم في مقامات الحريريّ التي نعرض لها فيما يلي .

الحريري :

ولد الحريري في أواسط القرن الخامس الهجري ٤٤٦هـ وتوفيّ في اوائل القرن السادس ٥١٦هـ ؟ (١٠٥٤م – ١١١٢م) . فهناك اكثر من قرن يفصل بين وفاته ووفاة الهمذاني ، ورغم ذلك فإنّ الحريري نهج في مقاماته ، من حيثُ الموضوع ،

---

(١) عمر فرّوخ – الرسائل والمقامات . مكتبة منيمنه بيروت . ج:٢ (١٣٦٩هـ–١٩٥٠م) ص : ٢٩ .

ومن حيثُ الأسلوب، نهج الهمذاني، وتمشّى على طريقته وقلّده حتى في عددها، فجعلها خمسين مقامةً معارضةً لمقامات الهمذاني الخمسين التي مرّت بنا.

والحريريّ من علماء عصره الذين بلغوا مكانةً مرموقةً في العلم والسياسة. فقد تقلّب في وظائف عدّة، كما خلّف الى جانب مقاماته الخمسين، طائفةً من الكتب نذكر منها ما يلي:

١ – كتاب مُلحة الإعراب وهو أرجوزة في النحو مطلعها:

أقولُ بعـــد افتتاحِ القولِ
بحمدِ ذي الطَّولِ شديد الحَوْلِ

شرحها محمد بن محمد الحضرمي. وطبعت مع هذا الشرح بمصر سنة ١٣٠٦هـ. كما طبعها ملحم ابراهيم نجار من دير القمر لبنان سنة ١٨٧١م باسم: مُلحة الأعراب وسبحة الأداب. وقد نقلها الى الفرنسية المستشرق نبتو، وطبعت في باريس سنة ١٨٨٥م مع منتخبات شعريّة.

٢ – كتاب درّة الغوّاص في أوهام الخواصّ. وهو كتاب يبين فيه أغلاط الكتاب فيما يستعملونه من الألفاظ بغير معناه او غير موضعه. طبع اكثر من مرّة، في ليبسك سنة ١٨٧١م، وفي مصر ١٢٧٣هـ، وشرحه الخفاجي وهـــو مطبوع مع شرحه هذا في الأستانة، مطبعة الجوائب سنة ١٢٩٩هـ.

٣ – ديوان شعر في جميع الأبواب الشعريّة المعروفة في زمنه.

٤ – بعضُ الرّسائل. وفي مقدمتها الرّسالتان: السينية والشينية. كتب الأولى على لسان بعض الأمراء الى بعض اصدقائه معاتباً، وكتب الثانية (الرسالة الشينية) الى الشيخ شمس الشعراء طلحة بن احمد بن طلحة النعماني. والرّسالتان مطبوعتان في ذيل المقامات سنة ١٣٢٦هـ وتعرف هذه الطبعة بطبعة ابن‌شقرون.

مقاماته:

ذكرنا ان مقامات الحريري خمسون مقامةً. وقد قيل إنها كانت اربعين ثم

عاد فألّف عشر مقامات أُخرى. وقد كتبها الحريري معارضة لمقامات الهمذاني الخمسين، وهذا في نظرنا شيء له أهميته ، يرينا الأثر البليغ الذي احدثته مقامات البديع في نفوس معاصريه وفي من جاء بعدهم ، فتأثر بها اديب خطير كالحريري عاش نحو مئة سنة بعد البديع ، كما سيتأثر بهـا وبمقامات الحريري الكتّاب الكثيرون من بعـد ، وفي مقدمتهم الشيخ ناصيف اليازجي اللبناني في مجمع البحرين[1] » .

والجميل انّ الحريري كاتب متواضع ، ولو في بعض مواقفه ، يتحلى بفضيلة الصدق والأمانة في القول . فهو يعترفُ بصراحةٍ ان الهمذاني هو الذي اوحى اليه بكتابة مقاماته ، وان الهمذاني هو صاحبُ السبق في تأليف المقامات . يقول الحريري في مقدّمة مقاماته[2] :

« وبعدُ فإنه قد جرى ببعض اندية الأدب الذي ركدتْ في هذا العصر[3] ريحُهُ ، وخبتْ مصابيحُهُ ، ذكرُ المقامات التي ابتدعها[4] بديعُ الزمان وعلّامة همذان رحمه اللهُ تعالى . وعزا الى أبي الفتح الاسكندريّ نشأتها ، والى عيسى بن هشام روايتها . وكلاهما مجهولٌ لا يُعرفُ ، ونكرة لا تتعرّفُ .

فأشار من اشارتهُ حكمٌ[5] ، وطاعتهُ غنمُ الى ان انشىء مقامات اتلو فيها تلو البديع ، وان لم يُدركِ الظالعُ شأوَ الضليع[6] . »

ثم يضيفُ بعد ان يشرح موضوع مقاماته الخمسين :

« هذا مع اعترافي بأنّ البديع ، رحمه الله ، سبّاق غايات ، وصاحبُ آيات.

---

(١) عاش الشيخ ناصيف بين (١٨٠٠م – ١٨٧١م) .

(٢) الحريري . كتاب المقامات . بيروت . المطبعة الأدبية . ١٨٨٦م ص : ١٢ و ١٣ .

(٣) عصر الحريريّ (٤٤٦هـ – ٥١٦هـ) .

(٤) كانت هذه النقطة : من هو مخترع المقامات ؟ موضع بحث وجدل كبيرين .

(٥) المرادُ به وزير السلطان المسعود واسمه انوشروان بن خالد : وقيل هو الخليفة . وقال آخرون : هو غلام الخليفة . راجع شوقي ضيف . كتاب المقامة : ص ٤٥ و ٤٦ .

(٦) شبه نفسه بالظالع أي المائل في مشيته وشبه البديع بالضليع أي القويّ .

اون المتصدي بعده لإنشاء مقامةٍ ، ولو اوتيَ بلاغة قُدامة ، لا يغترفُ الا من فضالته ، ولا يسري ذلك المسرى الا بدلالته . ولله دَرُّ القائل :

فلو قبلَ مبكاها بكيتُ صبابةً
بسُعدى ، شفيتُ النفسَ قبلَ التندُّمِ
ولكنْ بكتْ قبلي فهيّجَ لي البكا
بُكاها ، فقلتُ : الفضلُ للمتقدِّمِ [1]

الا انَّ للحريري فضلاً في انشاء مقاماته لا يقـــلُّ عن فضل المتقدّمين ممن سبقوه الى هذا الفن، وفي مقدمتهم بديع الزمان. ذلك ان الحريري عرف كيف يفيدُ من مقامات البديع ، وكيف يتفنن في وضع مقاماته واخراجها ، مما حمل زكي مبارك على القول: « ثم جاء الحريري فصير فنّ المقامات شريعة ادبية، وقد انتشرت مقاماته في جميع الأقطار العربية ، وصارت مضرب المثل في الفصاحة والبيان ، ويعدُّ الحريري اشهر من نظم المقامات ، واليه يرجع الفضلُ في ذيوع هذا الفنّ الجميل[2] . »

ولقـــد سبق القول الى ان عدداً كبيراً من واضعي المقامات تأثروا بهذه « الشريعة الأدبية » وعملوا على مَنوالها ، فانتشر فنّ المقامات في جميع الأقطار الاسلامية وبرع فيه كثيرون من اهل فارس والعراق والشام واليمن والحجاز ومصر والمغرب والأندلس[3] .

ورأينا أن يحي بن سعيد بن ماري الطبيب النصراني ، وهو من رجال القرن السادس ، قد ألّف المقامات وعرفت مقاماته بالمقامات المسيحيَّة .

---

(١) الحريري – كتاب المقامات . ص : ١٥ و ١٦ .
(٢) زكي مبارك . النثر الفني في القرن الرابع. القاهرة . مطبعة دار الكتب . (١٣٥٢هـ – ١٩٣٤م) ج ١ : ٢٠٢ .
(٣) راجع دائرة المعارف الاسلامية كلمة « مقامة » .

كذلك ترجم يهودا ابن شلومو الحريزي" مقامات الحريري" الى اللغة العبرية وأنشأ تقليداً لها ، خمسين مقامة سمّاها : سفر تحكموني أي سفر الحكمة وقد ضمّنها الكثير من الآيات التوراتيّة[١] .

موضوع المقامات الحريرية :

لا تختلف مقامات الحريري في موضوعاتها عن مقامات البديع. فموضوعها ، على العموم ، الكُدية والشّحاذة والاستجداء . وبطلاها هما : الحارثُ بنُ همّام ، وهو راوية كثيرُ الأسفار ، في سبيل الرزق والعيش تارةً ، وفي سبيل التلهّي وإنعاش النفس تارةً أخرى ؛ وأبو زيد السَّروجي ، وتقوم بطولته على فصاحة بيانه ، وذلاقة لسانه . فهو الشّاعر والخطيب، واللغويّ المدقّق والعالم الفقيه ، وهو ، على ذلك ، لصٌّ محتال ، وسكّير فاسق ، وشحّاذ محترف .

ويستعين الحريري بهاتين الشخصيتين الغريبتين : الحارث وأبي زيد ، فينشىء مقاماته الخمسين حول الكدية والاستجداء عامة ، ولكنه يتناول فيها بطريقة غير مباشرة ، موضوعاتٍ كثيرةً وأغراضاً متعدّدة يمكن حصرها في النقاط التالية :

أ – المقامات الادبيّة التي حفلت بأنواع البديع الغريبة، والتي ملأها الحريري بضروبٍ عجيبةٍ من انواع الكلام ، فجاءت وكأنها من الالعاب البهلوانيّة ، لا من باب المحسّنات اللفظية والمعنوية . ففي المقامة المراغيّة[٢] رسالةٌ طويلةٌ على لسان ابي زيد؛ حروف إحدى كلمتيها « يعمّها النَّقْطُ » أي أنها مُعجمة ، وحروف الكلمة الثانية « لم يُعْجَمَنْ قط » أي مهملة لا نقط بها : « الكرمُ ، ثبّتَ اللهُ جيشَ سُعودك ، يَزينُ ، واللُّؤمُ ، غضّ الدّهرُ جفنَ حسودكَ ، يَشينُ . . . .

ومـا فتىء وعدُكَ يفي ، وآراؤكَ تشفي ، وهلالُكَ يُضي ، وحلمكُ يُغضي ، وآلاؤك تُغني ، وأعداؤكَ تُثني ، وحُسامُك يُفني . . .

---

(١) دائرة المعارف . كلمة : مقامة .

(٢) نسبة الى المراغة : موضع بأذربيجان من بلاد العجم .

إلى أن يقول :

« فبيِّضْ أملَهُ بتخفيف ألمه ، ينُثْ حمدَكَ بين عالمه ... »

وما إن وصل خبره الى الوالي ، حتى ملأ « فاهُ بالـلآلي » كل ذلك مكافأةً له على هذه البراعة الكلاميّة التي « جلـّت في هيجاء البلاغةِ عن بسالته » وحملت « الجماعة » على إرضائِه قولاً وفعلاً .

والأغرب من هذه الرسالة ان يضمِّن الحريريُّ بعضَ مقاماته خطَباً تجيءُ جميع كلماتها غير منقوطة مما يبتعدُ بالأديب عن الطبيعيّة الحرّة في القول والتعبير :

ففي المقامة السمرقندية[1] خطبة لأبي زيد جميع كلماتها عاريةٌ من الإعجام. قال في مطلعها :

« الحمدُ للهِ الممدوحِ الاسماءِ ، المحمودِ الآلاءِ ، الواسعِ العطاءِ ، المدعوِّ لحسمِ اللأواء[2] . مالكِ الأمم ، ومصوّرِ الرِّمم[3] ، وأهلِ السَّماح والكرم ، ومهلكِ عادٍ وإرَم .

أدركَ كلَّ سرٍ علمُهُ ، ووسِعَ كلَّ مُصِرٍّ[4] حلمُهُ ... أحمَدُهُ حمدَ موحِّدٍ مُسلِمٍ ، وادعوهُ دعاءَ مؤمّلٍ مسلِّمٍ .

وهو اللهُ لا إله إلا هو الواحدُ الأحد ، العادل الصّمد[5] ...

ثم يأخذ بإرسال المواعظ والنصائح فيقول :

إعملوا ، رحمكم اللهُ ، عملَ الصُلحاء ، واكدحوا لمعادِكم كدحَ الأصحّاء . واردعوا أهواءكم ردعَ الأعداء ، وأعِدُّوا للرّحلةِ[6] إعدادَ السُّعداء .

---

(١) نسبة الى سمرقند وهي بلد في عراق العجم . وتدعى بالعربية : سمران ، بضم السين .
(٢) حسم اللأواء : قطع الشدّة .
(٣) أي معيد العظام البالية .
(٤) المصر على المعصية .
(٥) الصمد : المقصود .
(٦) رحلة الموت .

وادّرعوا حُلَلَ الورع، وداووا حِلَلَ الطمع، وسوّوا أوَدَ العمل، وعاصُوا وساوسَ الأمل ... »

وهكذا الى آخر الخطبة وهي طويلةٌ وكلها في الحثّ على عمل الخير، والابتعاد عن الشرّ، والتمشي حسب سنن الله وتعاليمه :

« قال الحارثُ بنُ همّامٍ : فلمّا رأيتُ الخطبةَ نُخبةً[١] بلا سَقَط[٢] وعروساً بغير نُقط[٣]، دعاني الإعجابُ بنمَطِها العجيب، الى استجلاء وجهِ الخطيب. فأخذتُ اتوسّمُهُ جداً، وأُقلّبُ الطرفَ فيها مُجدّاً، إلى أن وضَحَ لي بصدقِ العلامات، أنه شيخُنا صاحبُ المقامات[٤] ... » واصطحبه الشيخُ الى بيته حيث أحضر أباريق المُدام فقال له الحارث :

« أتحسوها امام النوم، وأنتَ إمام القوم ؟ فقال : مَه[٥]، انا بالنهار خطيبٌ، وبالليل أطِيبُ . »

ثم أنشده سبعة أبيات في زوال الدُنيا ووجوب اغتنام الملذّات تنتهي جميعها بكلمة : **داراً** في سبعة معانٍ مختلفة قال :

لا تبكِ إلفاً نأى ولا دارا
ودُرْ معَ الدّهر كيفما دارا
واتخذِ الناسَ كلَّهُمْ سكناً[٦]
ومثِّلِ الارضَ كلَّها دارا[٧]

---

(١) نخبة : أي مختارة .
(٢) بلا سقط : بلا عيب .
(٣) اشارة الى ان الكلمات غير منقطة .
(٤) صاحب المقامات هو ابو زيد نفسه .
(٥) مه : اسم فعل أمر بمعنى : اكفف .
(٦) السكن : الموطن .
(٧) دار : منزل .

واصبِرْ على خُلقِ مَن تعاشِرُهُ

ودارِهِ ، فاللبيبُ مَنْ داری

ولا تُضِعْ فرصة السُّرور فما

تدري أيوماً تعيشُ أم دارا[1]

واعلَمْ بأنَّ المنونَ جائلةٌ[2]

وقد أدارتْ على الورى دارا[3]

وأقسمتْ لا تزالُ قانصةً

ما كرَّ عصرا المَحْيا ، وما دارا[4]

فكيف تُرجى النجاةُ من شَرَكٍ

لم يَنْجُ منه كسرى ولا دارا[5]

واخذ الحريري يتفنن ما شاءت له براعتُهُ الكتابيّة ، واطّلاعُهُ اللغويّ فجاءنا بمقامات فيها من العُقد البلاغيّة والاساليب المزخرفة بألوانِ الكلام ما يحمِلُ على الدّهشة حيناً وعلى الرّثاء والحزن احياناً . إسمَعْ اليه في مقامته المغربيّة[6] وقد ضمّنها العباراتِ التي تُقرأ طرداً وردّاً دون أن يحدث لحروفها أيُّ تغيير . وكان أن تحلّق جماعةٌ ممن يحبّون مناقشة الحديث والأخذ بألوان

---

(١) دار هنا بمعنى دهر او سنة .

(٢) اي ان الموت دائر على الناس .

(٣) اي احاطت على المخلوقات كهالة القمر ، فلم ينج فيها انسان .

(٤) أي ما رجع الغداة والعشيّ او الليل والنهار . ودارا أي تكرّرا والضمير يرجع الى العصرين .

(٥) الشرك : الموت . كسرى ودارا من ملوك الفرس .

(٦) نسبة الى بلاد المغرب .

الكلام وقرّروا أن يجولوا « فيما لا يستحيل بالانعكاس[1] ، كقولك : ساكبُ كاسٍ » على أن يبدأ الواحدُ بنظم ثلاث كلمات ، فيربّع الذي على يمينه ، ويسبّعُ الذي على يساره ، لأن الحلقة كانت مؤلفة من خمسة اشخاص . قال الأوّل : « لُمْ أخا ملّ » فقال مَن على يمينه : « كبّرْ رجاءَ أجرِ ربّكَ » فقال الذي يليه : « مَنْ يرُبُّ اذا برّ يَنمُ »[2] وقال الآخر : « سكّتْ كلَّ مَن نمّ لك تكِس »[3] وافضى الدور الى الخامس ليسبّع فلم يستطع، فتقدّم منه الشيخ السّروجيّ وقال :

« سأنوبُ منابك ، وأكفيك ما نابك . فإن شئت أن تنثر ولا تعثرُ فقلْ مخاطباً لمن ذمّ البخل وأكثر العَذْلَ : (لُذْ بكلّ مؤمّلٍ اذا لمّ وملَكَ بذَلَ)

وان أحببتَ أن تنظم فقلْ للذي تعظّمُ :

أُسْ أرملاً إذا عرا[4] وارعَ إذا المرءُ أسا
أسِندْ أخا نباهةٍ أبِنْ إخاءً دنسا[5]
أسلُ جنابَ غاشمٍ مشاغبٍ إنْ جلسا
أسرُ إذا هبَّ مِراً[6] وارمِ بهِ إذا رسا
أسكُنْ تقوَّ فعسى يُسعفُ وقتٌ نكسا .

ويُلاحظ ان جميع هذه الابيات يمكن قراءتها طرداً عكساً اي من اولها كما هي مكتوبة ، ثم من آخرها، فتكون هي هي لا تتغير ولا تتبدّل . انما هناك

---

(١) اي لا يصير بالقلب وهو ردّ الاول آخراً .
(٢) يرب : يرقي الصنيعة ويصونها .
(٣) اي تكن كيساً .
(٤) الارمل : الفقير . وعرا : طلب الاحسان .
(٥) أبن : اي ابعد .
(٦) اسر : اي كن سرياً اي سيداً . والمراء : الجدال .

التعسف ، وهناك التصنع البادي على هذا النظم ، فالأبيات منظومة ولكنها بعيدة عن الرُّوح الشعرية ، وبعيدةٌ عن السمو الشعريّ ، وخــالية من كلّ عاطفة . ذلك ان الشاعر ، كان همُّه ، كلُّ همّه ، ان يلعبَ لعبتَهُ الكلامية ، ان يقفز قفزته البهلوانية فيسجِّل عشراتٍ من الجمل ، وعشراتٍ من الأبيات « لا تستحيل بالانعكاس » .

ومثلُ هذه الالعاب كثير في مقامات الحريريّ فلقد ضمن بعضهــا رسائلَ تقرأ من اوّلها بوجهٍ ومن آخرها بوجهٍ آخر . اي انها تقرأ طرداً عكساً في كلماتها لا في حروفها :

« قال : أتعرفون رسالةً ارضُها سماؤها ، وصبحُها مساؤها ? نُسجت على مِنوالين ، وتجلّت في لونين ، وصلّت الى جهتين ، وبدت ذات وجهين ? انْ بزغت من مشرقها فناهيكَ برونقها ، وان طلعت من مغربها فيا لعجبها ! »

ولما لم يستطع احدٌ من الحاضرين ان ينطق بكلمة واقرّوا له جميعاً بالسبق وقوة البلاغة قال لهم : انقلوا عني :

« الانسانُ صنيعةُ الاحسان .
وربُّ الجميل فِعلُ الندبِ .
وشيمةُ الحرّ ذخيرةُ الحمدِ .
وكسبُ الشكر استثمارُ السعادة .
وعنوانُ الكرمِ تباشيرُ البشرِ .
واستعمالُ المداراة يوجبُ المصافاة .
وعقدُ المحبة يقتضي النُّصحَ .
وصِدقُ الحديث حِليةُ اللسان .
وفصاحةُ المنطق سِحرُ الألباب . »

وهكذا الى ان ساق مئة كلمةٍ في حكمٍ تقرأ من اليمين الى اليسار فيكون لها معنى كما تقرأ من اليسار إلى اليمين فيكون لها معنى ايضاً .

ومثلُ هذه المسائل اللغوية ، النحوية ، والالغاز العويصة ، والكلام المنمق ، والمحسنات من لفظية ومعنوية كثيرٌ ، لا حدّ له ، نكادُ نلمسُهُ في كل مقامة من مقامات الحريري . فلنكتفِ بما مرّ بنا ولنذكر ب

أنّ هناك مقاماتٍ تدور حول الوعظ والارشاد والدّين والاخلاق . ففيها تحذيرٌ للجهال ، وازدراء بالدنيا ومتاعها ، وحثّ على الخير والهدى ، وحضٌّ على نعيم الآخرة وثوابها . ففي المقامة الاولى من مقامات الحريري خطبةٌ رائعةٌ على لسان ابي زيد السروجي « سراج الغرباء ، وتاج الادباء » تفيض عبرةً وعظةً يستهلها بقوله :

« ايها السادرُ في غُلَوائه ، السادلُ ثوبَ خُيَلائِه ، الجامحُ في جهالاتِه ، الجانحُ الى خزعبلاته ، الى مَ تستمرُّ على غيِّك ، وتستمرىءُ مرعى بغيك ؟ وحتّامَ تتناهى في زهوكَ ، ولا تنتهي عن لهوِك ؟

أتظنُّ أن ستنفعُكَ حالُكَ ، إذا آن ارتحالُك ؟ أو ينقذُكَ مالُك حين توبقُكَ أعمالُك ؟

أما الحِمامُ ميعادُك ، فما إعدادُك ؟ وبالمشيب انذارُكَ فما إعذارُكَ ؟ وفي اللحد مقيلُكَ ، فما قيلُكَ ؟ والى الله مصيرُك فمن نصيرُك ؟

تبًّا لطالبِ دُنيا ثنى اليها الصبابَهْ
مـا يستفيقُ غراماً بهـا وفرطَ صبابَهْ
ولو درى لكفـاهُ ممّا يرومُ صُبابَهْ[1] »

وفي المقامة الساوّية[2] يقف ابو زيد خطيباً في المقابر يذكّر القوم بغفلتهم وتقصيرهم ، وعدم اهتمامهم باليوم الآخر ، فلا الموت برادعهم عن غيّهم او موقفهم عند حدّهم من الاستهتار والتبختُر . قال :

---

(١) الصبابة : الشيء القليل . صبابة الكأس : اي ما تبقى فيها بعد الشراب .
(٢) نسبة الى ساوة : بلدة بين الري وهمذان .

« لمثل هذا فليعمل العاملون . فادّكروا ايها الغافلون ، وشمّروا ايها المقصّرون، وأحسنوا النظر ايها المتبصّرون! مالكم لا يَحزُنُكم دفنُ الاترابِ ، ولا يهولُكم هيلُ التراب ؟

يُشيّعُ أحدُكم نعش الميتِ ، وقلبُهُ تلقاءَ البيتِ ، ويشهَدُ مواراةَ نسيبهِ ، وفكرُهُ في استخلاصِ نصيبهِ ، ويُخلّي بين وَدُودِه ودُودِه ، ثمَّ يخلو بزمارِهِ وعُودِه ؟

وضحِكتُم عند الدَّفن ، ولا ضحِكَكُم ساعةَ الزَّفنِ[1] ، وتبخترتُم خلفَ الجنائز ، ولا تبختُرَكم يومَ قبضِ الجوائز !

لا تبالونَ بمَنْ هو بالٍ ، ولا تخطِرون ذكرَ الموتِ ببالٍ !... »

وفي المقامة الكَرَجيّة[2] أقوالٌ حكميّةٌ في غدر الدُنيا ، وعبرةٌ للعاقل، وكلامٌ جميلٌ في الفخر الصحيح والأدب الرّفيع ، وإن تزيّى فيها السروجيّ بزيّ شيخٍ « عاري الجلدة ، بادي الجُردة » وهو يستدرُّ أكفَّ المحسنين ، أرباب الثراء ، الرافلين في الفِراء » قال :

« ... مَنْ أُوتي خيراً فلينفِقْ . ومَن استطاع أن يُرفِقَ فليُرْفِقْ . فإنّ الدُّنيا غَرورٌ ، والدهرَ عَثورٌ ... تبّاً لمفتخِرٍ بعَظمٍ نخِرٍ . إنما الفخرُ بالتُّقى ، والأدبِ المُنتقى ...

وفي المقامة التفليسيّة[3] :

« يا أُولي الأبصارِ الرّامقة ، والبصائرِ الرائقة ... شيبٌ لائحٌ ، ووهنٌ فادحٌ ، وداءٌ واضحٌ ، والباطنُ ففاضحٌ[4] »

وقد لا تفعلُ هذه الحكمُ وهذه المواعظُ فعلها في القارىء لأنها صادرة عن

---

(١) الزفن : نوع من الرقص .
(٢) نسبة الى بلدة كرج وهي بين اذربيجان وهمذان .
(٣) نسبة الى بلدة تفليس في العراق وقيل في اذربيجان .
(٤) الباطن : هو الفقر والفاقة .

« حكيم » دجّال ، وماكرٍ محتال ، تارة يظهر بثياب رثةٍ ، وطوراً يتلفّعُ بعباءةٍ يخفي فيها حقيقة شخصيّته عن الناس . والظاهر أن الحارث كان يلومُهُ على فعله السيء هذا فكان ابو زيد يجيبه :

ظهرتُ برَثٍّ لكيما يُقالَ
فقيرٌ يُزجّي الزّمانَ المُزجّى [1]
وأظهرتُ للناسِ أنْ قد فُلجتُ
فكم نال قلبي به ما ترجّى
ولولا الرثاثةُ لم يُرثَ لي
ولولا التفالُجُ لم ألقَ فُلجا [2]

ج – وهناك مقامات رمى بها الحريريّ الى الفُكاهة والمداعبة فجاءت حافلة بانواع الكلام الفكه ، والنوادر المستملحة .

د – وهناك مقامات مُجونيّة وأُخرى زهديّة ، وغيرُها اجتماعية خلقية الى ما هنالك من مواضيع وأغراض يتناولها الحريريّ ، لا لذاتها ، بل لإظهار مهارته اللغوية في عرض الكثير من ألوان الكلام وضروب البديع كما مرّ بنا .

مقامات الحريري والقصة :

ليست مقامات الحريري من الناحية القصصية بأفضل من مقامات الهمذاني أو اي مقاماتٍ أُخرى . ولعلّ الذي قلناه في هذا الموضوع ، ونحن ندرس مقامات البديع ، نستطيع ان نكرّره الآن بصدد المقامات الحريرية . إن مقومات القصة من سرد فني ، وعقدة ، وحبكة ، وازمة ، وحوار ، ودراسة

---

(١) الثوب الرث : الخلق ، البالي . يزجي : يسوق . المزجى : القليل الخير .
(٢) التفالج : التظاهر بالفلج . الفلج : بالضم : الفوز والنجاح .

مسية الابطال ، على ان يهدف كل ذلك الى نتيجة واحدة معيّنة ، ويسير كله في اتجاه فني معروف ، له شروطه ، وله قواعده ، ان مثل هذه المقوّمات معدومة في المقامات او تكاد تكون معدومة . فليس لنا ان ندّعي ان المقامات حكاياتٌ فنية كسائر الحكايات التي وصلتنا عن العرب والتي سبق بحثها في الفصول الثلاثة السابقة . ولم يسبق للأقدمين ان عدّوا المقامات قصة بالمعنى الفني المعطى للقصة. قد حسبوها مقامات وكفى ! هي فنّ ادبي عربي جديد همُّ صاحبه الأول الاخير هذه البراعة اللغوية ، وهذا الاسلوب المنمق ، وهذا الزُخرف في الانشاء . ولا شك في ان هذا الفن قد « وافق السليقة العربية التي تميل الى الزخرف في الانشاء[1] » والطبيعة العربية ، التي يؤكد زكي مبارك ميلها الى الزخرف في الانشاء ، تميلُ ايضاً الى الزخرف في جميع الالوان الفنية التي أثرت عن العرب وخاصة فن الهندسة والعمارة . وكأن شوقي ضيف يؤكد هذا القول في بحثه عن التنميق والتزويق في مقامات الهمذاني عندما يقول :

« ... حتى تشبه المقامة من مقاماته واجهة احد المساجد المزخرفة لعهده ، لكثرة ما شغل فيه بالتنميق ، والتصنيع ، والترصيع ... »[2] كلُّ هذا لنؤكد ان الغاية الاساسية من المقامات لم تكن القصة وإنما اللغة ، وبالأخص الألغاز اللغوية ، والأساليب المنمّقة المزخرفة .

لكننا ، من ناحيةٍ ثانية سمحنا لنفسنا فدعونا المقامات قَصصاً لغوياً وافردنا لها فصلاً في دراسة القصة العربية وذلك لأنها ، مهما ابتعدت عن القصة ، من ناحية التقنية ومن ناحية الكيان القصصي ، تبقى قصة من حيث اسلوبها السردي ، وطريقةُ قصّها ، وبعض ما تحمله من احداثٍ قصصية ومفاجآت .

---

(١) زكي مبارك ، النثر الفني ج ١ : ٢٠٤ .

(٢) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي بيروت. مكتبة الاندلس. ط٢ (١٩٥٦) ص : ١٨٠ .

الفصل الخامس

القصص الفلسفي

١ – تعريفه .

٢ – مادّته .

أ – رسالة الغفران .

ب – رسالة التوابع والزوابع .

ج – حيّ بن يقظان .

القصص الفلسفي

بالقصص الفلسفي نصل إلى نهـاية المطاف ، الى القسم الخامس والأخير من أقسام القصص العربي الصميم الخمسة : الإخباري ، البطولي ، الديني ، اللغوي والفلسفيّ . فما هو القصص الفلسفي ؟ ولماذا سمي بهذا الاسم ؟ وما هي الاثار الأدبية التي تمثله ؟

تعريفه :

لا يخرج القصص الفلسفي في تعريفنا له عما قلناه في تعريف القصص اللغويّ. فهو قصص لأنه يُسرد بطريقة قصصية يـــدل عليها أبطاله واشخاصه وسياق القصة ؛ وهو قصص **فلسفيّ** ، لأنّ الدافع إليه لم يكن الفنّ القصصي بالذات ، بل فكرة فلسفية خطرت في خاطرأحد المفكرين، فـــلم يجد أسهل وأجمل من التعبير عنها بطريقة القصّة. وهذا يشبه ، كما سبق القول ، ما ذكرناه عن القصص اللغويّ ، الذي رمى فيه أصحابه إلى إظهار مقدرتهم اللغويّة ، أكثر مما رموا الى إظهار براعتهم القصصيّة الفنيّة .

مادتـــه:

ليس في الأدب العربيّ القديم كتب كثيرة في القصص الفلسفيّ . غير انّ الآثار الفكريّة التي تمثل هذا النوع من الحكايات ، هي ، ولا ريب ، من أبرع وأشهر الكتب العربية . يجيء في مقدّمة هـذه الآثار ثلاثة كتب هي : رسالة الغفران لأبي العلاء المعرّي (توفي ٤٤٩هـ - ١٠٥٧م) . رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الاندلسي(توفي ٤٢٦هـ - ١٠٣٤م). رسالة حيّ بن يقظان لابن طُفيل (توفي ٥٨١هـ - ١١٨٥م) .

وهذه الكتب الثلاثة هي خير مثال للقصص الفلسفيّ لأنها تحمل كلها فكرةً فلسفية من الفكر ، عبّر عنها صاحبها بطريقة السّرد والحكاية تشويقاً وترغيباً في مطالعتها .

ومثل هذا الاسلوب القصصي في معالجة بعض الأمور الكتابيّة ، كثيراً ما انتشر بين كتاب العرب الأقدمين؛ فكان واحدهم يتخيل بطلاً من الابطال ينسج حوله الحكايات الوهميّة ، والمقالات الأدبيّة ، يضمنها ما يُريد من أفكار وآراء، او كان يُقدِم على إنشاء كتاب أو تأليف رسالةٍ ، استجابة لطلب صديق، لا فرق بين ان يكون هذا الصديق حقيقياً أو وهمياً. فكان يخاطبه بأسلوب القصة والحكاية .

وعلى كلّ حال ، إن دارس القصص العربيّ، لا بدّ له ، إن أراد أن يلمّ الماماً صحيحاً شاملاً بالقصص العربيّ الصميم، من دراسة القصص الفلسفيّ، وهو ممثل خير تمثيل في هذه الآثار الفكريّة الثلاثة :

رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي .

رسالة الغفران لأبي العلاء المعرّي .

رسالة حي بن يقظان لابن طفيل.

فما هي هذه الآثار ؟ وما ميزتها القصصيّة الفنيّة ؟

رسالة التوابع والزوابع

مؤلفها :

ولد أبو عامر ابن شهيد مؤلف رسالة التوابع والزوابع، بقرطبة في خلافة هشام بن الحكم بن عبد الرّحمن ، الخليفة الأمويّ، الذي حجر عليه الحاجب ابن أبي عامر .

ولقد حظي ابن شهيد لمنزلته ، برعايةٍ خاصة من الحاجب هذا، ولقي منه عطفاً كبيراً ، فبلغ في الدولة العامرية رتبة الوزارة . وبقي أميناً للعامريين، مخلصاً لهم ، حتى بعد سقوط دولتهم وذلك في سنة ٣٩٩هـ - ١٠٠٩م

ولكن كان لابن شهيد خصوم يكرهونه، ويكيدون له، فاتهموه شتى الاتهامات عند الخليفة الأموي المستعين، فسُجن ثم أُفرج عنه، ومرض في أخريات حياته بداء الفالج، لا سيما وأنه كان يسترسل في ارتشاف الملذات، والانغماس في الشهوات. زد على ذلك أنه لم ينقطع يوماً عن الكتابة والتأليف، وإعمال الفكر، وإجهاد الذهن، في نظم الشعر، وتحبير الرسائل.

وتقول المصادر ان حالته بلغت درجة قصوى من الألم، وان الأوجاع كثرت عليه، والضغط اشتد على انفاسه، حتى همّ بقتل نفسه، يشير الى ذلك في هذه الأبيات الثلاثة:

أنوحُ على نفسي وأندُبُ نبلَها
إذا أنا في الضرّاء أزمعتُ قتلَها

رضِيتُ قضاءَ اللهِ في كلّ حالةٍ
عليّ، وأحكاماً تيقّنتُ عدلَها

اظلُّ قعيدَ الدّارِ في كلّ حالةٍ[1]
على ضعفِ ساقٍ اوهنَ السّقمُ رِجلَها

وتوفي في الرابعة والاربعين من عمره سنة ٤٢٦هـ - ١٠٣٤م. قال ابن بسّام في كتابه الذخيرة: «ولم يُشهد على قبر أحدٍ ما شُهد على قبره، من البكاء والعويل، وأُنشد على قبره من المراثي جملةٌ موفورةٌ لطوائفَ كثيرة»[2].

---

(١) ويروى: اظل قعيد الدار تجنبني العصا.
(٢) ابن بسام الشنتريني - ابو الحسن علي. الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة. القاهرة. لجنة التأليف والترجمة والنشر. ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م ج ١ ق ١ ص: ٢٨٨.

ما وصلنا من ادبه :

نجد آثار ابن شُهيد الادبيّة متفرقةً ، هنا وهناك ، في بعض كتب الاصول مثل :

كتاب الذخيرة لابن بسّام الاندلسي ،
كتاب يتيمة الدّهر للثعالبي ،
كتاب مطمح الانفس للفتح ابن خاقان ،
كتاب نفح الطيب للمقّري ،
كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ،
وبعض الكتب الاخرى القديمة ...

وعُرف لابن شُهيد شعرٌ كثير لا يختلف فيه عن غيره من الشعراء الاقدمين لأنه يطرق جميع الابواب الشعرية التي سبقه اليها الشعراء .

ونجد في رسالة : **التوابع والزوابع** التي نشرها سنة ١٩٥١م الاديب اللبناني بطرس البستاني ، بعد ان « صحّحها ، وحقّق ما فيها ، وشرحها ، وبوّبها » دراسةً تاريخيةً ، أدبيةً عن حياة ابن شُهيد ، ولهوه ، ومُجونه ، وخصومه وحُساده ، وهذه الرسالة كانت مرجعنا في كتابة هذا الفصل عن ابن شُهيد .

كما نجد في كتاب : النثر الفني في القرن الرابع للدكتور زكي مبارك عرضاً سريعاً لهذه الرسالة في باب : « الاخبار والاقاصيص[1] » ودراسةً ادبيةً في أدب ابن شهيد وآثاره الفكرية شعراً ونثراً .

ولقد ذكر بعض مؤرخي الأدب القديم كتباً لابن شُهيد منها :

كتاب كشفُ الدكّ وآثار الشكّ ، ورسالة التوابع والزوابع ، وكتاب حانوت عطار وغيرها من الكتب . ولكن لم يصلنا إلا بعض فصول من رسالة التوابع والزوابع التي نحن بصددها .

---

(١) زكي مبارك . النثر الفني في القرن الرابع . القاهرة . دار الكتب . ١٣٥٢هـ-١٩٣٤م ج ١ : ٢٥٨ — ٢٧٠ .

تسميتها :

جـــاء في معاجم اللغة: التوابع جمع تابع وهو الجني والجنّية ، يكونان مع الانسان ، يتبعـــانه حيث ذهب . والزوابع جمع زوبعة وهو اسم شيطان او رئيس للجنّ ، ومنه سُمّي الإعصارُ زوبعة إذ يقـــال فيه : شيطان ماردٌ . فيكون ابن شُهيد قد سمّى رسالته بهذا الاسم ، لأنه أرادهـا سياحةً في وادي الشياطين .

وهي تقسم الى مدخلٍ وأربعة فصول :

الفصل الاول - توابع الشعراء .

الفصل الثاني – توابع الكتّاب .

الفصل الثالث – نقّاد الجنّ .

الفصل الرابع – حيوان الجنّ .

موضوعها :

موضوعها أدبيّ قصصي . يحرص ابن شُهيد ان يعرض فيها بعض المشكلات البيانيَّة التي عرضت له في زمانه مع زملائه الادباء والشعراء . ولقد اتخذ وادي الجنّ مسرحاً لرسالته ، كما اتخذ الجنّ ابطـــالاً حمّلهم آراءه الأدبية في خصومه وحسّاده من رجال السياسة والعلم والأدب .

واذا كان لكل اديبٍ او شاعر ، تابعٌ ، فتـابعُ ابن شُهيد هو : زهير بنُ نُمير ، الفارسُ الجني الشجاع ، لا بل اشجعُ الجنّ . وقد عرض ، وهو عـــلى فرسٍ أدهم ، متكئاً على رمحه ، لابن شُهيد ، بعد ان أُرتجَ عليه فقال له :

« أعجزٌ يا فتى الإنس ؟ » أي هـــل أُرتج عليكَ فعجزتَ عن الكلام ؟ فأجابه : « لا وأبيك ! للكلام أحيانٌ ، وهذا شأن الانسان . » وعندما يسأله الشاعر عمّن يكون ؟ يجيبُهُ : « انا زهير بن نُمير مـن اشجع الجنّ ، تصوّرتُ لك رغبةً في اصطفائك . » فيرحّبُ به ابن شُهيد قائلاً :

« اهلاً بك ايها الوجه الوضّاح ! صادفتَ قلباً اليك مقلوباً ، وهوًى نحوك مجنوباً . » ويذهبان معاً في رحلةٍ الى ارض التوابع والزوابع . كانا يسيران في رحلتهما على متن الأدهم ، كالطير يجتابُ الجوَّ فالجوّ ، ويقطعُ الدوَّ فالدوّ ، حتى التمحَ ابنُ شُهيد أرضاً لا كأرضنا ، وشارف جوّاً لا كجوّنا ، فتفرَّع الشجرُ ، عطِرَ الزّهر فقال له الجني :

– حللتَ أرض الجنّ أبا عامرٍ . فبمن تريدُ أن تبدأ ؟

فأجابه ابن شُهيد :

– الخطباء أولى بالتقديم ، ولكني الى الشعراء أشوق ، وهو يعني بالخطباء الكتّاب عامةً .

فقال زهير :

– فمن تريد منهم ؟

قال ابن شُهيد :

– صاحبَ امرىء القيس .

فأمال زهير العِنـــان إلى وادٍ من الأودية ذي دوحٍ تتكسَّرُ أشجارُهُ ، وتترنم أطيارهُ ، فصاح :

– يا عُتيبةُ بن نوفلٍ ، بسِقطِ اللـّوى فحومَل ، ويوم دارةِ جُلجُل[1].

إلّا ما عرضتَ علينا وجهك ، وأنشدتنا من شعرك ، وسمعتَ من الانسيّ ، وعرّفتنا كيف إجازُتكَ له !

وعندها ظهر لهما فارسٌ على فرسٍ شقراء كأنها تلتهبُ فقال :

– حيّاك الله يا زهير ، وحيّا صاحبك . أهذا فتاهم ؟

فأجابه ابنُ شُهيد :

– هو هذا ، وأيُّ جمرةٍ يا عُتيبة ؟

---

(١) اي وحق هذه الاماكن، وحق يوم دارة جلجل . وهو يشير بذلك الى معلقة امرىء القيس وقد جاء فيها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فقال :

أنشِدْ . فأجابه :

ـ السيّدُ أولى بالانشاد. عندئذٍ تطامحَ طرْفُهُ ، واهتز عِطفُهُ ، وقبضَ عِنان الشقراء ، وضربها بالسَّوط ... ثم ركزها وجعل ينشد :

« سما لكَ شوقٌ بعدما كان اقصرا [1] »

ويتشجّع ابن شُهيد فينشد في حضرة الجني قصيدةً من قصائده يتأمله عتيبة عند انتهائه من إنشادها ويقول له :

إذهب فقد أجزْتُكَ » وهذا جلّ ما يبتغيه صاحبنا .

وهكذا نراه ، بعد أن زار صاحب امرىء القيس ، يزور صاحبَ طرفة ، فشيطان قيس بن الخطيم ، فصاحبَ أبي تمام ، والبحتريّ ، وأبي نواس ، الى ان انتهيا الى صاحب ابي الطيب المتنبي . وهنا نترك الكلام لابن شُهيد :

ـ فقال لي زهير : ومَن تريدُ بعدُ ؟ فقلتُ له : خـاتمةَ القوم صاحبَ أبي الطيّب ، فقال :

اشدُدْ له حيازيمك[2] ، وعطرْ له نسيمكَ ، وانثُرْ عليه نجومك . وأمال عِنانَ الأدهم الى طريقٍ ، فجعل يركضُ بنا ، وزهير يتأمّلُ آثار فرسٍ لحناها هناك . فقلتُ له :

ـ ما تتبُّعكَ لهذه الآثار ؟ قال : هي آثار فرس حارثة بن المغلّس صاحب أبي الطيّب ، وهو صاحبُ قَنَص . فلم يزل يتقرّاها حتى دفعنا (فرسنا) الى فارسٍ على فرسٍ بيضاءَ كأنهُ قضيبٌ على كثب ، وبيده قناة قد أسندها الى عُنُقه ، وعلى رأسه عِمامة حمراء ، قد أرخى لها عذبةً صفراء[3] ، فحياه **زهير ،**

---

(١) مطلع قصيدة مشهورة لامرىء القيس ، قالها وهو ذاهب الى بلاد الروم .

(٢) جمع حيزوم وهو ما استدار بالظهر والبطن ومعناه استعد له وتهيأ .

(٣) العذبة : طرف العمامة من الخلف .

فأحسنَ الردَّ ناظراً من مقلةٍ شوساء[1] ، قد مُلئتْ تيهاً وعُجباً ! فعرّفه زهيرٌ قصدي ، وألقى اليه رغبتي . فقال : بلغني أنه يتناول[2] .

قلت: للضرورة الدافعة ، وإلا فالقريحة غير صادعة ، والشفرةُ غيرُ قاطعة . قال : فأنشِدْني ، واكبرتُهُ أن أستَنْشِدَهُ ، فأنشدتُهُ قصيدتي التي اولها :

أبرقٌ بدا أم لمعُ ابيضَ فاصلِ ؟

وهنـا ينشدُهُ ابن شُهيد اربعةً وعشرين بيتاً من هذه القصيدة ، فلما انتهى منها قال له حارثة :

« أنشدني أشدَّ من هذا . » فأنشده قصيدةً ثانيةً . ولما انتهى من إنشادها قال حارثةُ لزهير :

« إن امتدَّ به طلَقُ العمر[3] ، فلا بدَّ من أن ينفثَ بدرر ، وما أراه إلا سيحتَضَر ، بين قريحةٍ كالجمرِ ، وهمَّةٍ تضع أخمصَه على مفرق البدر . »

فقاطعه ابن شُهيد قائلاً :

« هلاّ وضعتَه على صَلعة النسرِ ؟ » يعني نسر الشعراء ، ويريد به صاحب المتنبي ذاته . فاستضحك حارثةُ اليه وقال له :

« إذهب فقد أجزتُك بهذه النكتة . »

وينطلقان (ابو عامر وصاحبه زهير) من عند الشعراء الى «مروج» الخطباء ، وقد تجمّعوا بمرج دهمان . فاذا هما « بنـــادٍ عظيم ، قد جمع كل زعيم » فصاح زهير : السلام على فرسان الكلام . فردّوا وأشاروا بالنزول .

وهنا يلتقي ابو عامرٍ بصاحب الجاحظ عُتيبة بن أرقم وبصاحب عبد الحميد حيث يتساجل معهما في فنون الكلام ويسمعهما رسالته في الحلواء فيستحسنانها

---

(١) مقلة شوساء : اي عين ناظرة بمؤخرها تكبراً او تغيظاً .

(٢) يتناول : هنا بمعنى يأخذ عن غيره . او يأخذ الاشياء القريبة المنال .

(٣) طلق العمر : اي غايته .

« ويضحكان عليها » ويجيزانِهِ عليهـــا شاعراً وخطيباً قائلين : « إن لسجعك موضعاً من القلب ، ومكاناً من النفس . »

ويحضر ابو عامرٍ في الفصل الثالث ، من الرسالة ، وزهير ، مجلساً من مجالس الجنّ ، حيث يتذاكرون ما تعاورتْه الشعراء من المعـــاني ، ومن زاد فأحسن الأخذ ، ومَن قصَّر . فيدور كلامهم على بيت النابغة الذبياني :

إذا ما غزوا بالجيش حلَّقَ فوقَهم

عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ

وقد طرق معناه كثيرٌ من الشعراء من بعد النابغة ولم يلحقوه . ويُتاح لأبي عامر أن يفخر بشعره ، وشعر ابيه واخيه ، وعمه ، وجده ، وجدِّ ابيه، حتى أدهش الجنّ فقال أحدهم :

« والذي نفس فرعون بيـــده ، لاعرضت لك ابداً ، اني أراك عريقاً في الكلام . »

وينتهي صاحبُنا ابو عامرٍ برفقةِ زهير الى « قرارةٍ غنَّاء ، تفترُّ عن بركةِ ماءٍ ، وفيها عانة[1] من حُمُر الجنّ وبغالهم . »

فلحمير الجنّ وبغالهم نادٍ أدبيّ ، وفيهم الأديب وفيهم الشاعر ، ويقع بينهم الخلافُ في الأدب والشعر ، تماماً كما يقع بين الآدميين . لذلك فأبو عامرٍ مدعوّ للحكم في هذا الخلاف ، الذي ترويه « البغلة الشهباء ، وعليها جُلها وبُرقُعها ، تلك التي تروي شعر البغال والحمير » ، ويعرف فيها ابو عامرٍ بغلة ابي عيسى ، فيتباكيان طويلاً ويتذاكران الماضي . وتنتهي الرّسالة بحديث ابي عامرٍ مع الأوزّةِ البيضاء الشهلاء التي هي في مثل جثمان النعامة، كأنما ذُرّ عليها الكافور، أولبستْ غِلالةً من دِمَقس الحرير . وهذه الأوزّةُ تفهم الأدب ايضاً لأنها تابعة لأحد المشايخ . لذلك يأخذ ابو عامرٍ بالحديث معها فتجيبُه :

---

(١) العانة : القطيع من حمر الوحش .

« ايها الغارُ المغرور ، كيف تحكمُ في الفروع وانت لا تُحكِم الاصول ؟ »
تشير الى انه يتحدث في الادب وهو لا يُحسن « أصوله » أي النحو والغريب ، وهما اصل الكلام ومادة البيان . ولكنَّ ابا عامرٍ يروِّعها ويذكِّرها بسُخفها قائلاً لها :

« هل تعرفين في الخلائق احمق من إوزَّة ؟ »

الخلاصة :

هذا مجمل مـــا تدور حوله رسالة التوابـع والزوابـع لابن شهيد الاندلسي قسَّمناها ، كما مرَّ بنـــا ، الى مدخلٍ واربعةِ فصول : توابـع الشعراء ، توابـع الكتَّاب ، نقَّاد الجن ، حيوان الجن[1] .

وقد لاحظنا ان ابا عامر كتب رسالته هذه ، ليتهكم على خصومه وحسَّاده من الادباء والشعراء ، ولينتقص من ادبهم ويطعن على منافسيه من اهـل العلم والادب والسياسة . فجعل الاوزة ، وهي مثل في الحمق والغباوة ، تابعة لشيخ من شيوخ النحاة ، كما جعل بغلة ابي عيسى شقيقة هؤلاء العلمـــاء والوزراء في مخاطبته إياها :

« من اخوانك من بلغ الامارة ، وانتهى الى الوزارة » . وفي هذا الكلام ما فيه من التهكم المقذع ، والسخرية الاليمة !

ويبدو ابن شهيد على شيء من الظرف وخفة الروح عندما يتحدث الى تابعه زهير بن نمير في رحلتهما الى وادي عبقر حيث يشرفان على «ناد لحمير الجن وبغالهم؟ والطريف ان الحمير والبغال «ينظمون» الشعر والشعر الغزلي على الاخص، يسمعه ابو عامر على لسان « بغلة شهباء ، عليهـــا جُلُّها وبرقعها ، لم تدخل فيما دخلت فيه العانة من سوء العجلة وسخف الحركة » وتضطره ان يحكم في هـــذا الشعر فيقول :

---

(١) ابن شهيد الاندلسي. رسالة التوابع والزوابع. بيروت. مكتبة صادر شرح : بطرس البستاني ١٩٥١

« ان للروث رائحة كريهة ، وقد كان أنف الناقة اجدر ان يحكم في الشعر ! فقالت : فهمت عنك واشارت الى العانة ان دُكيناً[1] مغلوب ، ثم انصرفت قانعةً راضية » .

بين رسالة التوابع والزوابع ورسالة الغفران

وضعنا رسالةالتوابع والزوابع في باب القصص الفلسفي لانها تدور كما رأيت ، حول رحلةٍ خياليّة الى بلاد الجنّ ، كما تدور رسالة الغفران لأبي العلاء المعرّي حول رحلةٍ سماويّةٍ .

ووجه الشبه بين الرسالتين واضح جليّ . فمن المفيد أن نجمع بينهما ، وأن نبحث فيها معاً مظهرين أوجه الشبه بينهما فيما يلي :

١ - كتبت رسالة التوابع والزوابع ، في رأي المستشرق الألماني بروكلمن[2] سنة ٤٠٤هـ - ١٠١٣م ، وفي رأي زكي مبارك[3] بين ٤٠٣هـ و ٤٠٧هـ . أمـا بطرس البستاني[4] فجعل ولادتها ، بعد أن درس الرأيين السابقين ، بعـد سنة ٤١٤هـ . امـا رسالة الغفران ، فقد ألفها أبو العلاء المعرّي اثناء عزلته سنة ٤٢٤هـ - ١٠٣٢م .

٢ - فتكون رسالة الغفران قد كتبت ، في رأي البعض ، عشرين سنة بعد التوابع والزوابع ، وتسع سنوات ، في رأي البعض الآخر .

٣ - وسواء صحّ هذا الرأي أو ذاك فالتشابه واقع بين الرّسالتين ولكنه ليس من الوضوح الى الدرجة التي نستطيع معها الجزم في الأمر .

على أنه ليس بمستبعدٍ ولا مستغربٍ ان يكون ابو العلاء المعرّي قد اطّلع على رسالة ابن شهيد ، لا سيما وان هذا الأخير لم يكن مجهولاً عند المشارقة .

---

(١) اسم الحمار الشاعر . اما الشاعر الثاني فهو البغل .

(٢) بطرس البستاني . رسالة التوابع والزوابع ص : ٩١ .

(٣) زكي مبارك . النثر الفني ج ١ : ٢٥٩ .

(٤) بطرس البستاني . رسالة التوابع والزوابع ص : ٩١ - ٩٢ .

٤ – وقد نستطيع ان ندّعي أن موضوع الرسالتين واحد وهو « عرض المشاكل الأدبية والعقلية بطريقة قصصية[١] ». وإن اختلفت الرسالتان فيالهدف الذي تستهدفان .

٥ – تخالف هذا الرأي مخالفة جازمة السيدة عائشة عبد الرّحمن – بنت الشاطيء – في كتابها « الغفران » وترى تناقضاً كبيراً في ادّعاء زكي مبارك «ان المسرح واحد في الرسالتين . فهو عند ابن شهيد وادي الجنّ في الدُنيا، وهو عند أبي العلاءْ وادي الانس في الآخرة » وتجيب عن ذلك بقولها[٢] :

« وكيف تسلم له (لزكي مبارك) دعوى وحدة المسرح بمثل جملته هذه؟ وهل ثمّ تقابلٌ أصرحُ وأوضحُ من الأنس والجن ، ومن الدُنيا والآخرة ؟ »

والجواب عن كلام بنت الشاطيء ليس مستحيلاً . فالتشابه واقع في جملة الموضوع لا في جوهره ولا في تفصيله . ولو وقع التشابه في الجوهر والتفصيل لما بقي تشابهاً بل لعُدّ سرقة أدبية . زد على ذلك انه ، فيما لوصح ان أبا العلاء المعرّي استطاع ان يطلع على رسالة أبي عامر فاستهوته في موضوعها ، فإنه على شيء كثير من الفطنة والذكاء ألا يتأثر بها تأثراً أعمى فينقلها نقلاً ، او ينسج على منوالها بطريقة تقليديّة واضحة .

والعكس هو الأصح . فقد تستهويه الفكرة ، وقد تبهره « الرحلة الخياليّة » فيجعلها الى وادي الأنس في الآخرة بدلاً من وادي الجن في الدُنيا كما هي عند ابن شهيد ، ويكتفي، كما ذكرنا، ان يقتنص الفكرة دون أن يقلد تقليداً اعمى !

٦ – نقول ما نقوله ونحن لا نؤكد بل نرجح لأن الادلة العلميّة التاريخية تنقصنا ولأن الرسالتين ، وان تشابهتا في أمور كثيرة ، تختلفان في ما ترميان اليه . « المعرّي يرمي في ما كتبه الى أن يسخر بالصورة التي تتمثلها العامة عن

---

(١) زكي مبارك . النثر الفني ج ١ : ٢٦٠ .

(٢) بنت الشاطيء . الغفران لأبي العلاء المعري . دار المعارف . القاهرة . ١٩٥٤ ص : ٣١٢ .

الحياة الثانية ، وابن شهيد ... تخيّل ما تخيّل ، لينقد خصومه ، ويبين لمعاصريه مقامه الرفيع في النثر والنظم بين جماعة الجن أنفسهم[1] » .

٧ – وسواء صح ادعاء القائلين بالتشابه والمحاكاة أو لم يصح فأبو العلاء في رسالة الغفران أعمق تفكيراً ، وأشمل نظراً الى الحياة من أبي عامر الذي اكتفى بعرض بعض المشكلات الأدبية اللغويّة التي شغلته وشغلت معاصريه .

٨ – واذا ما تشابهت الرسالتان في موضوعها الى حد مـا ، فأن طريقيهما لمختلفتان . طريق ابن شهيد تقوده الى عالم الجن والتوابع والزوابع ، وطريق أبي العلاء تقوده إلى السماء ، والجحيم ، والملائكة ، والآخرة .

٩ – اما اتفاق الرسالتين في أنهما وجهتا الى شخصين معينين ، الواحدة الى ابن القارح ، والثانية الى أبي بكر بن حزم ، فهـما يدلُّ على الطريقة المألوفة في الكتابة آنذاك .

١٠ – يُلاحظ في كلتا الرسالتين ان العنصر القصصي ليس قوياً ، ذلك أن مؤلفيهما لم يقصدا الى القصة والحكاية الا للوصول الى غرضهـما الاساسي ، وهو عرض المشاكل الادبية اللغوية عند ابن شهيد ، وعرض المعضلات الدينية والفلسفية عند أبي العلاء ، فالقصة عندهما مركب لأفكارهما الفلسفية والاجتماعية .

١١ – مسرحُ ابن شهيد وادي الجن ، وعالمه عالم التوابع والزوابع ، وأبطاله وممثلوه جن وأرواح ولكنه لم يستطع ان يهزنا في وصف هذا العـالم الغريب العجيب ، ولم يستطع ان يصل الى اعماقنا في وصف هذه الدنياوات المليئة بالعجائب والغرائب ، المحاطة بالأسرار والألغاز ، الغنية بالخرافات والأساطير !

١٢ – اما مسرح ابي العلاء فهو العالم الآخر ، وكان في تصويره ابرع واعمق من ابي عامر . لقـد ظهرت الجنة « بأنهارها واشجارها ، وطعامها وشرابها ، وجمال حورها ، من الصالحات والناجيات ، وفيهن من كانت دميمة سوداء ،

---

(١) جبور عبـد النور . نظرات في فلسفة العرب . بيروت . دار المكشوف ١٩٤٥ ص ٤٦ .

فأصبحت في الجنان حوراء عينـــاء ، شفافة بيضاء ، او من المنشآت في الخلد ابكاراً عرباً اترابا ، تنشقُّ عنهن الاثمار ، فيخرجن كواعب يرقصن ، فتهتزُّ ارجاء الجنة . والصالحون متكئون على مفارش من السندس ، او يحملهم الحور والولدان على سرر من زبرجد او عسجد ، وهم مستلقون على ظهورهم، منعمون بالراحة الكبرى . فاذا رأوا عنقوداً من العنب أو غيره ، انتضب عن الشجرة بمشيئة الله ، وحملته القدرة الى افواههم ، اذ لا همَّ لها الا تلبية شهوات الابرار الناجين . »

١٣ — وفي رسالة الغفران اساطير وحكايات هي متعة للروح ولذة للنفس . فهو في رحلته هذه يصل الى حدائق الحور حيث يقوده ملك من الملائكة فيقول: « خذ ثمرةً من هذا الثمر ، فاكسرها ، فأن هذا الشجر يُعرفُ بشجر الحور . فيأخذ سفرجلة أو رمانة أو تفاحة، أو ما شاء الله من الثمار فيكسرها ، فتخرج منها جارية حوراء عيناء ، تبرق لحسنها حوريّات الجنان ، فتقول : من أنت يا عبدالله ؟ فيقول : أنا فلان ابن فلان ، فتقول : إني أُمنّى بلقائك قبل أن يخلق الله الدُنيا بأربعة آلاف سنة » .

وليس شيء مثل هذا الخيال الطريف في التوابع والزوابع .

١٤ — وختاماً نقول إن مواضيع الغفران لا تتعدّى الثلاثة :

أ — الحياة الآخرة كما تمثلها أبو العلاء في الجنة والنار .

ب — الزندقة والألحاد والغفران والنبرة .

ج — اللغة والأدب والشعر والنقد .

كلّ ذلك بأسلوب قصصيّ .

١٥ — أما رسالة التوابع والزوابع فلقد ذكرنا انها تدور حول :

أ — توابع الشعراء .

ب — توابع الكتّاب .

ج — نقّاد الجنّ .

د — حيوان الجنّ .

ولننتقل الى **حيّ بن يقظان**، الرسالة الفلسفية القصصية التي كتبها الفيلسوف المغربي ابن طفيل .

حيّ بن يقظان لابن طُفيل

من هو ابن طفيل ؟

لقد أنزلنا ابن طفيل في عداد القصاص، كما دعونا كتابه : « حيّ بن يقظان » قصّة . ولكننا ، من ناحيةٍ ثانية، يجب ان نعترف ان ابن طفيل لم يكن قصاصاً بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، ولم يشتهر في التأليف القصصيّ ؛ بل كان فيلسوفاً، وُعرف واشتهر بالعلوم، والطبّ ، والرياضيّات، والفلك . أما اعتبارنا كتابه : حيّ بن يقظان قصّة، فهـذا من باب التجوّز من ناحية، ولأنه عرض أفكاره الفلسفيّة في هذا الكتاب ، بأسلوبٍ قصصيّ ، وطريقة قصصية ، من ناحية ثانية .

فهو ، في ذلك ، يتشابه وأبا العلاء المعرّي ، وابن شهيد الأندلسيّ اللذين لم يكتبا القصّة من أجل الفن القصصيّ ، كما رأينا ، ولم يقصداها بالذّات ، بـل اتخذاها مركباً لافكارهما وآرائهما الاجتماعية الفلسفية .

نشأة ابن طفيل

ولد ابن طفيل في بلاد الاندلس في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ١١١٠م ؟ (بين ٥٠٤هـ و٤٩٤هـ ؟) ونشأ نشأة جدّية فأكبّ، منذ صغره على العلم والمطالعة العميقة ينهـلُ من آثار من سبقه من مفكري العرب وفلاسفة الاسلام وفي طليعتهم ، ابن باجه ، والكنديّ ، والفارابيّ ، وابن سينا ، والغزّالي . وكان همّه الاكبر ومشكلته الانسانية في حياته هي أن يجد حلاً لقضيّة الدّين والفلسفة : هل يتفقان ؟ هل يختلفان ؟ لماذا يختلفان ؟ يجب أن يتفقا ! وهذا الموضوع شائك وعويص، عالجه قبل ابن طفيل كثير من الفلاسفة فلم يصلوا الى حلٍّ نهائي، فهل يصل هو الى هذا الحلّ؟ هذا ما نجد جوابه في حكاية: حيّ بن يقظان التي نسجها

ابن طفيل وحبك خيوطها وبثّها أفكاره وآراءه بطريقة أسطورية رمزيّة ، فيها الكثير من الجمال ، والكثير من الروعة . والى القارىء موجز هذه القصة كما ورد في كتاب المستشرق : غارسيا غومس Garcia Gomez .

« في جزيرة مهجورة من جزائر الهند التي تحت خطّ الاستواء ، وفي وسط ظروف طبيعية طيبة ، تولد طفلٌ من بطن أرض تلك الجزيرة . تخمرت فيه طينة على مرّ السنين دون أن يكون له أمٌ أو أبٌ . وفي قول آخر : أن تيار البحر حمله الى هذه الجزيرة في تابوتٍ أحكمت زمّهُ (أمُّهُ) بعد ان أروته من الرّضاع ، وكانت أميرة مضطهدة في جزيرة مجاورة ، فاستودعت ابنها الأمواج حتى تنجيه من الموت . وهذا الطفل هو (حيّ بن يقظان) . فتبنته غزالة وارضعته وصارت له كأمه . ونما حيّ وأخذ يلاحظ ويتأمل . وكان الله قد وهبه ذكاءً وقّاداً فعرف كيف يقوم بحاجات نفسه ، بل استطاع أن يصل بالملاحظة والتفكير الى ان يدرك بنفسه أرفع حقائق الطبيعة وما وراءها . وقد وصل الى ذلك بطريقة الفلاسفة بطبيعة الحال . وأدّتْ به هذه الطريقة الى ان يحاول عن سبيل الاشراق الفلسفيّ ، الوصول الى الاتحاد الوثيق بالله ، وهذا الاتحاد هو العلمُ الغزير ، والسعادة العليا المتصلة الخالدة في وقتٍ واحد . ولكي يصل « حيّ » إلى ذلك دخل مغارة وصام أربعين يوماً متوالية ، مجتهداً في ان يفصل عقله عن العالم الخارجي وعن جسده بواسطة التأمل المطلق في الله لكي يصل الى الاتصال به ، حتى أدرك ما أراد .

وعندما بلغ ذلك المبلغ لقي رجلاً تقياً يُسمّى « آسال » اقبل من جزيرة مجاورة الى هذه الجزيرة يحسبها خلاءً من الناس . وأقام « آسال » بتعليم الكلام الى صاحبه المنفرد بنفسه والذي لقيه دون أن يتوقع ذلك . ولم يلبث أن وجدَ في الطريق الفلسفيّ الذي ابتكره « حيّ » لنفسه ، تعليلاً عُلويّاً للدّين الذي كان يعتقده ، وتفسيراً كذلك لكل الاديان المنزلة . ثم أخذ « آسال » صاحبه الى الجزيرة المجاورة ، وكان يحكمها ملك تقيٌ يُسمّى « سلامان » « وهو صاحبُ آسال الذي كان يرى ملازمة الجماعة ويقول بتحريم العزلة » ، وطلب اليه أن يكشف (لاهل الجزيرة) عن الحقائق العليا التي وصل إليها ، فلم يوفق . ووجد عالماناً

نفسيهما مضطرين ، آخر الامر ، إلى ان يعترفا بأن الحقيقة الخالصة لم تخلق للعوام إذ إنهم مكبلون بأغلال الحواس. وعرفا انالانسان إذا أراد أن يصل الى التأثير في افهامهم الغليظة ، ويؤثر في إرادتهم المستعصية ، فلا مفرّ له من ان يصوغ آراءه في قوالب الاديان المنزلة .

وكانت نتيجة هذا ان قرّرا اعتزال هؤلاء الناس المساكين إلى الابد ونصحهم بالاستمساك بأديان آبائهم . وعاد «حيّ» وصاحبه الى الجزيرة المهجورة لينعما بهذه الحياة الرفيعة الالهيّة الخالصة التي لا يدركها الا القلائل من الناس» .

هذا ملخّص موجز لرسالة «حيّ بن يقظان» وفيه يتضح ان هذا الكتاب ليس قصّة بالمعنى الخاص المفهوم من القصة كما تقدم بنا القول ، وإنما هو دراسة فلسفية مسرودة سرداً قصصياً ، ومسبوكة بقالبٍ قصصيّ .

شهرة «حيّ بن يقظان»

من أشهر الحكايات الفلسفية إن لم تكن أشهرها . درسها وبحث فيها بحثاً علمياً الكثيرون من علماء الغرب والشرق . ذكرها المستشرق الكبير بروكلمان في كتابه : «تاريخ الادب العربيّ» واشار الى شهرتها وجميع الذين درسوها وترجموها ومنهم :

١ – E. Pococke. بوكوك ترجمها إلى اللاتينية ١٦٧١م .
٢ – Ashwell. اشوال ترجمها الى الانكليزية ؟
٣ – G. Keith كيت ترجمها الى الانكليزية ؟
٤ – S. Ockley. اوكلي ترجمها الى الانكليزية واعيد طبعها اكثر من مرة ١٩٠٥م .
٥ – J. G, Pritius. برتيوس ترجمها الى الالمانية ١٧٢٦م .
٦ – J. K. Eichorn. إيخورن ترجمها الى الالمانية ١٧٨٢م .
٧ – F. P, Boigues. بويجيس ترجمها الى الاسبانية ١٩٠٠م .
٨ – L. Gauthier. غوتيه ترجمها الى الفرنسية ١٩٠٠م .

وترجمته ادق واوفى الترجمات الاوربيّة ، على ما يتفق عليه العلماء .

٩ – B. Bronle. برونلي ترجمها الى الانكليزية ١٩٠٤م .

١٠ – A. S. Fulton فولتن ترجمها الى الالمانية ١٩٠٧م .

وقد ترجمت الى الروسية سنة ١٩٢٠م واعاد ترجمتها Palentia بالنثيا سنة ١٩٣٦م كما ترجمها سنة ١٩٢٦م الى الاسبانية المستشرق : Garcia Gomez

« حيّ بن يقظان » والفلسفة :

سبق القول ان المسألة الاساسية التي شغلت بال ابن طفيل فألف من اجلها كتابه « حي بن يقظان » هي مسألة التوفيق بين الدين والفلسفة . وهي مسألة شغلت بال الفلاسفة المسلمين قبل ابن طفيل وبعده مدة طويلة . وكان هدفه من ذلك « ان يثبت ان العقل ، في مراحل التقدم الانساني ، قادر على إدراك الحق كاملاً ، بالحس والعقل آناً ، والذوق والاشراق آناً آخر ، مستقلاً عن الشريعة . وان سلامان يرمز الى الجمهور الساذج الآخذ بحرفية الشريعة ، والعبرة في ذلك ان النصّ الحرفي في هدايتهم انجع ، لانهم مهيّأون لقبول الامر والنهي ليس إلا .

وان آسال يرمز إلى طبقة المفكرين الذين لم يقنعهم المدلولُ الحرفي في بعض النصوص ، فعمدوا الى استخراج المفاهيم البعيدة بالتأويل . والذي يرمي إليه من ذلك : ان احكام الشريعة متفقة مع حقائق العلم ، وان الشريعة تجتمع والفلسفة في وحدة جوهرية . وعليه فالابطال الثلاثة متفقون في الحق ، والتعاليم الثلاثة منسجمة في الجوهر[1] » .

ولقد راى بعض الذين عالجوا ما يرمي إليه ابن طُفيل في رسالته « حي بن يقظان » انه يقصد ان باستطاعة الفرد المتوحد الوصول الى ما وصل اليه « حي » دون مساعدة الجماعة . والحقيقة ان « غايته هي تمثيل إمكان تطور البشريّة دون حاجة الى وحيٍ منزل[2] » .

---

(١) كمال اليازجيّ : معالم الفكر العربي بيروت . دار العلم للملايين ١٩٥٤ ص : ١٦٩ .

(٢) ابن طفيل : حيّ بن يقظان . دراسة صليبا وعياد . دمشق ط ٥ (١٣٥٩هـ–١٩٤٠) ص : ٥٠ .

هذا هو المذهب الفلسفي الذي اراده ابن طفيل وعبّر عنه في قالبٍ قصصي قرّبه من نفوس القراء وحبّبه الى جمهرة العامّة من الناس .

« حي بن يقظان » والقصة :

يقول احمد امين في تحقيقه وتعليقه على «حيّ بن يقظان[1]» : « اما القالب القصصيّ الذي اتخذه ابن طفيل سبيلاً لعرض آرائه الفلسفيّة ، فقد درسه الاستاذ غرسية غومس دراسةً علميّةً عميقةً شاملة ، ذهب فيها إلى ان هذا الهيكل العام للقصة مأخوذ من « قصة الصنم والملك وابنته » ، وهي احدى الاساطير التي نسجت حول شخصية الاسكندر الاكبر ، ولا بدّ أنها كانت معروفة عند اهل الاندلس فتناولها ابن طفيل وصاغها في قالب رمزي . وفي هذا يقول غرسية غومس : « وقد وجد ابن طفيل في هذه الفكرة الادبية ذات الحيوية المتصلة ، والتي تبدو حقيقة وإن كانت من نسج الخيال، السبيل الى عرض نظرية المفكّر المتوحّد ونظريات فلسفيةً أُخرى . هذا وقد وردت فكرة الفيلسوف المتوحّد في كتابات ابن سينا وابن باجة ، وقد وجد ابن طفيل فيها كذلك وسيلةً تتفق مع تفكيره اتفاقاً بديعاً ، بل ضمّت هذه الحكاية نقطةً ظاهرة استطاع ابن طفيل ان يُفرغَ فيها أفكاره ، ومن هنا نتج هذا التأليف الجميل بين قصّة شائعة وبين الافكار الفلسفيّة ، واستطاع ابن طفيل بأسلوبه العذب الذي يفيض ابتكاراً ومنطقاً وقوّة شاعريّة أن يخلق منها اثراً من اعظم ما اطلعته العصور الوسطى . »

والحقيقة ان ابن طفيل نهج في رسالته نهجاً قصصياً رمزياً اسطورياً لان غايته الاساسية ، وهي ايصال المعرفة الاشراقية الى القارىء ، لا تحصل «باحراز العلوم ومطالعة الكتب ، وانما تكون بالسلوك والرياضة والذّوق». والقصة قد تحمل القارىء على مرافقة شخص الحكاية ، بحيث ينتقل الى جو البطل نفسه ؛ فاذا قادت حوادثُ الحكاية بطلها الى الذوق والمشاهدة ، كان للقارىء المأخوذ بسياق القصة نصيب من ذلك الذوق وتلك المشاهدة غيرُ يسير . وشاهدُ ذلك قوله

---

(١) احمد امين — حي بن يقظان لابن سينا ، وابن طفيل ، والسهروردي . القاهرة . دار المعارف . ١٩٥٢ ص : ١٢

قبل الدخول في حكايته : « غير أنّا إن ألقينا اليك بغايات ما انتهينا اليه من ذلك ، قبل أن نحكم مباديها معك ، لم يُفدك ذلك شيئاً اكثر من امرٍ تقليدي ، ونحن لا نقنع لك بهذه الرتبة ، اذ هي غير كفيلة بالنجاة ، فضلاً عن الفوز بأعلى الدّرجات ، وإنما نريد ان نحملك على المسالك التي تقدم عليها سلوكنا ، ونسبَح بك في البحر الذي عبرناه اولاً ، حتى يُفضيَ بك الى ما افضى بنا اليه ؛ فتشاهد من ذلك ما شاهدناه ، وتتحقّق ببصيرة نفسك كل ما تحقّقناه ، وتستغنيَ عن ربط معرفتك بما عرفناه . » ثم يستأنف قائلاً : « وهذا يحتاجُ الى مقدارٍ من الزمان غير يسير ، وفراغٍ من الشواغل ، وإقبالٍ بالهمّةِ كلها على هذا الفنّ . فان صدقَ منك هذا العزم ، وصحّتْ نيّتك للتشمير في هذا المطلب ... فأنا واصفٌ لك قصّة حي بن يقظان وآسال وسلامان ... ففي « قصصهم عبرةٌ لاولي الالباب . »[1]

نرى مما تقدم ان « حيّ بن يقظان » هي قصة ، ولكنها قصة ساذجة بسيطة من حيث الفن القصصي ، وليس لعناصرها القصصية قيمة فنية كبرى ، وانما استعملت هذه القصة البسيطة لعرض آراء ابن طفيل العلمية والفكريّة والدينية .

ولقد استطاع أن يجمع ابن طفيل في حكايته هذه حكاية الفلسفة العربية كلها بقالبٍ أدبي قصصي جميل ، فجاءت قصتُهُ أثراً فكرياً ادبياً من اروع الآثار العربية في العصور الوسطى .

---

(١) كمال اليازجي وانطون كرم – اعلام الفلسفة العربية . لجنة التأليف المدرسي . بيروت ١٩٥٧م ص : ٨٠٢ .

كلمة ختامية :

بهذه الطبعة الرابعة من كتاب « الادب القصصيّ عند العرب » نكون قد عرضنا للقَصص العربي القديم بأنواعه الخمسة : الإخباري ، والبطولي ، والديني ، واللغوي ، والفلسفي ، مع مدخل في دراسة اثرين كبيرين من القَصص الدخيل هما : الف ليلة وليلة وكتاب كليلة ودمنة .

وقد لاحظ القارىء ولا شك ، في اننـــا بذلنا جهدنا للاّطلاع على جميع المصادر ، من قديمة وحديثة ، التي تنـــاولت موضوع القصة بالبحث والدرس فأفدنا منها ، وعرضناها عرضاً موضوعياً ، وناقشناها مناقشة علمية هادفين من كل ذلك الى ان يجيء كتابنـــا هذا دراسةً نقديّة ، مدعومة بالآراء والشواهد العلمية التاريخية ، وبعيدة عن الميل والهوى والآراء الشخصية التي لا تستند الى حقائق من العلم والتاريخ !

وللقارىء البصير النزيه الكلمة الاخيرة في الكتاب .

مصادر البحث حسب ترتيبها التاريخي

الكتاب المقدس

القرآن الكريم

؟ المهبراته — تر . عن السنسكريتية د. ط. رومش . عرّبها شعراً وديع البستاني . بيروت . ١٩٥٢م

ابن المقفع (١٤٣هـ) — كليلة ودمنة . القاهرة . مطبعة المعارف . ١٩٤١م

الطبري (٣١٠هـ) — تاريخ الرسل والملوك لابي جعفر محمد بن جرير الطبري ليدن ١٨٧٩ — ١٩٠١م

ابن عبدربه (٣٢٨)— العقد الفريد لاحمد بن محمد بن عبد ربه . المطبعة الاميرية مصر سنة ١٢٩٣ هـ

الهمداني (٣٣٤) — الاكليل تأليف ابي محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف بن داود المشهور بالهمداني — نشر الكرملي بغداد ١٩٣١ م

المسعودي (٣٤٦) — مروج الذهب ومعادن الجوهر لابي علي بن الحسين بن علي المسعودي . باريس ١٨٦١ — ١٨٧٦ م

الكندي (٣٥٥) — كتاب الولاة وكتاب القضاة لابي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي

الاصفهاني (٣٥٦) — كتاب الاغاني لابي الفرج علي بن الحسين الاصفهاني. بولاق مصر ١٢٨٥هـ ١٨٦٨م والجزء ٢١ رودلف برونو سنة ١٣٠٥هـ — ١٨٨٨م

ابن النديم (٣٨٥) — كتاب الفهرست لمحمد بن اسحق الوراق المعروف بابن النديم ليبزك ١٨٧١ م

الخوارزمي (٣٨٧) — كتاب مفاتيح العلوم لابي عبدالله بن احمد يوسف الخوارزمي مطبعة الشرق ١٣٤٢ هـ

الفردوسي(٤١٠هـ) — الشاهنامه لابي القاسم منصور بن فخر الفردوسي . ترجمها نثراً الفتح بن علي البنداري وقارنها بالأصل الفارسي وأكمل ترجمتها عبد الوهاب عزّام. القاهرة. لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٢ ط ١

ابن شهيد الاندلسي (٤٢٦هـ) – رسالة التوابع والزّوابع . بيروت . مكتبة صادر . تح : بطرس البستاني ١٩٥١ م

الثعلبي (٤٢٧) – عرائس المجالس في قصص الانبياء تأليف ابن اسحق احمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي . مصر مطبعة مصطفى محمد ١٣٠١ هـ

الحصري (٤٥٣) – زهر الآداب وثمر الالباب لابي اسحق الحصري القيرواني . المطبعة الرحمانية مصر ١٩٢٥ م

ابن بسّام (٥٤٢ هـ) – الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة . القاهرة . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٨ هـ – ١٩٣٩ م

ابن طفيل (٥٨١ هـ) – حيّ بن يقظان تح : أحمد أمين . مصر . دار المعارف ١٩٥٢ م

ابن طفيل (٥٨١ هـ) – حيّ بن يقظان . تحليل جميل صليبا وكامل عيّاد . دمشق . مطبعة الترقي . ١٣٥٩هـ – ١٩٤٠ م ط. ٥

ابن رشيق (٤٥٦ هـ) – كتاب العمدة لابي العباس الحسن بن رشيق القيرواني مصر ١٩٢٥ م مطبعة امين هندية

الحريري (٥١٦ هـ) – المقامات . بيروت . المطبعة الأدبيّة . ١٨٨٦ م

الكسائي ؟ – قصص الانبياء للشيخ الامام محمد بن عبد الله الكسائي ليدن ١٩٣٢ م

ابن الاثير (٦٠٦ هـ) – النهاية في غريب الحديث والاثر في خمسة مجلدات . مجد الدين ابن العادات المبارك محمد بن الجزري – المطبعة العثمانية بمصر ١٣١١ هـ

ياقـوت (٦٢٦ هـ) – معجم البلدان للشيخ شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي . ليبزك ١٨٦٦ – ١٨٧٠ م

ابن الاثير (٦٣٠ هـ) – الكامل في التاريخ لابي الحسن عز الدين المعروف بابن الاثير المطبعة العامرة . مصر ١٢٩٠ هـ

ابن الاثير (٦٣٧ ﻫ)	– المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابي الفتح نصرالله بن أبي الكرم محمد الشيباني المعروف بابن الاثير مصر ١٢٨٢ ﻫ
الغفطي (٦٤٦ ﻫ)	– أخبار العلماء باخبارالحكماء لجمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف القفطي مصر ١٣٢٦ ﻫ
ابن ابي اصيبعة (٦٦٨ ﻫ)	– عيون الانباء في طبقات الاطباء لموفق الدين ابي العباس احمد بن القاسم . سنة ؟
ابن خلكان (٦٨١ ﻫ)	– وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان لشمس الدين احمد بن محمد بن خلكان مصر ١٢٧٥ ﻫ
النويري (٧٣٢ ﻫ)	– نهاية الارب في فنون الادب لشهاب الدين احمد ابن‌عبد الوهاب ابن احمدالبكري النويري مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٣ – ١٩٣٣ م
ابن خلدون (٨٠٨ ﻫ)	– كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابي زيد عبد الرحمن ابن خلدون بيروت ١٩٠٠ م
المقريزي (٨٤٥ ﻫ)	– كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لابي العباس تقي الدين المقريزي . سنة ؟
المقّري (١٠٤١ ﻫ)	– نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب مصر ١٢٧٩ ﻫ
الحاجي خليفه (١٠٦٨ ﻫ)	– كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون لمصطفى بن عبدالله كاتب جلبي – ليبزك ١٨٣٥–١٨٥٨م فلوجل
؟	– سيرة عنترة بن شداد – بيروت المطبعة الادبية سنة ١٨٨٤ م
؟	– سيرة فارس اليمن الملك سيف ابن ذي يزن . مصر . المطبعة السعيدية . سنة ؟

المصادر الحديثة

اسكندر آغا ابكاريوس — منية النفس في اشعار عنتر عبس

سليمان البستاني — إليـاذة هوميروس . مصر . مطبعة الهلال ١٩٠٤م

جرجي زيدان — تاريخ آداب اللغـة العربية . مصر . مطبعة الهلال ١٩١٤م

احمد حسن الزيّات — تـاريخ الادب العربي . مصر . مطبعة الاعتماد . ١٩١٤!

احمد امين — فجر الاسلام . مصر . ١٩٢٨م

احمد امين — ضحى الاسلام . مصر . ١٩٣٣م

زكي مبارك — النثر الفني في القرن الرابع . القاهرة . دار الكتب . ١٩٣٤م

كامل الكيلاني — حيّ بن يقظان . مصر . مطبعة المعارف . ١٩٣٥م

عبد الوهاب النجار — قصص الانبيـاء . مصر . مطبعة النصر . ١٩٣٦م

محمود تيمور — نشوء القصة وتطوّرهـا . مصر . المكتبة السلفية . ١٩٣٦م

ارنولد وجيوم — تراث الاسلام . ترجمة لجنة من الجـامعيين . مصر . ١٩٣٦م

عبد العزيز البشري — المختار . مصر . مطبعة المعارف . ١٩٣٧م

محمد صابر — ادب الفراعنة . القاهرة . ١٩٣٧م

ده بور — تاريخ الفلسفة في الاسلام . ترجمة ابو ريدة . القاهرة . ١٩٣٨م
عبدالله غانم — كتاب الاجيال . بكفيا . ١٩٣٨م
حسن وغيره — كتاب نواحٍ مجيدة من الثقافة الاسلامية . ١٩٣٨م
جاد المولى، البجاوي، ابراهيم — قصص العرب . مصر . ١٩٣٩م
توفيق الحكيم — تحت شمس الفكر . القاهرة . مطبعة التوكيل . ١٩٤١م
جورج ديهامال — دفاع عن الادب . ترجمة محمد مندور . القاهرة . ١٩٤٢م
سهير القلماوي — الف ليلة وليلة . القاهرة . مطبعة المعارف . ١٩٤٣م
عبد النور جبور — نظرات في فلسفة العرب . بيروت . دار المكشوف . ١٩٤٥م
حتي ، جرجي ، جبور — تاريخ العرب (مطوّل) . بيروت . دار الكشاف . ١٩٤٩م
عمر فرّوخ — الرسائل والمقامات . بيروت . مكتبة منيمنه . ١٣٦٩هـ — ١٩٥٠م
شوقي ضيف — المقامة . القاهرة . دار المعارف . ١٩٥٤م
مارون عبود — بديع الزمان الهمذاني . بيروت . دار المعارف . ١٩٥٤م
بنت الشاطىء — الغفران لأبي العلاء المعرّي . القاهرة . دار المعارف . ١٩٥٤م
كمال اليازجي — معالم الفكر العربي . بيروت . دار العلم للملايين . ١٩٥٤م
يازجي وكرم — أعلام الفلسفة العربية . بيروت . لجنة التأليف المدرسيّ . ١٩٥٧م

المجلات والجرائد

مجلة المشرق مج : ٢١ و٢٧ و٢٨

مجلة الهلال مج : ٥ و١٤

مجلة المقتطف : مج ٢٩

مجلة المكشوف مج ٢

مجلة العروة الوثقى . عدد كانون الثاني . ١٩٣٩م

مجلة الأمالي

مجلة الابحاث ج ٣ السنة ١



المصادر الاجنبية

1 - Arbuthnot, F. F. - Arabic Authors, London, 1890.
2 - Chauvin Victor. - Bibliographie des Ouvrages Arabes ou relatifs aux Arabes. Lièges, 1892.
3 - Ampère M. J. J. - La Revue des deux mondes, Février 1898.
4 - Huart Clément. - Littérature Arabe - Paris, 1902.
5 - Tisdall, N. St. Clair - The Original Sources of the Qur'an. London, 1905.
6 - Driver S. R. - The Book of Genesis - London, 1907.
7 - Alphonse de Lamartine - Voyage en Orient, Paris, 1910.
8 - Skinner J. - Genesis. Edinburg 1910.
9 - Lane Pole, Stanly - The Moors in Spain, London 1920.
10 - Carra de Vaux - Penseurs de l'Islam. Paris, 1921 - 26.
11 - O'learn De Lacy - Arabic Thought And its place in History, London, 1922.
12 - Ribera, J. - Music in Ancient Arabia And in Spain. London, 1929.
13 - Farmer, H. G. - A History of Arabian Music to the XIII Century London, Luzac 1929
14 - Farmer, H. G. - Historical facts for the Arabian musical influence. London, W. Reeves, 1930.
15 - Farmer, H. G. - Studies in Oriental musical instruments. London. W. Reeves 1931.
16 - Heller B. - Die Bedentug des Arabichen 'Antar-Romans Für Die Vergleichende Litteraturkund. Leipzig 1931.
17 - Leonard, N. E. - Gilgamesh, epic of old Babylonia ; a rendernig in free rythms. New york, The Viking press, *1934.*
18 - Bédier Joseph - La Chanson de Roland. Paris, *1937.*
19 - Hell Joseph - The Arab Civilzation ; translated from the German by S. Khuda Bakhsh. Lahore Ashraf *1934,*
20 - Pritchard, J. B. Ancient Near Eastern Texts. Princeton. New Jersey *1950.*
21 - Encyclopedia Britanica - Epic
22 - Encyclopedy of Islam - Vol I and IV.
23 - Journal Asiatique 9ème série,

فهرست الكتاب

فهرس الاعلام

ص

ض

ط

ظ

ع

(١٩)

تم طبع هذا الكتاب على مطابع

دار الكتاب اللبناني

بيروت ص.ب ٣١٧٦ ـ تلفون ٢٢٧٩٨٣

سنة ١٩٦٩